
انحرافات
في
الحركة الإسلامية
أحمد طه



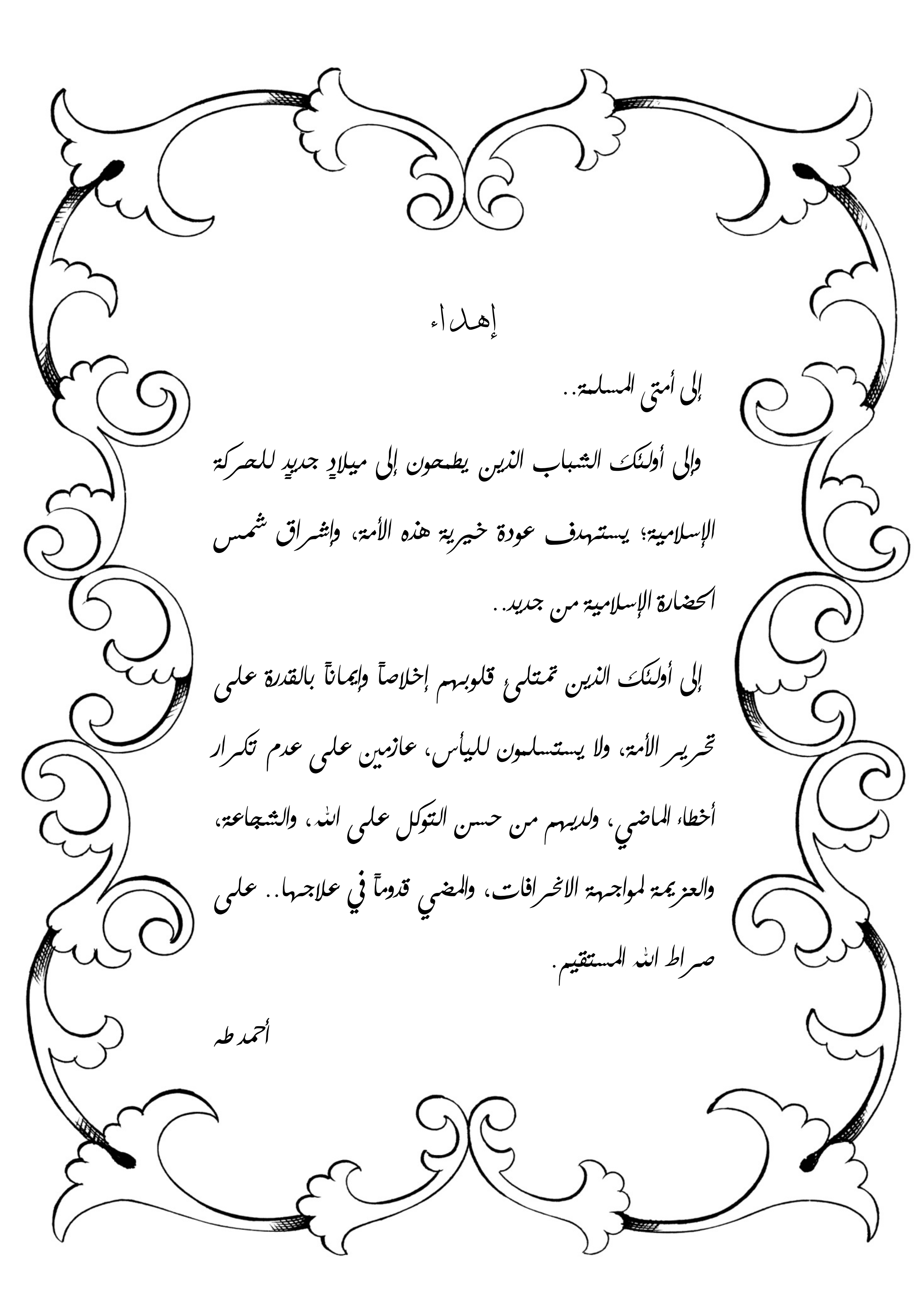
انحرافات
في
الحركة الإسلامية

الطبعة الإلكترونية الأولى Pdf

(1438 هـ - 2016 م)




بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى أمتي المسلمة..

وإلى أولئك الشباب الذين يطمحون إلى ميلادٍ جديدٍ للحركة الإسلامية؛ يستهدف عودة خيرية هذه الأمة، وإشراق شمس الحضارة الإسلامية من جديد..

إلى أولئك الذين تمتلئ قلوبهم إخلاصاً وإيماناً بالقدرة على تحرير الأمة، ولا يستسلمون لليأس، عازمين على عدم تكرار أخطاء الماضي، ولديهم من حسن التوكل على الله، والشجاعة، والعزيمة لمواجهة الانحرافات، والمضي قدوماً في علاجها.. على صراط الله المستقيم.

أحمد طه

فهرس



بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ﷺ، وبعد:

تُعاني الحركة الإسلامية من انحرافات خطيرة، لا تتكشف لنا إلا عند الاصطدام بها، فغالب هذه الانحرافات تكون مستورة خلف "السمت الإسلامي" ولكن عند المواجهة الحقيقية تبرز هذه الانحرافات؛ فتُعطل مسيرة التقدم، أو مسيرة الفهم والتعلم، وتتركنا مرضى نُفرّخ أمراضاً وأحزاناً وحسرات، وإن التستر على الانحرافات وإخفائها وتبريرها والتهوين من أمرها يعتبر خيانة ومكراً بالأمة المسلمة ! (1)

إن الحركة الإسلامية بكل اتجاهاتها سواء أكانت دعوية أو سياسية أو جهادية، كان يُفترض لها أن تقود الأمة، وتكون هي الرائدة لإقامة هذا الدين، واستخلاص الأمة من أسرها ! إلا أن هناك بعض الانحرافات التربوية والنفسية والفكرية والسلوكية الخطيرة، قد عطلت وأفسدت "العمل الإسلامي" وقَدّمت صورة سيئة، وانطباع مُهين، واستهلكت الكلمات والشعارات، وضيعت الفرص؛ وتركتنا صفراً من إنجاحها، وصفراً من التعلم من التجارب !.

الأمر الذي جعل البعض يتساءل: إن فلاناً من الناس كان بخير في دينه وخلقه، ولما دخل الحركة الإسلامية تحول إلى الأسوأ، فلماذا؟! أو كان بسوء في دينه وخلقه، فدخل الحركة الإسلامية فشَرعَن لسوء خلقه ولقلة دينه؟! ولماذا نجد بعض البسطاء من عموم المسلمين أفضل حالاً، وأسرع نجدة، وأكثر وعياً من غيرهم داخل الحركة الإسلامية؟! رغم أن دور الحركة الإسلامية أن تكون هي الرائدة والقائدة لجموع الأمة بلا انتظار أي جزاء مادي أو معنوي.. سوى رضى الله والدار الآخرة.

ولا يغيب عنا أن لبعض رجال الحركة الإسلامية يداً بيضاء، وتضحيات عظيمة، وإنجازات ضخمة – وإن كانت تأتي أحياناً في صورة فردية، واجتهاد شخصي، أكثر منه على مستوى الجماعات

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: الأمة.. ما هي؟

والتيارات المختلفة – ويجب ألا ننسى أن الحركة الإسلامية بالعموم جعلت الإسلام موضوع الساعة، وحرّكت المياه الراكدة، وجذبت الشباب إليها، وأثارت التساؤلات التي شحذت الهمم، وأطلقت الطاقات، وواجهت التيارات المعادية للإسلام، فكانت صحوة بعد غفوة.. وهذا الكتاب ليس حديثاً عن الإنجازات؛ وإنما كشفاً عن الانحرافات، بغرض علاجها، والحذر من الوقوع فيها مرة ثانية، واستكمال المسيرة على نور وبصيرة وحكمة.

* * *

لقد مرَّ على الحركة الإسلامية ما يقرب من المائة سنة، ولم تُقَدم الحركة الإسلامية بكافة أطيافها "كشف حساب" لنفسها ولأتباعها، وللأمة؛ ماذا أنجزت؟ وماذا حققت؟ وما هو حجم النتائج مقابل التضحيات؟ وما هي الرؤية المستقبلية لواقعها وأوطانها؟... إلخ من الأسئلة المنهجية والاستراتيجية التي نستطيع من خلالها فهم واقع الحركة الإسلامية..

وإذ تختم الحركة الإسلامية قرنها الأول بحالة خطيرة من الفشل – دون إنكار للإنجازات والتضحيات التي قام بها البعض – فإن الحديث عن "التجديد" و"المراجعات" و"التحولات" سيكون أمراً ذا بال وسجال في المستقبل.

وإن الحديث عن "النقد والتجديد والمراجعات" لا بد أن ننتبه فيه إلى أن أعداء الإسلام والحركة الإسلامية سيعملون على:

- رصد محاولات التجديد إذا جاءت كمبادرة ذاتية من المخلصين والغيورين على الحركة الإسلامية؛ لمحاولة احتواء هذا التجديد، والتخطيط لإفشاله، وإبطال إيجابياته.
- تقويض أي محاولة للإصلاح الفكري والمنهجي، والتعمية على الانحرافات الخطيرة داخل الحركة؛ لتستمر في الفشل.
- توجيه مسار التجديد والمراجعات نحو تقديم مزيد من "التنازلات" الفكرية والحركية لصالح الباطل، والنظم المستبدة الباغية.
- تطوير أسلحة الاختراق الفكري، بما يتلاءم مع التحولات الجديدة.

وأما ما يجب الانتباه إليه – في محاولات المراجعات والتجديد – إذا جاءت من داخل الحركة الإسلامية:

- المعالجة السطحية الغير منهجية، التي تفكر بعقلية الماضي، باحثة عن وسيلة لتبرير الحاضر، والاعتذار عنه.
- إلقاء اللوم على الأطياف والتيارات الأخرى.
- إخفاء الكثير من الحقائق، وإبراز القليل من الأخطاء كمحاولة مزيفة للتجديد أو الزعم بتصحيح الأخطاء.
- إظهار المنة والشجاعة النادرة في مجرد الاعتراف ببعض الأخطاء، مع تمجيد الذات من وراء وراء.
- اعتبار كل فصيل في الحركة أنه كل الحركة، والباقي مجرد عوائق في الطريق.
- التجديد والمراجعات لا يعني بالضرورة أنه يكون إلى الأفضل، بل قد يكون انقلاباً على المبادئ والغايات تحت ضغط الواقع.
- عدم الوصول إلى "الجينات الفاعلة" للميلاد الجديد للحركة الإسلامية.

وحتى لا يكون التجديد أو المراجعات محاولة لإنتاج انحرافات وأمراض الماضي لكن بحُلة جديدة، جاء هذا الكتاب ليشير إلى بعض هذه الانحرافات، والذي لا معنى لأي تجديد وإصلاح من دون علاجها، ولعل في بيان هذه الأمراض والانحرافات محاولة للكشف عن "العقبات" التي في طريق التمكين، أو تُجيب على سؤال: ما العمل؟ متى التمكين؟

وسنستعرض في السطور التالية – إن شاء الله – بعضاً من الأمراض التي أصابت الحركة الإسلامية بشكل عام، دون تخصيصها بفصيل أو تيار معين، حتى يكون هدف الكتاب عاماً، ليس الهدف منه النيل من أحد، إنما فقط تسليط الضوء على هذه الانحرافات التي تقف في طريقنا؛ وتمنع ريادتنا وانطلاقتنا الكبرى.. نحو حضارة إسلامية راشدة.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل

❊ ❊ ❊

انحرافات وأمراض الحركة الإسلامية



التعصب لشيخ أو جماعة[1] أو فكرة - الأيديولوجيا - مرض خطير، أخطر ما فيه أنه يسبب "البغي" على الآخرين، ومتى كان البغي وقع الافتراق والتحزب، ولا تفلح الجهود في اجتماع شمل الأمة إن وقع البغي، بل يُستخدم العلم لمزيد من البغي والتفرقة.. التي يُنشئها التعصب.

والتعصب ليس معناه ميل الإنسان إلى اختيار ما - كانتمائه لحزب مثلاً - فقد لا يكون منتمياً لحزب، ولكنه متعصب، ومنشأ التعصب: "الغلو" و"الهوى" و"الكِبْر"، والتعصب يعمي الإنسان ويصُمه عن رؤية وسماع الحقائق، فلا ينتفع بشيء، ولا يتعلم من عظة، بل إن المتعصب أكثر من يُسيء إلى ما يتعصب له ! ويكون أسوأ صورة للراية التي يحملها..

لأنه يظهر بصورة حادة مقيتة لا يراها إلا من هو خارج دائرة التعصب، بينما هو لا يرى في نفسه إلا صورة من الصحة والكمال، وكل الآخرين متآمرين عليه وعلى دعوته !

❋ ❋ ❋

والتعصب يُفسد عمل العقل في فهم الواقع حوله، ويُفشله في تقييم وتقويم الأخطاء، ومن ثم فهو ينتقل من خطأ إلى خطأ، وفي التعصب حالة من حالات "التقديس" للذات، ومنه ينشأ "الفكر التبريري"[2] الذي يُجهد العقل ليس في معالجة الأخطاء، والتحسين المستمر، وإنما يجهده في تبرير الخطأ، وشرعنة الجريمة، وإلقاء اللوم على الآخرين؛ ويستكبر عن الاعتراف بالخطأ أو الإقرار

---

(1) المقصود بالجماعة في هذا الكتاب هي: أي تجمع حركي أو دعوي أو سياسي أو جهادي، يمارس النشاط الإسلامي وليس جماعة بعينها.

(2) راجع - إن شئت - مقال: خطورة الفكر التبريري على بعث الإسلام من جديد.

بالهزيمة.. ومن ثم يتم تكرار نفس الأخطاء، دون الاستفادة من أي تجارب ! وقد جاء في الحديث الشريف: "**لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ**" وَرُوِيَ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْعَصَبِيَّةُ؟ قَالَ: "**أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ**"(1)

والتعصب يُفسد العلاقات الإنسانية بين الحركة الإسلامية بعضها البعض، وبين عموم المسلمين كذلك.

وفيه يغيب التسامح والتراحم، ويحضر "الخطاب الحزبي" لا "الخطاب الرسالي"، وفيه يُستخدم الدين لخدمة أغراض المتعصبين وحاجاتهم النفسية.

ويؤدي التعصب إلى تجزئة الحق، ليتوافق مع نفسية المتعصب.. ويكون الغرض من ذلك ليس هو "الحق" إنما هو أخذ ما تريده الذات منه، وما ترغب فيه.. وتترك باقي الحق، وربما تعاديه وتحاربه !

وتأتي النفوس المتعصبة الأخرى لتأخذ نصيبها من "الحق" الذي تشتهي وتريد، وتترك ما لا يعجبها، وتعاديه وتحاربه.

ومن هنا تنشأ "عداوة" بين قوم نالوا الحق من مصدر واحد ! سبب هذه العداوة ليس هو الحق.. إنما في النفوس المنحرفة التي أخذت وتركت وفقاً لأهوائها !

ومن هنا تنشأ "الأيديولوجيات" والأحزاب والجماعات.. ويُمثل "التعصب والتطابق النفسي" أهم رافد لها، وتحمل كل أيديولوجيا جزءاً من "حق" يُمثل كل منطقها وفكرها، ويتلقاه الأتباع على صورة "الحق المطلق" الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! ومن هنا تنشأ "الرؤية الأحادية".

ولا بد وأن تحدث حالات من "الإفلاس الفكري".. بسبب التعصب؛ نتيجة "التخلي عن الرسالة"، وعندما يحدث هذا الإفلاس يبدأ الظهور الخفي "للفكر الجبري الاتكالي".. الذي ينتظر الخوارق ومعجزات لتتنزل من السماء! لأنه يظن أنه قد أدّى كل ما عليه، وليس هناك من شيء يحتاج

(1) [شرح السنة للبغوي/ 3543، سنن أبي داود / 5121]

إلى توفية أو تصحيح أو علاج أو مراجعة أو تغيير ! فيُعوض حالة الإفلاس بـ "القدر الكوني" هروباً من "القدر الشرعي"، ويُحيل كل ما هو مطلوب منه، وما يجب أن يغيره بنفسه وبأمته إلى "نهاية الحياة، وظهور علامات الساعة الكبرى" وهي حيلة من حيل النفس، والدفاع عن الذات! والكِبْر عن: (تصحيح المسار، وحمل الرسالة كاملة، والاعتراف بالذنب، والتوقف عن تبرير الخطأ، والتوبة من التعصب، وعدم تقطيع الحق وفقاً لهوى النفس).

وللأسف الجماهير تعشق التعصب والغلو.. وتريد أن تشعر بالتفوق على غيرها لا أن تشعر بالتوافق ! ربما تريد قهر غيرها كأحد مظاهر أمراض الاستبداد[1]؛ فجماعة ما تغذي أتباعها بخطاب التعصب والغلو، والجماهير تطرب لذلك، فهم يريدون أن يشعروا بالأفضلية والسبق والتميز كأحد أعراض النقص أو الفراغ !

والتعصب يؤدي إلى الظلم لا محالة، وقد خاب من حمل ظلماً.. فمن يَظلم يفقد معية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن يتجنى على حقوق الآخرين – في سُكرة التعصب – سيغلو في بغيه وظلمه دون أن يشعر.

ولذا نلحظ في الجماعات المتعصبة الآتي:

- هذه التجمعات تجمعات أيديولوجية، أي جمعتها "فكرة" وحيدة، وحاربت باقي الأفكار.
- الانجذاب النفسي لهذه التجمعات يتم على أساس "التطابق النفسي".
- ولأن الفكرة الأيديولوجية في الحركة الإسلامية مصدرها الإسلام، ومعنى ظهور أفكار أخرى باسم الإسلام أيضاً.. فذلك يُبين جوانب النقص عند الآخرين، وبالتالي ينشأ العداء لا التكامل.
- قدرة العدو على توظيف الاختلافات، وإشعال جوانب العداء، وضرب الجميع ببعضهم البعض.

---

(1) أعكفُ على دراسة موسعة لأمراض الاستبداد، وأسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يُتمها على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأرحب بأي مقترحات أو توجيهات تخدم موضوع الدراسة.

- قدرة العدو على التحالف أو اختراق الجماعات.. وهدمها، أو استخدامها أداة هدم للجماعات الأخرى؛ مما جعل بعض الجماعات تتحالف مع الحكومات الباغية الطاغية، وتصعد على جماجم ودماء إخوانها، ثم يلفظها الطغاة في النهاية بعد استنفاذ غرضه منها.
- العجز عن تحقيق أي أدوار تكاملية بين الجماعات، والعجز عن إقامة بنيان يشد بعضه بعضاً، وتكوين جسد اجتماعي واحد.
- التفرق في الدين بغياً وظلماً.

وبقاء الحركة الإسلامية على هذه الاتجاهات النفسية التعصبية، والقعود دون معالجتها يُنذر بكارثة كبرى في مسيرتها الطويلة. لقد بدأت الحركة الإسلامية بفكرة عامة شاملة لإحياء الأمة، ثم حصل هذا التفرق، حتى وصلنا لما نحن فيه الآن! وإن الحالة الحالية تقتضي التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمراجعة الدقيقة والشاملة لأصل الفكرة التي قامت عليها الحركة الإسلامية، وتحليل كل حادثة بدقة بالغة، وإن هذا التحليل لا ينكر لذوي الفضل فضلهم في كل جماعة، ولا ينكر جهد أي إنسان ابتغى رضى الله ووجهه الكريم، ولا ينكر جهد الحركة الإسلامية في مجموعها في الحفاظ على مسمى "الإسلام" في الوقت الذي كانت فيه الحرب - ومازالت - تريد إلغاء وجود الإسلام تماماً، وتستبدله بالعلمانية المحضة.

فلا بد للحركة الإسلامية:

(1) من الخروج من الطور الأيديولوجي، إلى مرحلة الرسالة كاملة بلا تفرق في الدين.

(2) معالجة التشوهات النفسية والفكرية التي أنشأتها التربية الخاطئة الحزبية، وكذلك تأثيرات المجتمع وأمراض الاستبداد.

(3) اعتبار الاختلافات الطبيعة بين النفوس، وأنه لا إحياء للأمة إلا بالتكامل فيما بينها.

(4) توظيف الاختلافات الطبيعية لصالح الحركة الإسلامية، وليس استخدامها لتكون معاول هدم.

(5) تكوين لبنات نفسية سوية تصلح لتكوين البنيان المرصوص، والجسد الواحد.

(6) الدفع بالأفضل في كل مجال، دون اعتبار للذات أو الحزب.. بل للإسلام، ومصلحة عموم المسلمين.

(7) وضع آليات دقيقة تمنع إشعال الخلافات، وتمنع توظيف العدو للاختلافات لضرب الحركة الإسلامية ببعضها.

وإنه يجب علينا أن نرتفع إلى مستوى إدراك طبيعة الرسالة، وإلى الوعي بخطط العدو، وإننا أحوج ما نكون إلى الاجتماع في بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، ويُكمل بعضه بعضاً؛ حتى نستطيع المواجهة في معارك الأمة المصيرية القائمة والقادمة.

* * *

وإن مكمن الخطورة في مرض التعصب:

(1) عدم القدرة على حمل رسالة الإسلام، وبعثه من جديد.

(2) عدم القدرة على التوبة، والنقد، والتصحيح، والتغيير.

(3) الجمود الفكري، والحياتي، وتكلس الحياة على صورة واحدة.

(4) ثغرة خطيرة يدخل منها عدو الملة كلها، ويدمر أهل التعصب من كل مذهب ببعضهم البعض.

(5) إزكاء روح الحسد، والتباغض، والحقد.. الذي يحلق الدين.

(6) الرؤية الجزئية الأحادية، والعجز عن حل المشكلات والقضايا المصيرية.

(7) انسداد أي أفق لرؤية مستقبلية تسمح برسم "استراتيجية - ارتيادية" لمواجهة تحديات الرسالة.

(8) اعتماد منهج "الإدانة والحكم على الآخرين" وتطهير الذات وتقديسها.

(9) إزكاء الفكر التبريري، وشيوعه، وفتح المجال للفشل المستمر، والخسارة المتتابعة دون إدراك لجذور المشكلة.

(10) القضاء على التنوع الإنساني والحركي المطلوب والمناسب لحمل الرسالة.

(11) تشتيت الأمة، وتحزبها في جزر منعزلة عن بعضها، يُعادي كل منها الآخر.

(12) الاستهانة بدماء وكرامة عموم المسلمين عند نشوب الصراع.

(13) الغرور بالنفس، وبالعمل.. واهتزاز الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(14) العجز عن رؤية الأخطاء والكوارث.. فضلاً عن تصحيحها.

(15) ضمان تفوق "عدو الملة كلها" الذي يعرف خطورة هذه الثغرة، والذي يستمر في عملية النقد والمراجعة والتصحيح لأعماله من خلال مؤسسات متخصصة.

(16) اختلاف الناس في الحق، ويأسهم من الوحدة، والتلاقي، والتآلف.

(17) تقطيع أواصر المحبة، ووشائج العقيدة، وعرى الإيمان.

(18) ضياع التجارب هباءً فلا يتم التعلم ولا الاستفادة منها، وتمر تضحياتها بلا قيمة في حياتنا.

(19) هروب العقول المبدعة، والمُفكرة، وضياع طاقاتها تحت وطأة التعصب، ورؤية الحق بصورة جزئية.

(20) نشأة "العصبية الجاهلية - الأيديولوجيا - والعصبية الذاتية والفكرية"؛ وتصبح خطراً على الإسلام، وسيظهر الخطر عاجلاً أو أجلاً في السلوك والواقع.. سواء أكان في ميدان (الدعوة أو السياسة أوالجهاد) فالعصبية الجاهلية تطعن "الرسالة" في القلب.

(21) العجز عن القيام بالحق والعدل الرباني.. الذي هو الهدف الأسمى من الرسالة.

* * *

إن مريض التعصب يكاد يكون أعمى وأصم، فلا يرى غير ما يتعصب له، ولا يسمع إلا غير ما يغذي تعصبه.. فيطرب لمن يؤيده - وإن كان باطلاً - ويسخط على من يخالفه - وإن كان حقاً - فالحق والعدل والقسط بالنسبة له هو الانتصار لما يتعصب له سواء أكان فكرة أو حزب أو جماعة أو طائفة أو مذهب !.

وأخطر ما يواجه مريض التعصب هو التصاقه الذاتي بما يتعصب له، فيصبح ما يتعصب له جزءاً من كيانه يدافع عنه بصورة ذاتية تلقائية، تجعله يختزل الوجود كله فيما يراه هو أو يحبه أو يتصوره !

ولا شك أن مريض التعصب يُسيء إلى ما يؤمن به وإن كان حقاً – أو فيه شيئاً من الحق – ذلك أن شخصية المتعصب "الأحادية الحدية" لا تكون متآلفة إلا مع المرضى من نفس النوع.. بل وبنفس الدرجة من المرض، فهي تعتبر المتعصب الأقل تعصباً منها ليس بمومن الإيمان الحقيقي كما تؤمن هي !.

والإشكالية الكبرى لمريض التعصب هي العلاج، إذ العلاج من أعقد ما يكون.. فالعقل منغلق على ما يعتقده، والقلب لا يرى إلا ما يتعصب له، ولا تنفع الأدلة، ولا الحجج، ولا البراهين ولو ملئت كل الدنيا، ذلك أن كل حجة ودليل إما أن يرده العقل، وإما أن يُحور فهمه ويتخذه وسيلة للتأكيد على تعصبه، وإما أن يُكذِّبه، أو يرده بكل بساطة، وهذا من "البغي" الذي يُفرق أي أمة.

وأما الإشكالية الأخلاقية لمريض التعصب، هي عدم اعتبار آلام غيره أو مصائبهم، لأنه لا يراهم أصلاً، والتفسير الوحيد لما هم فيه من آلام وعذابات هو: أنهم لم ينتصروا لما يتعصب له، فهم خارج حساباته وشعوره وفكره، فمثلاً لو تحدثت في عشرين سطر عن مصائب أمة.. ثم قلت في سطر واحد نقداً لما يعتقده المتعصب، فإنه ينسى الموضوع الرئيس، وينسى المصائب والآلام – ولو جرت الدماء أنهاراً – ولا يغضب، ولا ينتفض إلا للسطر الذي فيه النقد لما يتعصب له، هذا الخلل العقلي والأخلاقي يجعل المتعصب هو أسوأ من يُسيء إلى ما يعتقده !.

وفي الرسالة الإسلامية: عندما يأتي مثل هذا المريض ليعتقد مبدأ من مبادئها، أو تفسير من تفسيراتها عند العلماء، فإنه بسلوكه وحركته وأخلاقه يُسيء إلى نفسه، وإلى ما تعصب له.. بل وإلى الرسالة كلها.

وتلعب التربية، والبيئة، والثقافة، والأذواق، والميول النفسية.. دورها في ولادة الإنسان المريض بالتعصب، الذي يتطلب علاجه مسارات عدة من الناحية الفكرية والسلوكية والنفسية، تجعل مَن يتعافى من مرض التعصب كأنه مولود جديد، وكأنه يتعرّف إلى الحياة من جديد، ويتقمص روح جديدة، ونؤكد على أن مجرد الحجج العقلية والبراهين ليست هي السبيل الوحيد لعلاج مريض

التعصب - فلا نغفل عن مسارات العلاج السلوكية والنفسية - فالحجج والبراهين قد تنجح عند من لديهم نصيب من "العقل الحر"، ولكن - في الغالب - يكون عقل المتعصب داخل "سجن التعصب" يتلذذ بهذا السجن، ولا يريد الخروج منه، فالخروج منه - في نظره - هو خروج من الدين ذاته !.

وما يؤكد ذلك أنه عندما يتعرض ما يعتقده المتعصب من أفكار إلى هزات عنيفة أو انهيارات وهزائم، فإنه يتحول "بمرضه" إلى فكرة أخرى، ليُعيد نفسه كَرة التعصب بنفس أعراضها وأمراضها وسلوكها.

* * *

وفي التصور الإسلامي: فالمسلم الذي يمكنه أن يحمل "رسالة الإسلام" هو **الإنسان الحر** "ليس بسجين الذات" **الكريم** "واسع القلب والصدر".. الذي لا يحمل أخلاق التعصب، بل أخلاق الرسالة التي يمكن اختصارها في "**الرحمة**" و"**القسط**" فهما قوام الرسالات الربانية - وخاصة رسالة الإسلام - والمسلم البريء من التعصب "يدور مع الكتاب حيث دار" ويقوم بالقسط، ويشهد لله - وحده لا شريك له - ولو على نفسه أو الأقربين، ويقوم لله - وحده لا شريك له من هوى أو تعصب أو مأرب - ويشهد بالقسط ولو لصالح من يكره، ذلك أن استقامة النفس - بلا أهواء - تجعل المسلم على صراط مستقيم، أمامه سيد واحد - لا شريك له - هو الله جَلَّجَلَالُهُ.

وعندما يكون التعصب سمة عامة في الحركة الإسلامية - فقد نصبت الحركة الإسلامية لنفسها العداء، وتربص كل فريق بالآخر الدوائر، واختل ميزان الحق والعدل في أيدي الناس - فتقع المحاباة وشهادة الزور على دين الله؛ فتفسد الدعوة والسياسة والجهاد.

والتعصب والهوى يذبح الحق والحقيقة والدين والأخلاق؛ ويأكل من القلوب الألفة، ويستنزف الرحمة، ويطرد العدل.. فلا يُبقي إلا الشقاق والقسوة والظلم.[1]

* * *

(1) راجع - إن شئت - بحث: خطورة الفكر المتعصب على بعث الإسلام من جديد.



الغُلـو

لكل حق طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، فلا إفراط ولا تفريط، والطريق المستقيم هو الضمانة الأصيلة للاجتماع، ووحدة الأمة، وقد أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نبيه ﷺ، بالاستقامة بلا طغيان (فلا غلو)، وعدم الركون إلى الظالمين (فلا تفريط) فقال تعالى: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ** ﴾[هود :112، 113]

ومن يلحظ تاريخ البشرية – وتاريخ الفكر الإنساني عموماً – سيجده جنوحاً بين الإفراط والتفريط، فإن كان هناك إفراطاً.. فعندما يدور الزمان دورته يكون التفريط كرد فعل على الإفراط، والعكس صحيح، ولحظات الرشد التي وُفقت إليها البشرية كانت هي لحظات "الاستقامة"، وقد جاء الإسلام بالصراط المستقيم كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[الأنعام : 153]

وقد وقع – للأسف الشديد – في الحركة الإسلامية حالات متنوعة من الغلو.. سواء الغلو في الإفراط، أو الغلو في التفريط، فمنهم – على سبيل المثال – من جعل رسالته هي تكفير الناس، والحكم عليهم بالردة، وجعل هذا الأمر قوام رسالته ودعوته وولائه وبرائه، بل ومنهم من جعل المتوقف في التكفير مثل الكفار ! وعلى الجانب الآخر من هؤلاء.. هناك من وقع في التفريط، فراح يُشرعن لأفعال الطغاة والطواغيت؛ ليجعلونهم أئمة المسلمين !

ولم يكن الغلو في الفكر والتصور فحسب، بل الغلو في السلوك والحركة كذلك.. فأصبحت مظاهر الشعور والفكر والحركة تحمل طابع الغلو، والغلو يجذب أصحاب نفس موجة الغلو، ليُصوروا لأنفسهم أنهم أهل الحق المطلق، وأنهم الأمة كلها، وأنهم وحدهم الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق !

ولنا أن نتخيل ما سيحدثه هذا التصور الكاذب من حالة "الكِبْر" ورد الحق، والاستعلاء على الناس، ولنا أن نتخيل حجم الدعاية السلبية والتشويه الذي سيحصل في كل حركة أو دعوة ينادون بها، حتى وإن كان فيها حق !.

والغلو يجعل أصحابه لا يشهدون بالحق، ولا يقومون بالقسط.. ولا يشهدون لله بل لما يتَعصبون له، ولا يقومون لله.. بل يقومون لمن يتعصبون له، ويجعلهم يحترفون الظلم والبغي باسم الدين، وباسم أن الآخر عدو للدين؛ وأدى ذلك – في تاريخ التراث الإسلامي – إلى خيانة للدين وللعلم، فوجدنا من يحذف بعض الأحاديث التي لا تتوافق مع ما (من) يتعصب له، أو يقطعها عن سياقها فيُفسد معناها أو يُعمي عن دلالاتها، أو يضع الحديث لينال من خصمه، ووجدنا من يزور التاريخ، ويحذف ما لا يعجبه، ويزور في طبعات الكتب !

ووجودنا صوراً عدة من الغلو في التكفير، والغلو في الحُكام، والغلو في الرجال، والغلو في الجماعات، والغلو في بعض العلوم على حساب غيرها... إلخ.

وهذا الغلو يُنشأ شخصية مشوهة، تُسيء لنفسها، ولما تحمله من خطاب، ومعالجة الغلو ليس بالغلو المضاد.. إنما بالاستقامة على صراط الله المستقيم، بلا جنوح عنه ذات اليمين أو ذات الشمال.

❋ ❋ ❋

ويؤدي الغلو إلى التطرف: وهو من أخطر المشكلات التي تواجه واقعنا الإسلامي، وهو حالة نفسية حادة، تريد أن تركن لرأي واحد فقط لا غير، ونسف لكل غيره، وتأخذ أشكالاً من التنطع والتكلّف المذموم في الدين.

والمتطرف أينما حل يُحدث أزمات، ويزيد من الاحتقان، والاختلاف، وتباغض القلوب، ويُحول خلاف الفروع إلى أصل الأصول، ويحول حالة الخلاف عموماً إلى حالة معاداة وحرب.

ولازم هذا التطرف هو تحميل الأقوال ما لا تحتمل، وجعل الفعل المحتمل يقيناً، وجعل اليقين محتملاً.. ثم إطلاق العنان لإتهام المخالف بالإرجاء والتكفير والخارجية والبدعية... إلخ.

وفيه يحصل أن يجد المتطرف حديثاً أو شاهداً له، فيجعل منه "أصلاً" لا يمكن خرقه، ومن يخرقه فقد خرج من الدين..

وغالباً ما تكون "حالة التطرف" هذه غائبة العقل، وغير قادرة على الرؤية.. ذلك أن التطرف يحجب رؤية الإنسان، ولعل من يعالج مثل هذه الحالات يجد أنه يضع عشرات الأدلة، ويحصر الخلاف، ويجيب على كل الأسئلة، ثم في النهاية المتطرف لا يبرح مكانه، ويعيد الكَرة كأنك لم تقل شيئاً، وكأنك لم تجب على تساؤلاته !

كما يغلب على هذه الحالة، تسفيه الجميع، وتصيد الأخطاء، والخروج عن "موضوع" السؤال، وإرباك المتابع، وتدني الأخلاق، وفي النهاية فساد القلوب، والتفرق في الدين، والحسد والبغضاء، وتمني الفشل والهزيمة، والوشاية عند الظالمين، ويصبح من يواجه المتطرف – وإن كان يرجو له الخير – هو عدو الدين، والعقبة في طريق المؤمنين، ويترك عدوه الأصلي.. ليحارب أخاه في الدين.

* * *

كما يؤدي الغلو إلى اعتقاد القدوة المطلقة في الرموز الإسلامية، وصاحب القدوة المطلقة والكمال الإنساني العظيم هو محمد ﷺ.. ولهذا اصطفاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لرسالته الأخيرة للبشرية، ففي سيرته صلى الله عليه وسلم نجد الشخصية الإنسانية الربانية المتكاملة التي يستطيع أن ينهل منها كل إنسان، والتي يجد فيها كل إنسان يبتغي الكمال هدفه ومراده..

غير ذلك من البشر فقدوته محدودة ونسبية بقدر ما مَنّ الله به عليه من فضل، فهناك من يكون قدوة في الفكر، أو قدوة في العمل، أو قدوة في الحركة، أو قدوة في الإدارة... إلخ، ولعل الحكمة من ذلك الاختلاف في الاستعدادات والطاقات أن يتكامل الوجود الإنساني في صورة اجتماعية كالبنيان المرصوص.

ولكن ما يحدث عند بعض أطياف الحركة الإسلامية – وغيرهم – أن يتحول بعض رموزها إلى "قدوة مطلقة" قد تتفوق – دون أن يشعرون – حتى على مقام النبوة !

هذه القدوة المطلقة تجعل من الرمز كأن الوحي ينزل عليه ! وتجعل من مجرد خاطرة كتبها، أو تصرف فعله في ظرف ما.. سُنة، ومنهاج حياة، وهذا لا شك انحراف فكري وتربوي خطير.

فإن الرموز أو رواد الحركة الإسلامية لا شك تميزوا بأشياء جعلت لهم مكانة عظيمة في القلوب، تدفع إلى احترامهم وتقديرهم والتعلم منهم، ولكن ذلك لا يعني منحهم القدوة المطلقة في كل شيء..

فقد يتميز رمز من الرموز بعبقرية الفكر، وغيره بإبداع الحركة، وغيره بصدق الزهد، وغيره بدقة التنظير، وغيره بقوة الشجاعة... إلخ، والصحيح هو الالتفات لكل رمز فيما أحسن فيه، وليس النظر إليه بصورة كلية جامعة تُقدس فيه حتى أتفه الأشياء وأبسطها، إضافة إلى أنه – في الغالب – يكون الرمز محكوم بظروف زمانه ومكانه، ولا يستطيع الإحاطة بكل شيء في زمانه، فضلاً عن الإحاطة بالمستقبل وما يعتريه من تحديات وقضايا وأدوات!.

وعلى الجانب الآخر: النظر إلى بعض الرموز على أنهم قدوة مطلقة.. يجعل من بعض أخطائهم أو مواقفهم هي الحاكم على كل ما قدّموه ! فبما أنه قدوة مطلقة، وقد أخطأ.. فهذا يعني هدم الشخصية بالكلية، وعدم النظر فيما قدّمه هذا الرمز من فكر أو عمل !.

كما يؤدي اعتقاد القدوة المطلقة إلى إهمال الخير القادم من غير الرموز، وإلى العقم الفكري، وإلى الجمود الحركي.. وقد يفتح الله على عبد من عباده بما لم يفتح به على غيره، ولكن لا يُستفاد منه، لأن الأتباع تبتغي صورة من القدوة المطلقة، ولا تقنع بأن تستفيد من كل إنسان فيما تميز فيه، أو أحسن عمله.

وإنَّ سلامة القلوب، وتفتح العقول، وابتغاء صراط الله المستقيم بصدق وإخلاص.. يمنع – بإذن الله – الوقوع في براثن الغلو والتطرف. (1)

* * *

(1) راجع – إن شئت – مقال: عَلم الهُدى ﷺ.



يُؤدي التعصب والغلو إلى مرض خطير يصيب الفكر الإنساني في مقتل وهو غياب "الإنصاف، والاتساق الفكري"، ويصبح العقل مجموعة من النتوءات، والتناقضات، والازدواجية.. فلا استواء في فكر، ولا عدل في حكم، ولا اتساق في قول.

وعندما يغيب الإنصاف فإننا نتحول إلى شهداء زور على الحق والحقيقة، وإذا كان الأمر يخص دين الله.. فإن المحاباة في دين الله ستكون هي السلوك الواقعي، وعند ذلك تُغتصب الحقيقة.

ومع غياب الإنصاف تضيع معالم الحقيقة، ونغرق في جدليات لا نهاية لها، ولو أنصف كل إنسان في نفسه، وفي فكره.. لارتاحت الأمة من أطنان من الكتب والكتابات، وعرفنا الحقيقة كما هي بدون إخفاء، ولا تعسف في التأويل، ولا تبرير للباطل.

وغياب الإنصاف يؤدي إلى النتوءات الفكرية، وإلى الهوى في الأحكام، وإلى إنكار الحقيقة، ويُبعدنا عن صياغة مشروع التغيير الفعّال والمناسب، لعدم استواء فكرنا من جانب، ولعدم معرفة الحقيقة كما هي من جانب آخر !

وغياب الإنصاف يؤدي كذلك إلى التناقضات الفكرية الحادة، فيستسيغ العقل الجمع بين المتناقضات، والأحكام المتناقضة على نفس الشيء ! فالاختلاف في الأحكام يحكمه الهوى أو القوة.

فتجد من يحكم على شيء بالباطل إذا أتى من طرف ضعيف أو من الخصوم، ثم يبارك نفس هذا الباطل إما لقوته.. وإما لنفعية، أو لهوى؛ الأمر الذي يؤدي إلى خروج نماذج فكرية وسلوكية مشوهة.

كما يؤدي كل ذلك إلى حصول فجوة كبيرة بين النظرية والتطبيق.. أو بين الهدف وكيفية الوصول إليه، وتتحول الأهداف إلى مجرد شعارات رنانة برّاقة لجذب الجماهير، ثم تكون أشكال التطبيق صورة معاكسة للأهداف ! فنقع في التيه والتناقض.

كما يؤدي غياب الإنصاف إلى الخيانة العلمية، وإلى الغلو في الإفراط، والغلو في التفريط، ويضعنا في معارك تستهلك منا الكثير، ثم تورثنا الغل والبغضاء والأحقاد.

إن هذا الدين لا يعرف الأهواء، ولا المحاباة.. إنما يعرف شيء واحد فقط هو قول الحق، والبحث عن الحقيقة بتجرد تام، وقولها للناس كما هي، وهذه أول معاني الأمانة، فإن فقدناها فلن نعد بعدُ أمناء على هذا الدين.

فالإنصاف والاستواء الفكري يجعلنا في حالة اتساق فكري، واستقامة في الموازين، واستواء في التصورات دون خداع أو كذب أو وهم، وقبل هذا وذاك "العدل الصارم" وقول الحق ولو على أنفسنا أو على من نحب مهما بلغت درجة حبهم، فالله جَلَّجَلَالُهُ أخذ علينا العهد في ذلك: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[الأنعام : 152] وإنما الشهادة لله.. والقيام بالقسط لا بالهوى، فهذه قضية أصيلة من قضايا هذا الدين.

وإن استقامة العقل المسلم يبدأ مع: الإنصاف الكامل، والاتساق الفكري، والدوران مع الحق حيث دار.. وأي خلل في ذلك، فإنه يُخرج نماذج مشوهة تُسيء إلى نفسها، وإلى ما تحمله من رسالة.

فعلينا الدوران مع الحق حيث دار، وعدم الدفاع عن الأشخاص في مقابل تشويه المنهج، وحمل الأمانة كما ينبغي أن تكون، والشهادة لله جَلَّجَلَالُهُ، والقيام بالقسط، فهذا الدين لا يعرف سوى "العدل الصارم" و"الأمانة الكاملة".

وإن كان الإنصاف عزيزاً وصعباً، فالتمكين أعز وأصعب.. فلا يأتي التمكين إلا بعد الإنصاف والعدل؛ فإن كنا لسنا أمناء على قول الحق والحقيقة، فكيف سنكون أمناء على "**الدعوة**" إلى هذا الدين، فضلاً عن أن نكون أمناء على "**الحكم**" بهذا الدين؟!

إن هذه الأمة لن تعود لها ريادتها.. إلا إذا عادت لها أمانتها أولاً.

* * *



تَربى جمع غفير من أبناء الحركة الإسلامية على منهج "الإدانة والحكم" ويا ليتهم تربوا عليه التربية الصحيحة ! هذا المنهج الذي يُولع بالرغبة في إدانة الآخرين.. ومن ثم إجراء الحكم عليهم. فهو يختزل العمل الإسلامي في إطلاق الأحكام، بحجة "صحة العقيدة والمنهج" والصدع بملة إبراهيم ! ويغيب عنهم منهج "التحليل والتشخيص والعلاج" الذي فيه إعمال العقل، وإجهاد الفكر في محاولة الفهم، والتصحيح، ومن ثم العلاج.

حالة الهوس بإدمان إدانة الأشخاص والحكم عليهم، تُسبب حالة من الفرقة والغل والبغضاء تجاه المسلمين بعضهم بعضاً، وفي حال صحة "الإدانة والحكم" فإن طريقة التعاطي نفسها مع منهج الإدانة، تُعمق الأزمة لا تحلها، وهي في الغالب أحكام "مُعلبة جاهزة": (فلان مبتدع، جماعة مبتدعة، طائفة مرتدة، فلان مرتد) هكذا بدون استيعاب أو فهم أو تفصيل، ويتلقاها الشباب ويظنون أن هذا هو الدين الحق، الذي لا بد فيه من إعلان الإدانة دون تلجلج أو خوف !

وإن ناقشت أحدهم في أبسط الأحكام التي يُطلقها تراه لا يدري شيئاً، سوى أنه يردد بصدق ما قيل له، وظن أن هذا هو الدين، فتأخذه الحمية في مزيد من إطلاق الأحكام؛ فيستسهل الأمر، ولا يَوجل قلبه من عاقبة ذلك ! فضلاً عن الانشغال بقضايا الآخرين عن قضايا الذات، والتلذذ بجلد الآخرين، بدلاً عن إصلاح الذات سواء أكانت فرداً أو جماعة.

* * *

كما تظهر مشكلة فقهية معقدة وهي "**فقدان التوصيف الواقعي**" لقد نشأ الفقه الإسلامي ومدارسه، استجابة لحركة "المجتمع الإسلامي" وتصريفاً لشؤونه، ومن ثم بدأت المدارس الفقهية في النشأة والعمل استجابة لواقع حي منظور أمامها، وأصبح خريجو هذه المدارس يعملون في

مناصب القضاء، ويعالجون الفتاوى القائمة في عصرهم، وبدأت نشأة المدارس الفقهية وتطورها مع بداية عصر "**الملك العضوض**"، العصر الذي انحصر فيه ظل الشريعة عن سياسة "الحكم والمال"، وتضخم فيه جانب فقه العبادات على فقه المعاملات، والسياسة، وتنظيم المال، وشؤون الأمة، وفي هذا العصر الممتد والتي توسعت فيه الفتوحات الإسلامية، تقلبت الأحوال فيه بين الاستبداد الشديد، والظلم، واستباحة دماء المسلمين! وكذلك أحوال من العدل، والصدق، والدفاع عن الإسلام وأهله.. لكن الخط العام لهذه المرحلة أن الحكام لم يُظهروا الكفر البواح، ولم ينبذوا شريعة الله في العموم الأمر الذي إن حصل يُسقط شرعية دولهم، ثم انتقلنا إلى مرحلة أشد وأخطر على الأمة وهي "**الملك الجبري والطواغيت**" وسقوط وحدة المسلمين السياسية، وانسلاخ هويتهم، وضياع ميزان "الشرعية" الحقيقي الذي يمنحه الإسلام للحاكم أو الدولة؛ وهو: (الاجتماع على الإسلام، والانتساب للشرع والتحاكم إليه، وعدم ظهور الكفر البواح أو "المعاصي البواح")..

وتوقف نمو الفقه الإسلامي، وأصبح تناول الفقه الآن، يفتقد – في أحيان كثيرة – التوصيف الواقعي لأحوالنا.. فهناك من يحاول فهم الفقه من خلال أننا في العصر المكي – عصر الاستضعاف – وهناك من يحاول أن يطبق الفقه من خلال أننا في الفترة المدنية – عصر التمكين – وهناك من يحاول إنزال حكم الفرد المُستضعَف على حكم الجماعة المُمكنة، وهناك من لا يتفق بعدُ على ماهية التمكين وشروطه، وهناك من يُنزل حكم الجماعة الممكنة على حكم الفرد المُستضعَف، وهناك من يبحث عن صورة تاريخية يريد أن يتلبس بها، ويعيش فيها؛ ويترك واقعه وعصره يمضي بعيداً عنه، وتنشأ من هنا فجوة نفسية وحضارية وتاريخية.. بين أناس تريد أن تعيش في التاريخ وتستدعي التاريخ بكل هيئته، وظروفه، وأحواله، وفتاويه.. وبين أناس تريد أن تعيش الحياة المعاصرة العلمانية دون مقاومتها أو الرغبة في تغييرها؛

فيتولد العجز عن "التوصيف الواقعي" الصحيح والدقيق لأحوالنا، لأنه يفقد أدوات الرؤية الواقعية.. التي تتطلب الآن إدراكاً للعلوم التاريخية، والسياسية، والاجتماعية، والنفسية، والإعلامية، والاستشراقية... إلخ، بل وأصبحت هذه العلوم ليست مجهولة فقط للفقيه.. بل بعيدة

عن "التأصيل الإسلامي" لها؛ نتيجة المفهوم الخاطئ المنتشر حول "العلم الشرعي" وقصره فقط على تناول كتب الفقه ومدارسه؛ فحدثت فجوة هائلة في "القدرة على توصيف الواقع" التوصيف الصحيح الذي يُبنى عليه حكم فقهي سليم ومتكامل، وحدثت فجوة في إلمام الفقه بمستجدات الواقع المعاصر، ولا أقصد جانب العبادات والحدود والمحرمات فهو جانب ثابت لا يتغير، إنما جانب المعاملات: من سياسة، وجهاد، ومال، وعودة للصورة الصحيحة التي يريدها الإسلام، والتخلص من القهر، والاستبداد، والظلم، والفساد، والعلمانية، والطغيان الذي تغرق فيه الأمة، ولا تجد من سبيل !.

وهنا نجد محاولة استدعاء الفقه منزوعاً عن سياقه التاريخي والواقعي الذي نشأ فيه، ونجد محاولات الانحراف والتميع والغلو.. التي تنشأ حتماً من خلال التناول الخاطئ للفقه؛ عندما يُنزع عن "ظروفه الواقعية" و"شروطه الحضارية" و"مجتمعه القائم"، وبالتالي من يبحث عن "دليل" ليوافق هوى في نفسه، أو حكم مسبق لديه.. سيجد وفرة كثيرة لن تُعجزه أن يجد مخرجاً لما يريد !.

ومن هنا تنشأ حالة من "الفوضى" في تناول الفقه الإسلامي، أو بمعنى أدق "الفقه السياسي الإسلامي"، الأمر الذي يجعل الأهواء تتداخل، وتفترق الأمة، وتتشكك في صحة مسلكها - إذا اختارت طريقاً - مما يجعلها لا تصمد أمام التحديات الكبرى.

ولهذا كان النظر في الأحكام الفقهية، واستدعائها من كتب الفقه - التي تعتبر مرجعية للعلماء - لابد وأن يراعي الظروف الواقعية والتاريخية التي كانت فيها، ونحاول بكل "موضوعية وتجرد" تحليل البيئة الواقعية لهذه الأحكام، ثم ننظر في "الأدلة" التي استند إليها الفقيه لإصدار هذا الحكم.. ثم العودة مرة ثانية إلى واقعنا، والنظر فيه - بعد إدراك العلوم المطلوبة لفهم هذا الواقع المعقد والمتشابك والمتغير - لمقارنة الظروف الواقعية والتاريخية، ومحاولة وجود أقرب صورة للمقاربة، وفي حال عدم وجود وجه للتشابه.. يعمد الفقهاء المعاصرون إلى تجشم عناء "البحث والاجتهاد" للوصول إلى الصورة التي تُخرج هذه الأمة من نفقها المظلم، وتعود بها إلى "خير أمة أخرجت للناس" تحمل رسالة الله إلى العالمين.. وتجاهد في سبيله جَلَّجَلَالُهُ لا تخاف لومة لائم.

أما محاولة "التترس" بأقوال فقيه هنا أو هناك، لـ "تبرير" اختيار واقعي مسبق، دونما اعتبار لظروفه التاريخية، ودون التدقيق فيها، وتمحيص أدلتها، ودونما اعتبار للظروف الواقعية، ودون إدراك لكافة أبعادها، فهذا لا شك مما يُحدث أزمات وكوراث فكرية وحركية ودعوية.. تؤخرنا عن قيام حضارة هذا الدين من جديد.(1)

* * *

والفرق بين المنهجين:

منهج "الإدانة والحكم": يبحث في إدانة الشخص كأنه واقف أمام محكمة، وقاضٍ.. ويبحث في الأدلة، ومناطاتها، وملابستها، وعوارضها...إلخ.

منهج "التحليل والتشخيص والعلاج": منهج يبحث عن المشكلة وأسبابها، ولا يخجل من إعلانها.. ويبحث عن العلاج، ويستخدم أدوات الفكر والتصور الإسلامي.. ويقدم الرسالة على المذهب، ويقدم آليات إحياء الأمة، وإعداد الأمة للجهاد والمقاومة.

وإن مَن يريد أن يمضي في منهج الإدانة والحكم، فليستعد لرحلة طويلة، لأنه سيكون قاضياً، وليس ككل القضاة.. بل قاضياً على جماعات وأفكار، لم يعرف عنهم – في الغالب – سوى ادعاءات الخصوم ومزاعم الفريق المخالف، وإن أردت الحكم فعليك الاستماع للطرف المُدعى عليه، وتسمع منه، ومن كتبه، ومن أفكاره، وتبحث في كل إدعاء على حدا؛ حتى يستبين لك الأمر فتحكم فيه بالعدل لا الظلم، وبالحق لا الهوى، وستجد الأمور تختلف كثيراً عما ظننته أول مرة، فعندما تستمع لمن كنت تظنهم مبتدعة أو مرتدين أو غير ذلك.. ستجد نظرتك تتوسع وترجيحاتك تختلف، وقد تظل تبحث طويلاً، ثم في النهاية لا تستطيع أن تُجري حكماً واحداً، لوقوع شك في قلبك يجعلك لا تقطع يقيناً بإدانتهم.

(1) راجع – إن شئت – مقال: مشكلات في تناول الفقه الإسلامي.

وفي أثناء ذلك ستكتشف كذلك ما في منهجك - وما كنت تظنه حقاً مطلقاً - "الأخطاء"، وستجد نفس الأمراض التي عند الآخرين لديك ! وإذا وفقك الله ستأخذ الحق من كل فريق، وتدع الباطل عند كل فريق.

وإذا أردت أن تترك دور القاضي، وأردت المنهج الآخر "التحليل والتشخيص والعلاج" فقد سهلّت على نفسك الطريق، وخرجت من حالة إطلاق الأحكام بالجملة على الآخرين - وتَحسب القداسة في نفسك - إلى التعامل مع كل فكرة على حدا، وكل إنسان حسب حاله، وتبحث في العلاج لوقاية نفسك، وإنقاذ غيرك.. وتقدم هذا العلاج بكل الحرص والحب والمودة التي تجعل الآخرين يؤمنون بإيمانك قبل أن يعرفوه.

❊ ❊ ❊



لا يخفى على أحد حال الأمة من جهالة، وغفلة، وتقصير، وتضيع لأمور الدين، وهذه الحالة ليست دائمة، فقد تكون في حالة غاية في الجاهلية، ثم في أحوال أخرى غاية في التدين والعودة إلى الدين.. ولكن بالعموم نجد صور من الجهالة منتشرة بين أبناء الأمة، نتيجة محاولة أعداء الأمة سلخها عن دينها.

ولكن عندما ينتقل أحد من أبناء هذه الأمة إلى الحركة الإسلامية ليمارس دوراً ما لخدمة دينه وأمته.. ويتعلم القليل اليسير، تجده يشعر بالوصاية والاستعلاء على الناس، وينظر إليهم من أعلى – سواء بشخصه أو جماعته – وهذه الحالة من الكِبْر تُنفر الناس عن أي دعوة، وتجعلهم يزهدون في الاستجابة لهذا الداعي، وإن استجابوا للمُتكبر فإذاً هم في حالة من الاستعباد والخواء !.

وقد يتطور الأمر إلى الحكم على بواطن الناس، بل والخوض في مصيرهم الأخروي، وهذا لا شك طامة كبرى، تقتل "الوجل" في القلب، وتهبط بالسلوك والفكر إلى أسفل سافلين.

وقد يخلط البعض بين "استعلاء الإسلام وشريعته ومنهجه" وبين "استعلائه الذاتي" فالإسلام يَعلو ولا يُعلى عليه، ويجب – لا سيما أثناء المواجهة مع العلمانية – الاستعلاء بهذا الدين وبمنهجه وتصوراته، ولا نشعر أبداً بالهزيمة النفسية أمام زيف الحضارة العلمانية، وأن نشعر بقيمة وعظمة وأهمية هذا الدين، ودوره المنتظر في إنقاذ البشرية، ولكن قد يتحول هذا الاستعلاء بالدين، إلى استعلاء وانتفاخ الذات وإحلال الذات محل الدين ! والصحيح أن يحصل إنكار للذات والمصلحة الشخصية والحزبية أمام هذا الدين، فما النفس المسلمة إلا وقودٌ يَفنى من أجل هذا الدين ونصرته والدعوة إليه.

ويؤدي هذا الاستعلاء المريض إلى تعميق الفجوة بين الحركة الإسلامية والأمة وعموم أفرادها، فشعور التميز على الناس يخلق بيئة من التباغض والتشاحن والبأس بين بعضنا البعض.

كما يؤدي ذلك أيضاً إلى صياغة خطاب جماهيري فاشل، واستخدام لغة صعبة على الناس، أو لغة متطرفة حادة ينفر منها الناس أو تُمثل لهم صدمة مُوحشة؛ والاهتمام بقضايا غريبة على وعي الناس، أو خارجة عن دائرة اهتمامهم، والقفز فوق مسلّمات الجماهير بلا تمهيد، ولا توضيح، ولا روية.. فيكون الخطاب لهم فتنة !

فالخطاب الجماهري الشعبي يجب أن يحتوي إدراك الناس ووعيهم – بعد دراستهم الدراسة الجيدة – ويجب أن ينقلهم إلى الحق في أناة وهدوء وتدرج وتوازن، وفي ذات الوقت يخاطب معاش الناس وهمومهم اليومية والمستقبلية، ويراعي حاجاتهم الإنسانية لـ "الطعام والأمن" ولا يطلب من الجماهير أكثر مما تستطيع.. ولا يغتر كذلك باستجابة الجماهير السريعة، فالجماهير تستجيب عاطفياً في لحظات الانفعال فقط، فإذا ذهبت العاطفة وخبا أوارها.. رجعت الناس إلى ما كانت عليه ! وشعرت باليأس من الإصلاح والتغيير، هذا بالإضافة إلى وجود قوى إعلامية مضادة تخوض حرباً شرسة لاغتيال وعي الجماهير، واستلاب عقولها..

لذا فالمسلم يراعي كل هذه التوجهات في خطابه، وفي تعاملاته، ويُعد لهذه التحديات الإعداد المناسب بالوسائل المكافئة.. ويَرفق بالناس، وأحوالهم، وبتساؤلاتهم، ولا يتميز عن الناس بشيء في الشكل ولغة الكلام واللباس.. فكل رسول من عند الله كان ابن البيئة التي بُعث فيها، وكان يتكلم بلسان القوم، ولا يتكلّف في شيء.. والمسلم العامل لدينه يجب أن يكون قريباً من الناس فلا يتميز عنهم بلباس، ولا يتنطع بلغة، ولا يعزل نفسه عن محيط بيئته.

* * *

إن المؤمن الحق هو: الهَين اللين القريب السهل المتبسم الصدوق الحاني على الناس، المستوعب لغفلتهم وجهالتهم، وضعفهم، ويدرك تصوراتهم ويراعي أحوالهم، فلا يضيق بهم ذرعاً.. فضلاً عن أن يتطاول عليهم بعلم أو هدى أو دين. ولا يحكم عليهم بمجرد قول أو فعل ما، بل يُحسن

الظن بكل الناس في غير غفلة أو جهل بطرق المجرمين، ويتقبل الناس بسعة صدر وترحاب وسماحة وحسن خُلق، فذاك الذي يجعل الناس يستمعون إلى دعوتك، ويحترمون حركتك.

❊ ❊ ❊

كما أن الاستعلاء على الناس يُولد حالة من "العجب، والشعور بالعظمة" تجعل بعضاً من مفكري الحركة الإسلامية يستنكف عن السماع لغيره، أو الاهتمام بعلم غيره ! وتجده دائم السبق بالإفتاء في كل شيء، ويقطع الحديث على الشباب الذي يريد التعبير عن رأيه أو يتساءل أسئلة قد تحرج البعض، ويضيق صدره بغيره من المفكرين؛ ويعمل على تسفيه رأيهم، بل ويتصور في نفسه قوة لا يملكها، وتأثيراً لا أثر له !.

فالمؤمن لا ينتفخ بعلمه، ولا يتخذ من دين الله وسيلة لإرضاء شهوة الرياسة على الناس، بل العالِم الحق هو الذي يزداد تواضعاً وتسامحاً وتراحماً كلما ازداد علماً.

وإن المؤمن الحق هو الذي يبارك الجهود الآتية من غير جماعته، ويسعى - بكل صدق وحب وإخلاص - إلى تكامل الجهود مهما اختلفت المشارب والاتجاهات، ذلك أن مجال عملهم في فضاء واحد هو: "**الأمة**"، والغاية واحدة هي "**إقامة الدين**" و"**إحياء الأمة**" فمن تجلى في قلبه هذه المعاني لن يستعلى على الناس، ولا على إخوانه من الاتجاهات الأخرى، وسيبارك كل جهد، وسيهش لكل سعي ولو بسيط.[1]

❊ ❊ ❊

(1) راجع - إن شئت - مقال: فرق السرعات، علم الدعوة.



التربية الفكرية من أهم وأصعب المراحل في تكوين الشخصية الإسلامية الراشدة الفاعلة.. ولكن للأسف الشديد أفسدت النظم التعليمية كثيراً من عقل المسلم، فتجد إعمال الفكر من أصعب الأشياء عليه، ليس لقلة عقله، وإنما لاستهلاك وإفساد طرق التفكير لديه !.

فيكون البديل هو الانشغال بـ "الأشخاص" على حساب المنهج والفكرة.. ويؤدي التعلق بالأشخاص إلى تشويه المنهج، والتعصب للذات وللأشخاص من مشايخ أو قيادات، وتصبح القضية هي قضية أشخاص، فتتقلص قضية العمل لهذا الدين إلى قضية شخص سواء أكانت هذه الحالة قضية "تقديس" أو "تدنيس".. لأنه في كلا الحالتين ضاعت الفكرة التي يجب اعتقادها أو يجب الحذر منها، ودخلنا في معارك جانبية حول قضية الحكم على الشخص، هل بريء أم مُدان؟! وتُستهلك الأوقات والأعمار في مثل ذلك، وتَفسد القلوب وتُورّث الغل والحسد والبغضاء جراء ذلك.

بل بلغ الأمر بالبعض إلى أن جعل قضية الحكم على الأشخاص قضية ولاء وبراء ! وقضية إيمان وكفر، فمن أي معسكر أنت حتى نعرفك؟! بل ودخلت أبسط وأتفه القضايا تحت مسمى "العقيدة، وصحة المنهج" ! وهذا مرتبط – كما سبق الذكر – بهوس الإدانة والحكم من جانب، والاستعلاء على الناس من جانب آخر.

في حين أن تمحيص المنهج أو تحديد الأهداف الكبرى، والاتفاق عليها هو الأوفق، والأبعد عن الفرقة والخلاف، والأقرب إلى العمل الجاد المثمر، ولا يكاد أحد يسلم من التعصب للأشخاص، ويلتصق بهم ذاتياً، حتى يُقدسهم ويُقدس نفسه معهم، أو يلعنهم ويلعن كل من أيدهم.

ذلك أن أمر الانشغال بالأشخاص إن كان "إيجابياً" أعمى عن رؤية الانحرافات والأخطاء. وإن كان الانشغال بالأشخاص "سلبياً" أعمى عن رؤية الحق والخير الذي لديهم؛ وهذه الحالة تُفسد محاولة الأمة من الاستفادة من الأفكار الراشدة، وتُفسد كذلك محاولة الأمة من تجنب الأفكار الضالة والأخطاء.. وتقعد بالاهتمام عن معالي الأمور إلى الهبوط إلى سفاسفها.

❊ ❊ ❊

ونلحظ في سلسلة الانحرافات أنها لا تأتي فرادى منعزلة، بل تأتي متصلة يُسلّم بعضها بعضاً.. ويؤدي بعضها إلى بعض، وإذا أردنا العلاج فعلينا تفكيكها، وقطع كل حلقاتها.. فمن الهوس بالإدانة والحكم، إلى الاستعلاء على الناس، إلى التعلق بالأشخاص.. سيأتي تابعاً لكل ذلك مسألة "التقديس" و"التدنيس" وهي إطلاق الحكم في صورة "أحادية" لا تقبل إلا لونين، ولا يمكنها التعدد، أو تقليب وجوه الأمر فيها..

فإما أن تكون طاهراً مقدساً أو مُدنساً حقيراً.. لا يمكن التعامل بصورة حالية مع وضع أو موقف أو فكرة ما.. إما أن تقبله كله أو تترك كله، هذه الصورة الحادة والمتطرفة تخلق حالات من الفرقة والتفرق، وتُوغل الصدور عن الألفة والاجتماع؛ وتأسس الفكر على حالة شديدة من "الغلو"..

فأنا وشيخي وجماعتي أبرار أطهار، ومن يمس جماعتي بسوء فهو الدنس الحقير الفقير من كل فضيلة، والآخر يقول مثل ذلك ! هذا الانقسام الواقعي سبقه انقسام نفسي وفكري في تصور هذا الدين، واختزاله في أشخاص وجماعات، وتصور كل جماعة أنها المتحدث الرسمي باسم الإسلام، والوكيل الحصري للعمل له، ومن ثم فأي اعتداء على الجماعة هو اعتداء على الدين ذاته ! وأي نيل من قيادات الجماعة هو طعن في الإسلام ذاته !

صحيح إن أعداء الدين يحاولون لمز الإسلام والطعن فيه من خلال التعرض لبعض الشخصيات والكتب الإسلامية للتشكيك في الدين، ولكن ماذا سنقول في أمر مسلم غيور على دينه ينصح لله ورسوله ﷺ فلا يجد إلا السباب واللعن لأنه تجرأ على النصح ! أو إنكار المنكر لدى جماعة ما ؟!

ويؤدي التعلق بالأشخاص إلى مسألة خطيرة وهي "التعلق بالكاريزما" أي: الانبهار بالشخصية لأشياء خارجة عن طبيعة الفكرة التي يحملها، ويؤدي ذلك في حال غياب هذه الشخصية أو وفاتها

إلى حالة "فراغ قيادي" فكثيراً ما يكون لجماعة ما حضور ونشاط كبير، ثم إذا مات القائد أو غاب انتهى كل شيء ! حيث يتم ربط المشروع العام للحركة الإسلامية بشخص القائد ! وهذا خلل تربوي جسيم فالمفترض في الأتباع أن كل منهم جاهز للقيادة، وإن المنهج التربوي للحركة الإسلامية يُفترض فيه تربية قيادات لا أتباع.. "قيادات تعمل كالجنود، وتفكر كالقادة الكبار"، ويُفترض فيه أن لا يعتمد على مجرد المظاهر والكاريزما بقدر ما يعتمد على الحق والحقيقة والكفاءة، وبذلك نضمن استمرارية العمل دون وقوع فجوات، أو انحراف عن الطريق، أو توقف عن الحياة.

والتعلق بالرسالة الإسلامية هو الذي يوفر الحيوية اللازمة، والحركة المستمرة للإنسان المسلم.. بعكس التعلق بالأشخاص أو الأيديولوجيات..

والفرق بين الرسالة والأيديولوجيا:

الرسالة: هي وحدة كلية شاملة يخرج عنها أمة؛ تقوم هذه الأمة على شريعة ربانية ومنهج حياة منبثق عنها.

الأيديولوجيا: صناعة جزئية لتصور محدود.

الرسالة: تربطها العروة الإيمانية الوثقى.

الأيديولوجيا: تربطها الميول النفسية للنفوس المتشابهة.

الرسالة: تخرج عنها أمة تَسع كل أفرادها.

الأيديولوجيا: يخرج عنها تنظيم أو كيان أو جماعة.

الرسالة: تقوم على منهجية نقية صافية واضحة لإقامة الدين والشرع، وترعى مصلحة الأمة جمعاء.

الأيديولوجيا: تقوم على مصلحة التنظيم أو الجماعة، وتتحول فيها مصلحة الأمة إلى مصلحة التنظيم.

الرسالة: ترى الأمة كلها، وتعمل للأمة كلها، وتنهض بالأمة كلها.

الأيديولوجيا: ترى التنظيم، وقياداته وأفراده، وتعمل لهم باعتبارهم صورة مختزلة للأمة !.

الرسالة: تتسم بالربانية والثبات والشمول والتوازن والإيجابية والمثالية والواقعية والتوحيد.

الأيديولوجيا: تتسم بالتعصب والحزبية وضيق الأفق، ومحدودية الرؤية والنظر، ودوماً ما تكون غير متوازنة.

وأخيراً: الرسالة تُخرج أمة، والأيديولوجيا تُخرج تنظيم.

فلابد إذاً من التمسك بـ "**الرسالة**" والدوران مع كتابها حيث دار، لا التعلق بـ "**الأشخاص**" والدوران معهم حيث داروا.

❊ ❊ ❊



تُربي قطاعات كبيرة من الحركة الإسلامية أبنائها على الطاعة العمياء، ويختزلون مفهوم التربية في أنها "طاعة في غير معصية"، ويتم اختزال المعصية في المعاصي الظاهرة، دون المعاصي الخفية مثل: (تقديس القيادة، والتبرير لكل خطأ، وعدم المنهجية الصحيحة في التفكير والحركة، وعدم وضوح خطط العمل... إلخ)، فهذه لا تعتبر في نظرهم معاصي، ومن ثم عليهم الطاعة فيها !.

ومن هذه الطاعة العمياء تنشأ ظاهرة الأتباع التي تُساق من غير وعي، ولا فهم.. على اعتبار أن القيادة الأعلى تعلم كل شيء، وتحسب حساب كل شيء !.

فيجب – حسب نظرية التربية المنحرفة – أن يكون الأتباع بين يدي القيادة "كالميت بين يدي المغسل" ! وكلما كان هناك إمعان في الطاعة، كلما كان الأخ في الجماعة أفضل حظاً في تولي القيادة فيما بعد، وإذا ظهر من البعض اعتراض على شيء، أو الرغبة في تغيير شيء.. فمصيره الطرد تحت شعار "من اعترض.. انطرد" !

والطاعة أهم صفات الجندية.. والجندي وقت احتدام المعركة لا يصح له – إذا حمي الوطيس – أن يخرج ليعترض في مثل هذا الظرف، فالأولى به الطاعة حتى ولو خالف الأمر هواه، أو كان فيه شبهة خطأ.

وأما الطاعة المبصرة، والطاعة النقدية فهي الأولى بنا خارج أوقات المعركة، حيث يتم التصحيح والتقويم المستمر، وإعادة النظر في كل خطوة وقضية، فإنما الطاعة في المعروف، حتى لا يتم عسكرة الإنسان ويفقد وجوده وشخصيته، وحتى لا تتحول الأتباع إلى مجرد عناصر سلبية تتلقى فقط الأوامر من أعلى دون أن تدرك شيئاً، لأنها قد تجد نفسها فجأة في سدة القيادة غير مؤهلة ولا مدربة، وتستغرق وقتاً طويلاً حتى تفهم، وعندما تفهم يكون قد انتهى كل شيء.

وتؤدي الطاعة العمياء بمرور الوقت إلى الاهتمام بالأمور الشكلية بعيداً عن الكيف والإنجاز الحقيقي، وتؤدي إلى العقم عن التجديد.

وأخطر ما تؤديه الطاعة العمياء هو اضطراب أو غياب نظرية العمل لدى جماعة ما، وانعدام نظرية التغيير أو اختزالها لدى الأتباع في "السمع والطاعة"..

فالأتباع لا تدري بالضبط ما هو مجال عملهم هل هو دعوة أم سياسة أم جهاد أم غير ذلك؟ هل ترغب في الوصول إلى السلطة، أم لا ترغب؟ ما هو نطاق عملها؟ وفي كل أمر تُخاطب بخطاب يشحذ همتها نحو تنفيذ الأمر، دون فهم الترابط أو العلاقة بين الأمور المختلفة، والمتناقضة.. وبين الهدف، وخطة العمل، والتحول والانتقال السريع بين مجال عمل وغيره.. دون إعداد أو تربية أو فهم الغاية !.

فيؤدي ذلك إلى الاغترار بالأعداد والجماهير و"التفاؤل المفرط" بهم، فالقيادة تُعول عليهم، وهم يُعولون على القيادة، فلا القيادة أعدتهم الإعداد الصحيح، ولا الجماهير والأتباع تحسب أنه يجب عليها شيئاً أكثر من الطاعة العمياء للقيادة.. مما يجعل انفراط عقد الأتباع عند المواجهة الحتمية أمراً مؤكداً !

* * *

وإن بناء الأمة من الداخل – بعد عملية تجريفها – لا يحتاج إلى عميان بل بحاجة إلى رجال تربوا ليكونوا قادة وفرساناً؛ تبني هوية الأمة من جديد، وتعد القوة اللازمة لعودة ريادة الأمة، وتعود إلى نور الوحي الصافي لتنهل منه؛ وتستبصر به في دروبها.

ولا بد من أجل ذلك إصلاح العلاقة بين القادة والأتباع في صورة متبادلة من التقويم المستمر، والنقد الدائم لتصحيح كل خطأ، وتحسين كل صواب، وإبصار كل حقيقة بلا خوف أو خجل أو إنكار؛ ويكون هذا النقد على أساس من "التقييم والتقويم والمحاسبة"، وعملاً مؤسسياً يتم بصورة دورية، لمراجعة الأهداف وبرامج تنفيذها، وخطط عملها، ومدى فاعليتها، ومدى الإنجاز، وكيفية تحقيق أفضل النتائج بأقل التكاليف، ومدى امتلاك الأدوات التنفيذية، والتوزيع الزمني للأهداف

والغايات، والحساب الدقيق للزمن، والقدرات والأدوات، والمخاطر، والنتائج والمآلات، ومستوى التقصير، وتنويع السياسات، وتجديد الفكر.

وإن وضوح نظرية التغيير، وبيانها للأتباع بدقة، وشفافية، وحرية نظر ونقد.. تساهم في تحقيق هدفها بصورة متكاملة، ومن ثم لا تكون مجرد تابع يسمع ويطيع، وينفذ الشيء وعكسه، ويقتنع بالشيء وعكسه !.

* * *



تُربي كل طائفة من الحركة الإسلامية أتباعها بصورة حزبية ضيقة، فهي تعمل على تكوين "شخصية حزبية" يكون ولاءها للحزب وأيديولوجيته؛ لا "شخصية رسالية" يكون ولاءها للإسلام ورسالته.. وانتماؤها للأمة كلها، لا لمجرد طائفة فيها.

والفرق بين معالم "الشخصية الحزبية" و"الشخصية الرسالية" كبير:

فالشخصية الرسالية: تتسع نفسها لرؤية الرسالة من كل أبعادها، ويستوعب عقلها المعرفة والإدراك لفهم طبيعتها الكلية.

والشخصية الحزبية: تضيق نفسها على فكرة "محددة" تكون هي محور التحزب، وينحصر إدراكها نحو "الأيديولوجيا الحزبية".

الرسالية: ترى واقع الأمة كما هو، وفي صورة يمكن تغييرها، فلا هي تتماهى معه، ولا تصطدم به.. بل تخترقه لتحوله نحو أهداف الرسالة.

الحزبية: ترى واقع الأمة كتلة صلبة مسمطة، إما التماهي معها فتفقد القيمة التي خرجت من أجلها وهي تغييره، وإما تقرر الصدام المتعجل معه، فلا تستطيع الصمود أمامه.. وتظل تجعل من "الأيديولوجيا" محور حركة.

الرسالية: لا تحصر نفسها في أدوات محددة لا تخرج عنها، فترى السياسة كما ترى الجهاد كما ترى الدعوة كما ترى إحياء المجتمع وتغييره نحو أهداف الرسالة.. ترى كل أولئك بصورة طبيعية، ولا تمنع نفسها أي أدوات يمكنها تحقيق أهداف الرسالة.

الحزبية: تحصر نفسها في أدوات محددة لا تخرج عنها، وتعادي باقي الأدوات، ولا تبتغي تحصيلها، وتنظر لبقية الأدوات بعين الريبة والاتهام.

الرسالية: تفهم مدلول إعداد القوة بكل أنواعها؛ لتحقق أهداف الرسالة.. وإحياء الأمة لتفعيل الرسالة وحملها.

الحزبية: لا تفهم هذا المدلول، وتكتفي بما يحقق أهداف الحزب، ويخدم الأيديولوجيا.

الرسالية: تدرك طبيعة التصور الإسلامي من حيث: (الربانية والتوحيد والثبات والشمول والتوازن والواقعية والمثالية والإيجابية)، ومقوماته من حيث: (التصور عن الله جَلَّجَلَالُهُ والكون والحياة والإنسان).

الحزبية: تدرك طبيعة التصور الإسلامي من خلال الأيديولوجيا الحزبية، وتنحصر حولها، وتعجز عن فهم طبيعة وأهداف وخصوصية الرسالة.

الرسالية: تتسع لرؤية الواقع، والاطلاع على كافة الأفكار، وتقبل النقد، والمرونة الفكرية، والحركية، ولا تجد مشكلة في الانفتاح على كل الآخرين، ولا تشعر بالضيق من الأفكار المختلفة، بل تحاول توظيفها في وحدة كلية تخدم أهداف الرسالة.

الحزبية: لا تتقبل النقد، لا سيما من خارج نطاق الحزب، وتتسم بالجمود الفكري على أيديولوجيا الحزب، وتتصلب حركتها حول حدود الحزب، وتجد مشكلة في الانفتاح على الآخرين، وتشعر بالضيق من الأفكار المختلفة.

الرسالية: تسعى إلى إيصال "الرسالة" إلى موقع الحكم، وتحصيل كل أنواع القوة لها، وأن يكون لها السيادة العليا.. دون أن يكون للأشخاص أدنى حظ ونصيب من جاه أو سلطان أو شهرة أو أي جزاء مادي أو معنوي في الدنيا.

الحزبية: يسعى إلى إيصال "أيديولوجيا" الحزب وشخصيات الحزب وفكر الحزب إلى موقع الحكم، ويبحث عن حظه ونصيبه من الحكم والسلطة.

الرسالية: تعتبر "الحق المطلق" وحده هو القرآن الكريم، وما ثبت من صحيح السنة النبوية سنداً ومتناً، وغير ذلك من أطروحات قابل للنقد، والنقاش، والتطوير، والتعديل، والتحسين المستمر الذي لا يتوقف عند حدود شخص أو جيل.

الحزبية: تعتبر "الحق المطلق" هو أفكار الحزب، قد لا تُعبر عن ذلك بصريح المقال، لكن تُعبر عنه بحقيقة الأفعال، وتنظر بدونية إلى ما ومن هو خارجها.

الرسالية: تدور مع الكتاب حيث دار، ولا تُقدس أشخاصاً، ولا أقوالاً.. ولديها القدرة على التغيير، والتحسين المستمر، ولا تتجمد عند مرحلة معينة.

الحزبية: تدور مع الحزب حيث دار، وتقدس الأشخاص، والأقوال.. وليس لديها القدرة على التغيير والتحسين، أو العمل خارج نطاق الحزب، أو تقبل أفكار جديدة غير أفكار الحزب وأيديولوجيته.

الرسالية: تبحث عن مصلحة الرسالة وتحقيق أهدافها أولاً، وعن مصلحة عموم الأمة، دون تفرقة، ودون شعور باستعلاء طائفة من الأمة على غيرها.

الحزبية: تبحث عن مصلحة الحزب، وتحقق أهدافه أولاً، وتختزل الأمة في الحزب، ومصلحة الأمة هي مصلحة الحزب.

الرسالية: غير ملتصقة بذاتها، ومفطومة عنها، قادرة على الخروج من الذات، واحتواء نفسها، والآخرين.. بل والكون من حولها.

الحزبية: شديدة الالتصاق بالذات، وغير قادرة على احتواء الآخرين.. وتجعل نفسها وأيديولوجيتها وحزبها صورة واحدة غير قابلة للتجزئة أو النقد أو التغيير.

الرسالية: تنتصر للحق، والعدل.. ولو على أنفسها أو الأقربين، وتنتصر للمظلوم، وتغضب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.. فتجد لها مكانة ومهابة في قلوب الآخرين حتى من أعدائها.

الحزبية: تنتصر للحزب، ولا تقبل المساس بنفسها أو حزبها، وتنتصر للمظلوم فقط إذا حقق ذلك مصلحة للحزب، ومكانتها مهزوزة في قلوب الآخرين؛ وذلك لطريقة تعاملها النفعي مع الحق والعدل والمظلومين.

الرسالية: شخصية يصعب اختراقها أو توظيفها من قِبل أعدائها، ذلك لأنها تدرك طبيعة رسالتها جيداً، وتعرف عدوها كما علمها القرآن، وتستبين سبيل المجرمين، ولا تغيب عن واقعها، و ترسم خريطة العدو وموضعه في مسرح الحياة بدقة واستعداد للمواجهة.

الحزبية: شخصية يسهل اختراقها وتوظيفها من قِبل أعدائها، ذلك عندما يلوح العدو بإمكانية انفراجة لمصالح الحزب، مقابل ضرب أيديولوجيا الآخرين، أو عدم التعاون معهم، أو إشعال الخلاف بينهم لتسهيل عملية التدمير الذاتي.

الرسالية: لا تبرر أخطاءها، وتبحث عن مكامن الخلل، وتعمل على التوبة من الأفكار الباطلة، والتصورات الخاطئة، وتكون في حالة من التصحيح والتسديد والتقريب المستمر الذي لا يتوقف.

الحزبية: تبرر جميع أخطائها، وتُلصقها بعدوها وبخداعه وبتآمره عليهم، وتجد مبرراً لكل فعل، ولكل جريمة.

الرسالية: تُطهر قلبها من أمراض الحقد، والغل، والحسد، والبغضاء، والشحناء، وتعالج نفسها من أمراض الاستبداد.

الحزبية: يتدنس قلبها بالحقد والغل تجاه الأفكار الأخرى، والآخرين من غيرهم، وتتأصل فيها أمراض الاستبداد، والعصبية الباطلة، والتشنج الفكري والنفسي.

الرسالية: يسهل لها العمل مع كافة الأفكار والحركات طالما داخل أهداف الرسالة، وتحقق مقاصدها، ولا تجد تحيز لفكرة على حساب الأخرى، ومؤهلة لحمل الرسالة، وتتحلى بالتجرد والإخلاص والموضوعية لكل فكرة وعمل، فهي متجردة من كل حظ لها يخص أهداف الرسالة، وموضوعية تجاه الهدف ذاته، لا غيره من أشخاص أو عوارض.

الحزبية: يصعب عليها العمل مع الأفكار المخالفة لأيديولوجيا الحزب، وتشعر أمام المختلفين معها بحائط صد منيع، يجعلها تشعر بعزلة واستعلاء على الآخرين، وغير مؤهلة لحمل الرسالة، ويصعب عليها التجرد والموضوعية.

الرسالية: تستلهم الحكمة والطريق من نور الوحي، ويخالط قلبها بشاشة الإيمان، وتعرف الفرق بين المواقف الاضطرارية، والمؤقتة، وبين أهداف الرسالة وغايتها التي لا تغيب عن فكرها وحركتها أبداً.

الحزبية: تستلهم الحكمة من أيديولوجيا الحزب أو شخصياته، ويخالطها التعلق بالحزب، وتتخذ من مواقف استثنائية منهج حياة.

الرسالية: تجمعها عروة الإيمان الوثقى، ولا تتفرق في الدين، وتعتصم بحبل الله، وتشعر الأخوة الإيمانية مع كل مسلم، والأخوة الإنسانية مع كل إنسان.

الحزبية: يجمعها التطابق النفسي للنفوس الحزبية المتشابهة، وتنجذب نتيجة التشابه والتطابق لنفوس الحزب، وتتفرق في الدين، وتشعر بالأخوة فقط مع أبناء الحزب.

الرسالية: لا تطمئن ولا تهدأ حتى تتحقق أهداف الرسالة كاملة وهي إقامة الدين، وتحكيم الشريعة، وإعلاء كلمة الله، وإحقاق الحق والعدل لكل إنسان، وتظل في حالة من العطاء، ولا تنتظر جزاءً ولا شكوراً ولا أجراً إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الحزبية: تقنع بالمكاسب المحدودة، والحركة في إطار الحزب أو حدود الأرض، وتظل تنتظر المكاسب والمغانم معنوية أو مادية.[1]

والحركة الإسلامية بحاجة إلى "الشخصية الرسالية" لا "الشخصية الحزبية"، ومن أهم الخطوات في تصحيح مسار الحركة الإسلامية هو "تربية" الشخصية الرسالية.

* * *

(1) راجع – إن شئت – مقال: أتباع ورجال.



تعمل الأجهزة المعادية للإسلام على تشويه صورة الرموز الإسلامية بصورة مكثفة، وممنهجة، ومدروسة، تهدف من خلالها إلى فقدان ثقة عموم المسلمين في رموزهم، وإن كان هناك أخطاء لهذه الرموز فيتم تضخيمها بصورة كبيرة، وإلقاء الضوء عليها، حتى لا يُعرف من تاريخ الرمز الإسلامي إلا أخطاءه ! وإذ لم يكن له أخطاء – أو أخطاءه مستورة – صنعوا له من الأخطاء – ولو بالكذب والافتراء – لتدمير سمعته.

وهدف هذا التدمير هو أن يقول المسلم: إن كان هذا الرمز الذي يدعي خدمة الإسلام، والعمل للدين بهذه الأخلاق المنحرفة، والسلوكيات السيئة، فإذاً الجميع كلهم كذلك.. وبالتالي أنا في حِل أن أكون مثله، فيتم التعميم بذلك، فلا يكاد يَسلم رمزاً إسلامياً قديماً وحديثاً من التشويه والطعن.. والغرض ليس تشويه شخصه بقدر ما هو الإساءة للدين الذي يحمله أو يدعو إليه.

وللأسف انتقل هذا المرض إلى الحركة الإسلامية، واحترف أبناؤها عملية "الاغتيال المعنوي" للخصوم من الجماعات الأخرى !.

فأصبح لديهم قرون استشعار لاصطياد الهفوات، والتشهير بأصحابها.. والغرض ليس النصح، ولا إنكار المنكر، ولا النصرة.. إنما هو اغتيال الشخصية معنوياً.

ويلعب الجهل وقلة العلم دوره في تنشيط عمليات الاغتيال، فينطلق السفهاء يرددون بلا علم ولا فهم: (فلان مبتدع، فلان ضال، فلان زنديق) وتسأل لماذا؟ فلا تجد إلا شبهات تافهة أطلقها خصومهم في زحمة الصراعات الفكرية أو الحركية.

وقد يكون لعالمٍ من العلماء نظرة معينة في تفسير آية أو حدث تاريخي.. ويلتقي هذا التفسير التقاءً عرضياً مع جماعة مبتدعة في التاريخ الإسلامي، فيلتقطون قول هذا العالم ويُشنعون عليه أنه إمام أهل البدعة لمجرد هذا الالتقاء العرضي، أو لمجرد أنه قال قولاً أنصف فيه المخالف.

أو يكون للعالمِ قولاً شاذاً في قضية ما، أو لخطئه في مسألة.. فيُتخذ من ذلك وسيلة للحط من كامل علمه ومكانته، ويُجعل من خطئه أو قوله عنوان للمفكر أو العالِمِ؛ مما يحطم مكانة العلماء الصادقين، ويجعل الأمة تتشكك في كل شيء.

وإن نجح الاغتيال المعنوي لشخصية ما، فإن ما يلحق بها بعد ذلك أو من يتصل بها أو يقرأ كتبها أو يقر ببعض أفكارها.. فإنه يلحقه هو الآخر الاغتيال بالتبع في تسلسل عملية الاغتيال !.

وهذا الاغتيال المعنوي يجعل كل طرف من الجماعات يُشهر سلاحه للآخر، ويكون بينهم من الثأر، والغل، والخصومة ما يكون كافياً لإحراق كل شيء ! ولتدمير آثار العمل الإسلامي الطيب، إضافة إلى استحالة حصول الألفة والمودة والمحبة بين المسلمين.

ويعتبر الاغتيال المعنوي من أحط السلوكيات الإنسانية، بما يستحل من عرض الناس، ويسعى إلى تدمير سمعتهم لخصومة أو غيرة أو حسد أو طمع أو جهل.. وقد سبق هذا الانحراف سلوكيات أخرى من الكذب والرياء والغلظة والكِبْر، وإن كان الاغتيال معنوياً في حالة الاستضعاف وعدم القدرة، فلا يمنع أن يتحول إلى اغتيال حقيقي في حالة التمكن والقوة ! كما حصل مع بعض الجماعات المسلحة ! الأمر الذي يشير إلى مدى خطورة هذا السلوك ولو بقي على المستوى المعنوي.

إنَّ النقد والنصح والبيان شيء، والكذب والاغتيال المعنوي شيء آخر.. فلا شك هناك اختلاف بينهما في النية، والمقاصد، والسلوك.

وإن الذي يسعى لهذا الاغتيال المعنوي، هو أيضاً يغتال جزء من الحق والحقيقة، ويُلبّسهما على الناس بأخطاء صحيحة أو مكذوبة، ووجود مثل هذا السلوك في الحركة الإسلامية، وعدم التوعية بمدى خطورته.. يُفسد كثيراً من العمل الإسلامي الصادق.

* * *



وتعني: تحقيق المصلحة (المنفعة) الذاتية بعيداً عن القيم الأخلاقية أو المبادئ العليا، فالمبدأ هو المنفعة، وتحقيقها من أي طريق هو الغاية، وصحيح إن هذه الفكرة هي فكرة غربية سياسية، إلا أنها تسللت إلى العمل الإسلامي والإسلاميين – إن صح التعبير – حتى بلغت مرحلة جعلتني أدعو فيها إلى فصل العمل السياسي – وليس المبادئ السياسية – عن الدين[1]؛ بعدما ركب قوم الإسلام لتحقيق مصالحهم الحزبية باسم الدين، والشرعنة للباطل والظلم باسم الدين، والتلاعب بميزان الإسلام في الأحكام حسب أهواء الجماعات، فمن يؤيد الجماعة يُعطى "صك الغفران"، ومن يرفضها يَأخذ "صك الحرمان"، كأن الإسلام أصبح ميراثاً تُوزع تركته على من تشاء الجماعة !.

ونجد هذه البراجماتية في التعامل الحزبي، وفي التعامل بين الجماعات بعضها البعض، وفي التعامل بين أفراد الحركة الإسلامية، وفي تعامل الجماعات مع باقي قطاعات الأمة.

ولقد أدى الفكر البراجماتي – النفعي الذاتي – إلى الانعزال عن الأمة، وعن قضاياها، واختزال الأمة ومصالحها في ذات الجماعة ! والاستعداد للتضحية بالأمة وقضاياها من أجل حماية الجماعة، التي من المفترض أنها ما قامت إلا من أجل دين الأمة، ورفعتها !

صحيح إن الإسلام يعطي شرعية للأمة لتحقيق مصالحها العليا، وإعلاء كلمة الله.. والأدلة الشرعية والمواقف النبوية التي يُستدل بها في هذا الأمر، إنما هي لدين الله، وأمته جمعاء.. وليس لصالح جماعة منها حتى لو وقع الضرر على باقي الأمة؛ فـ (الصلح، والهدنة، والمعاهدة، والاستعانة بغير المسلمين، والتحالف، والحياد، وتبادل وتقاطع المصالح... إلخ) كلها أمور من أجل الأمة،

(1) راجع – إن شئت – مقال: فصل الدين عن العمل السياسي.

وليست من أجل حزب فيها، أو نصر سياسي لأحد أفرادها، أو لأجل مصلحة خاصة لأحد مكوناتها على حسب الأمة كلها.

ولكن السلوك الواقعي لدى البعض هو: اختزال الأمة في الحزب، وتُوضع الأدلة الشرعية الصحيحة في غير مناطها، وفي غير غايتها؛ فتفسد القلوب بهذه البراجماتية، ويتحول من كان يريد الخير لأمته، إلى شخصية براجماتية تريد الخير لذاتها أو جماعتها، وتقع في "التملق والكذب" إذا أرادت رضى الناس، وتقع في "الانتفاش والاستكبار" إذا زهدت في الناس.

* * *

كما تُنشأ البراجماتية في النفس وهم "مصلحة الدعوة" حيث يفعل البراجماتي كل شيء لنفع ذاته أو جماعته باسم "مصلحة الدعوة" ويُصدِّق هذا الوهم، الذي يُريحه من وخز الضمير.. فيتصور نفسه وجماعته هم كل شيء، وأي شيء يصب في مصلحتهم فهو بالتبع سيكون في "مصلحة الدعوة" ولا يكون في مصلحة الدعوة في شيء.. بل لا أضر على الدعوة من هذه البراجماتية التي تستخدم الدين والأخلاق لتحقيق مصالح نفعية ذاتية.

بل بسبب هذه البراجماتية قد تتحول جماعة ما إلى صمام أمان للأنظمة الفاسدة والباغية.. وتكون حجر عثرة في قيام حركة التغيير الجذري التي ترغب في اقتلاع الفساد والمفسدين والطغاة من الجذور، بسبب حسابات البراجماتية الفاسدة التي تتوهم مصلحة لا وجود لها؛ فتستغل الأنظمة الفاسدة الجماعة البراجماتية في خدمة سياساتها، وتوظيفها التوظيف الذي يخدم مصالح الفسدة، ولا يعود ذلك بالنفع على المسلمين بشيء، بل تنعزل الجماعة عن الشأن العام، وتطلعات وأشواق الأمة؛ فتصبح الجماعة محطة للتفريغ والإجهاض لطاقات الشباب المسلم !

وتؤدي البراجماتية إلى تحكم "أصحاب المال" - وليس أصحاب الفكر الراشد - في توجيه الجماعة.. فتتحول الجماعة - التي من المفترض أنها ما قامت إلا لخدمة دين الله، وأمة الإسلام - إلى شركة مساهمة، من يشتري بماله الكثير من الأسهم، فهو صاحب القرار الفصل ! ويؤدي ذلك الأمر إلى الاختراق الفكري والأمني، ويفرض نظرية القوة لا الحق.. فمن يملك قوة المال أكثر تأثيراً ممن يملك قوة الحق، ومن يُبدي اعتراضاً فهو عرضة للحرمان من أصحاب المال والنفوذ ! مما يؤدي إلى

عدم الوحدة الفكرية والمنهجية داخل الجماعة الواحدة، ويجعلها عرضة للشقاق والانقسام، إضافة إلى وصول كثير من الأشخاص التي تفتقد الأهلية والشرعية والكفاءة إلى سدة التوجيه والقيادة !.

* * *

وقد تقوم الشخصية البراجماتية باختيار سياسي أو مادي ما، وتمضي - بالفعل - فيه، ثم تكتشف أنها بحاجة إلى "دليل شرعي" - مثلاً - لاختيارها هذا ! حتى تزداد أهميته أو قيمته عند الناس.. فتذهب إلى "درج الدين" عن طريق كهنة محترفين "تحريف الكلِم عن مواضعه" يفتحون "درج الدين" ويختارون أي شيء يمكن أن يتوافق مع حالتهم هذه.

ودوماً ما يقع أصحاب الفكر البراجماتي في تناقضات كثيرة، وفاضحة.. فهو يدور مع المصلحة الخاصة، والمصلحة دوماً متغيرة؛ فيكون أصحاب هذا الفكر في حالة من عدم "الاتساق" و"التفكير السوي"..

وهؤلاء لا يعنيهم "المُحكم" من كتاب الله، ولا يعنيهم دقة الدليل وصحته وقوته، وإنزاله على واقعه.. فهم يبحثون عن "مخرج" لهم أو صورة تناسب "الاختيارات البراجماتية" التي هم فيها بالفعل!

والسياسة في الإسلام قائمة على الدين والأخلاق، قائمة على إحقاق الحق ولو على أنفسنا أو الأقربين، وقائمة على النبذ على سواء حتى مع الخائنين، وقائمة على العدل مع كل الناس.. دون إهدار إنسانيتهم أو حقوقهم، وإن كانت هذه السياسة الإسلامية بعيدة اليوم عن التنظير والتطبيق، لكن تبقى مبادئها العامة، وتاريخ الراشدين من هذه الأمة خير مثال ودليل.

ومن صور السياسة الشرعية:

- في حال وجود دولة تجتمع على الإسلام، وتنتسب للشرع: فتكون "سياستها الشرعية" من أجل "الشرع" وتحقيق "مصلحة الإسلام" في الدعوة والانتشار، و"مصلحة عموم المسلمين" بما تقتضيه الظروف، فتكون هذه السياسة الشرعية مثلاً: حرباً حيناً، وهدنة، وصلحاً، وعهداً... إلخ حيناً آخر.

- وفي حال عدم وجود دولة تجتمع على الإسلام، وتنتسب للشرع: فتكون "السياسة الشرعية" هي: العمل في سبيل الله من أجل إقامة هذا الدين، وعودة هذه الحضارة الربانية بشمولها.

أما **البراجماتية**: فهي تحقيق مصالح خاصة ذاتية لفرد أو حزب أو جماعة.. تكون القيمة العليا فيها هي "المصلحة الذاتية" الآنية القريبة.. وليست مصلحة للإسلام، ولا لتحقيق الشرع، ولا لنفع عموم المسلمين!

❊ ❊ ❊

والفكر البراجماتي يجعل معتنقوه يدورون مع الأهواء حيث دارت.. سواء أهواء جماعتهم، أو أهواء الجماهير المستهدفة، فتتغير الحقيقة وتتلون حسب الحاجة والمزاج، ولا يُفلح البراجماتي حيث أتى، فما هي إلا تجارب قليلة مع معتنقي هذا الفكر، حتى يَكفر الناس بهم، ويلعنونهم، فتضيع المصداقية – ربما مع كافة أطياف الحركة الإسلامية لوجود آفة التعميم في العقل الجمعي – وتُستهلك الشعارات والكلمات، فإذا ما حاولنا إعادة إحيائها بصدق، سيتذكر الناس التجارب السيئة، والسلوكيات المشينة لأصحاب النهج البراجماتي.

فالشخصية البراجماتية ليست أمينة على حمل رسالة الإسلام، ولا تصلح للقيام بأمر هذا الدين.. وهي شخصية تعيش في المنطقة الرمادية، وبلا موقف.. وليس لها ثوابت، فكل شيء خاضع للمنفعة الذاتية، وبالتالي تكون الازدواجية والتناقض منهجاً وطريقاً لأصحاب هذا الفكر المنحرف.

فيجب الصدق والأمانة مع الأمة في مجموعها، فالرائد لا يكذب أهله.. ورواد الحركة الإسلامية وقياداتها ليسوا كأي رواد، بل يُفترض لهم أنهم رواد التحرير والحرية والصدق والإيمان والحق والعدل، والفكر البراجماتي يحطم هذه القيم الجميلة، والمعاني النبيلة الطيبة، والمشاعر المرهفة تجاه آلام الأمة وآمالها..

فيُبرز الفكر البراجماتي صورة غليظة كئيبة لبعض رجال الحركة الإسلامية كأنهم مجموعة من المتملقين الكاذبين الذين يوظفون الدين، ويتلاعبون بآلام الأمة للدعاية لأنفسهم، ولجماعتهم.[1]

❊ ❊ ❊

(1) راجع – إن شئت – مقال: أوهام كالجبال .



وهذه المسألة من أعقد المشكلات لعدم وجود حدود وفواصل بينها تحدد ما هو "مبدأ" وما هو "فعل"، وكذلك لغياب "الفقه السياسي الإسلامي الراشد" عن الواقع وعن التنظير، وعدم تبلور المشروع الاستراتيجي الذي يُقيم الدين، ويُعيد ريادة الأمة من جديد.

إن **الدين** هو الذي يضع الإطار العام للفعل السياسي، وهو الذي يضع "المبادئ السياسية" – كما يضع غيرها من المبادئ.

وأما **الفعل السياسي**: فهو الحركة التي يقوم بها المسلم من أجل تحقيق أقصى مصلحة تحقق الهدف العام، وهو: إقامة الدين وتحقيق الحق والعدل، ورفعة الأمة المسلمة من جديد، وهذا الفعل السياسي خاضع للرقابة والمحاسبة، وليس لأصحابه حصانة ما؛ فهم مجرد أُجَراء عند الأمة لتنفيذ مهمة معينة، ولهم برنامج سياسي أو خطة ذات كلفة وتوقيت وجودة معينة لتحقيق أقصى استفادة من وجودهم؛ حتى ولو كان خطوة واحدة على الطريق.

والفعل السياسي: سواء أكان شخص الحاكم أو حزبه أو حكومته أو جماعته.. ليس له أن يركب الدين، ويتلاعب بالفتاوى، ويُوظف رجال الدين – إن صح التعبير – ليمارسوا لفعله "التطبيل" و"الشرعنة" وليس لهم أن "يركبوا" الدين ويستخدمونه لأغراض سياسية خاصة.

فالدين: هو الموجه العام للمبادئ السياسية وليس العكس، والأمة والعلماء والفقهاء إنما يدورون مع الكتاب حيث دار، لا مع السلطان ولا الحزب ولا الجماعة.(1)

(1) جاء في الحديث الشريف: "**أَلا إِنَّ رَحَى الإِسْلامِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ**" [المعجم الكبير للطبراني/ 172]

ودور الفقهاء والمشايخ والدعاة والعلماء إنما هو في ترسيخ المبادئ السياسية الإسلامية – وغيرها – في وعي الأمة، وليس في إصدار "فتاوى البلاط الملكي" فيتحولون إلى مجرد خدم للسلطان، فهم أكرم من هذا، والدين أعظم من ذلك.

ولكن الذي يحصل أن تسقط المسافات الفاصلة بين "المبدأ السياسي" الذي يحدده ويصوغه الدين، وبين "الفعل السياسي" الذي يقوم به المسلم، فقد نجد السياسي المسلم يتلاعب بالدين، ويبحث عن فتاوى يؤيد بها حركته؛ ليخدع الجماهير، فمثلاً لو قرّر السياسي فعل أمر ما، استخرجوا له الفتوى التي تؤيد ذلك، وإن قرر السياسي فعل عكس هذا الأمر تماماً في اليوم التالي، استخرجوا له فتوى أخرى تؤيد ذلك؛ مما يجعل ميزان الدين ألعوبة في يد هؤلاء !

ويجعل الناس من ورائهم تفقد المصداقية فيهم، وفي حركتهم؛ ويصبح الدين خادماً للألاعيب السياسية المتقلبة.

* * *

جدلية الدين والسياسة

حتى اليوم مازالت جدلية الدين والسياسة من أعقد التصورات عند المسلمين، وهم في حالة من الصراع الفكري، والاضطراب أيضاً حولها.

وقد كان هذا الصراع قديماً قائماً في **الغرب**: حيث هيمنة الكنيسة والإمبراطور على حياة الشعوب، ثم قامت الثورات التي تخلصت من تلك الهيمنة – وإن استبدلتها بهيمنة من نوع آخر ! – وأبعدت الدين بالكلية عن حياة الناس، ورأت فيه الرجعية والظلام، والاستبداد والكذب، والوهم والأسطورة..

وعَمّق هذا البعد قيام الثورة الصناعية، وتقهقر المسلمين، وانهيار دولتهم، وجرائم الكنيسة وفضائحها.. ولكن العلمانية أخذت مراحل كثيرة في التطور، لأنها قامت واستقرت بعد حروب طاحنة ضاع فيها مئات الملايين من البشر ! واستقر النظام العلماني العالمي على المبدأ "الديمقراطي الرأسمالي" وهو امتداد للحضارة الرومانية سلوكاً، والإغريقية فكراً؛ بكل إباحياتها وفلسفاتها في

الحياة والصراع على المادة، وأصبحت "الديمقراطية الرأسمالية الليبرالية" قمة التطور السياسي والاقتصادي لدى الغرب، وأصبحت الحرية في الفجور والعري والإباحية مطلقة بدون أي قيد من دين أو قانون أو أخلاق، وبقي النظام الديمقراطي أفضل من النظام الاستبدادي المتعنت، لما في الديمقراطية من صور: الرقابة، والمحاسبة، والعزل، ولكن بقيت الرأسمالية تستعبد الشعوب، وتمتص دمائهم، وتسترق حياتهم، وتجعلهم مجرد "موارد بشرية" لشركات حفنة قليلة من المرابين وسُراق الثروات؛ وعندما يبدأ الاستغناء عن هذه الموارد البشرية، أو تقليص عددها، أو ظلمها تشريعياً، أو اجراءات تقشف تقطع عليهم التمتع بحرية الإباحية؛ تبدأ المسيرات والتظاهرات التي تسمح بها الديمقراطية ! هذا باختصار ما حصل من صراع بين الدين والسياسة في الغرب.

أما عند المسلمين: فالصراع ضارب بجذوره في عمق التاريخ منذ "معركة صفين" وحتى اليوم ! ومرّ المسلمون بأطوار شتى في علاقة الدين بالسياسة (سياسة الحكم والمال ونظم الحياة) **فالمرحلة الأولى**: "مرحلة الرشد" حيث هيمنة الدين على (الروح والمجتمع والدولة) **والمرحلة الثانية**: "مرحلة الاستبداد" حيث اتخاذ عباد الله خولاً - عبيداً للملوك - وماله دُولة بينهم، وكتاب الله دخلاً؛ يتخذون منه وسيلة لتثبيت شرعيتهم، وبغيهم ! ثم **المرحلة الثالثة**: "سقوط الوحدة السياسية للمسلمين"، وانتهاك السيادة على بلادهم تحت وقع هجمات الاستعمار - الاحتلال - الدولي لبلاد المسلمين، وتقسيم بلادهم، ونهب ثرواتهم، وإفساد قيمهم، وتولية رجالاتهم على المسلمين.

* * *

وفي "محاولة التغيير" للعودة إلى المكانة السابقة للدولة الإسلامية، والأمة المسلمة.. وقع الصراع بين الإسلاميين والعلمانيين، **فأما الإسلاميين**: فقد وقعوا في خطأ فاحش، وهو استخدام قوة الدين كوسيلة لنصرة جماعاتهم وأحزابهم ومواقفهم، كما أن غياب الفقه السياسي الراشد، بفعل تقديس "فقه الملك العضوض" في أمور السياسة من جانب، وتقديم أنفسهم أحياناً كثيرة كعلمانيين بنكهة إسلامية من جانب آخر؛ جعلهم بلا مشروع سياسي راشد حقيقي.

وأما العلمانيين: فمنهم من يريد تحييد الدين عن الصراع السياسي منعاً لاحتكاره من قبل جماعة أو حزب، أو لجهالتهم بالتصور السياسي الإسلامي الراشد، أو تعميم بعض الممارسات الخاطئة على

الجميع، أو التبعية والانبهار بالغرب، أو طمعاً في دنيا. ومنهم من هو كاره للدين ابتداء، ولما أنزل الله، وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبهم، ومازال هذا الصراع قائماً حتى اليوم !

إذاً، فما هي علاقة الدين الإسلامي بالسياسة، وكيف تكون هذه العلاقة سوية صحيحة مستقيمة ؟

في البداية.. الإسلام جاء ليَحكم، هذه حقيقة أولية يجب أن تكون مستقرة في عقولنا، وشريعته وسنة نبيه ﷺ جاءت لتسود؛ لتسود في أمر السياسة والحكم والمال، كما جاءت لتسود في أمور العبادات والصلوات، كما جاءت لتسود في الأخلاق والقيم والتصورات والموازين، كما جاءت لتسود في التشريعات والقوانين.

وإن تحكيم الشريعة – في مجال النظام – في الدولة المسلمة، يبدأ من سياسة الحكم والمال، وتولية الأصلح من خلال نظام الشورى المناسب لكل مرحلة حضارية تمر بها الأمة، والحاكم مجرد عامل عند الأمة، يقودها بكتاب الله ليس له من نصيب في المال أكثر من غيره من المسلمين، وليس له حق في توريث الحكم لأحد من بعده، وأما سياسة المال: فالثروة والمال حق خالص للأمة، يُوزع كما أمر الله، بلا محاباة ولا تمييز ولا استئثار، ولهذا جاء التنبيه النبوي باتباع سنته – في كل شيء – وسنة الخلفاء الراشدين المهديين في سياسة الحكم والمال.

فالدين الإسلامي يُمثل القوة الروحية، والاجتماعية، والفكرية، والتعبدية بالنسبة للمسلمين، وهو الهوية الجامعة لهم.

ولكن الذي يحدث أثناء الانحراف عن الرشد.. أن يُستخدم الدين كقوة سياسية يحتكرها حزب أو جماعة، فتجعل من نفسها المتحدث الرسمي باسم الدين، أو هي وحدها الفرقة الناجية المنصورة، أو التلاعب بعواطف الناس لتبرير مواقفها وأخطائها باسم الدين، أو جعل الإسلام كميراث للأبناء لا يحق لأحد أن يأخذ منه إلا بإذن الحزب أو الجماعة.. والحق إن ذلك من أفحش صور الصد عن سبيل الله، والإساءة إلى الإسلام.

والصورة الصحيحة: إن المسلمين كونهم مسلمين لا يسعهم إلا أن يَحكموا ويُحكموا بالإسلام، فهذه صورة الحرية التي يريد الله فيها للإنسان أن يتحرر من النظم الوضعية، والتشريعات الباطلة، ليكونوا أحراراً أمام سيد واحد.. جَلَّجَلَالُهُ.

فهناك فرق أن يكون الدين هو القائد، وأن يكون هناك أشخاص تركب الدين وتتخذ من كتاب الله مطية لتحقيق أغراضها السياسية ! فالسلطان السياسي للمسلمين هو: "**كتاب الله**" وشرط الولاية والشرعية علينا "**ما أقام فيكم كتاب الله**"[1]؛ وبذلك فهو القوة الروحية والسلطة العامة لكل المسلمين، ولا يحق لأحد أن يتخذه كوسيلة لتحقيق مصالح شخصية أو حزبية.

وإن المسلمين لا يسعهم إلا أن يقوموا بأمر هذا الدين، وأن يكون هو الاختيار الأوحد لهم، لا يحيدون عنه، وليس هو أداة للتلاعب الحزبي، أو الصراع الانتخابي.

وليس في الإسلام صورة الحاكم بأمر الله، ولا ظل الله في الأرض، ولا يحكم أحد باسم الحق الإلهي المقدس ! فكل هذه صور من انحرافات الكنيسة في عصورها الوسطى المظلمة، إنما الحاكم ونظامه.. يَحكم بأمر الأمة التي اختارته، وقدّمته لهذه المهمة، والحاكم والأمة خاضعون جميعاً لسلطان الكتاب.

والمؤسسات الدينية مثل: المسجد والمنبر والقضاء والجامعات ومؤسسات الفتوى وغيرها، ليست في خدمة الحاكم ونظامه، وليست تابعة له، بل هي مؤسسات مستقلة حيادية؛ تعمل في خدمة الدين والشرع، وحماية وصيانة الأمة، ولها حق الاعتراض والاحتساب على الحاكم وكافة مؤسساته التنفيذية، وتقوم بواجبها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بكل صدق وإخلاص وموضوعية، وتدور مع الكتاب – لا الحاكم – حيث دار.

وعليه؛ فإن الحركة السياسية لكل المسلمين لا بد أن تكون إسلامية باسم الله ! دون احتكار المشروع الإسلامي، أو التحدث الحصري باسمه.. بل إن كل جماعة أو حزب – أو أي صورة من صور الاجتماع – يُقدم نفسه على أن حركته مجرد "اجتهاد" بشري، لا كفر وإيمان فيه.. بل مجرد

---

(1) كما جاء في الحديث الشريف عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ، عَنْ أُمِّهِ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ** جَلَّ جَلَالُهُ" [مسند أحمد/ 16213]

اجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، والخطأ محمول على فهم وحركة أصحابه لا على الإسلام ذاته، وفي ذلك الاجتهاد فليتنافس المتنافسون.

وبالعموم.. فالإسلام يواجه الواقع بالوسائل المكافئة له، ويواجه قوة الباطل بقوة الحق؛ ويمضي في طريق السنن الإلهية، ويحقق سنن التغيير في هذا الواقع، دون انتظار صورة سحرية غامضة الأسباب لمجرد كونه مسلم !.

والصحيح: إن الأمة هي التي تقوم بأمر دينها، وتقوم بالمهمة التي من أجلها أخرجها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للناس، ولا تجعل الحاكم يتلاعب بالدين من أجل غرض سياسي، فهي حامية الدين، وتمنع الحاكم أن يُصور نفسه للناس أنه هو الإسلام، وغيره هو الفتنة والضياع؛ وبذلك يسهل مراقبة الحاكم، وعزله، ومحاسبته من خلال مؤسسات الأمة المختلفة، التي تستطيع أن تحقق أقصى فاعلية لمفهوم "الشورى" بمعناه الواسع والشامل.

وهذه الحركة السياسية تحتاج إلى الصدق الخالص - لا سيما في هذا الصراع العلماني الإسلامي - دون رغبة في شرف أو رياسة أو مال، ويحتاج إلى فقه سياسي راشد نقي من لوثات "الملك العضوض"، ويحتاج إلى تنوع في الطرح بعيداً عن "الغلو" و"العصبية الجاهلية" اللذان يؤديان إلى "البغي" على الآخرين؛ فيُحبط البغي النصر والتمكين، ويُمتع أصحابه إلى حين ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ.[1]

❋ ❋ ❋

(1) راجع - إن شئت - مقال: فصل الدين عن "العمل السياسي"، ومقال: بين المبدأ والفعل.



اعتبرت بعض فصائل الحركة الإسلامية أن سبيل التغيير الوحيد والمتاح هو "الديمقراطية" وهي أفضل ما وصل إليه العقل البشري في كيفية إدارة الدولة، وتنوع الموقف الفكري من الديمقراطية، فمنهم من يؤمن بآلياتها دون فلسفتها، ومنهم من يكون أكثر صراحة ويؤمن بآلياتها وفلسفتها ويعرف استحالة الفصل بينهما، وصار جدل طويل حول حتمية الديمقراطية، وأنها أفضل طريق للحل والتغيير السلمي !.

والديمقراطية معناً هي: حكم الشعب. **واصطلاحاً** هي: حماية حقوق الأقليات، والتعددية، وحقوق المرأة والإنسان، والمدنية، والليبرالية، والمواطنة، وحرية السوق، وفقاً للمعايير والمفاهيم الغربية.

والديمقراطية واقعاً هي: سيطرة المال والإعلام على عقول الجماهير، وصناعة الرأي العام، وسيطرة الشركات العابرة للقارات على مقدرات البلاد وثرواتها، فيما يسمى باقتصاديات السوق الحر أو "النيو ليبرالية"، وهذه الشركات هي التي تمول وتحدد التوجه الانتخابي في البلاد القوية، وتمول الحروب والانقلابات في البلدان الضعيفة.

ومن ثوابت الديمقراطية: (1) علمانية الدولة، وفصلها عن الدين أو أي مبادئ روحية وأخلاقية، (2) والاقتصاد الرأسمالي الذي يضمن مصالح وأرباح حفنة قليلة، (3) والتحرر من أفكار الهوية والولاء والانتماء، وجعل القيمة البراجماتية النفعية هي محور الحركة والدوران والنشاط.

* * *

حاولت الحركة الإسلامية الوصول إلى الحكم عن طريق الصناديق – ظناً منها أن المنافسة شريفة، والديمقراطية عادلة شفافة – فلما نجحت.. انقلبوا عليها عسكرياً كأشرس وأفحش ما تكون الانقلابات ! وفي الحالات التي وصلت فيها للحكم قالوا لها: لا يحق لكِ الحكم وحدك لأننا "ديمقراطيات ناشئة" لا بد أن يحكم الجميع في صورة توافقية تشاركية، والشركاء متشاكسون.. والأهداف متضادة ففشلت في الحكم أيضاً ! **ومن الناحية الإعلامية**: يطلقون حرية الإعلام ويقولون هذه هي الديمقراطية، فيحصل خاصة في حال نجاح الأحزاب الإسلامية في الوصول للبرلمان، أو في تشكيل الحكومة.. أن تزيد الهجمة على الإسلام والطعن فيه، وتشويه رموز الحركة الإسلامية، وزيادة قنوات العهر ! فعند الحكم يقولون: ديمقراطيات غير مستقرة وناشئة، وعند الإعلام: تكون الديمقراطية على أشدها في التشويه والطعن والإساءة باسم الحرية !.

ولعل من أخطر عيوب النظام الديمقراطي أنه يحُول الحاكم إلى مجرد مدير تنفيذي لأصحاب الأموال، وتتخدر الشعوب بـ "وهم الديمقراطية" فقد نقلها الدجالون من "الاستبداد الوحشي الخشن" إلى "الاستبداد الناعم المهذب"، والديمقراطية لا تعمل إلا بعد الإيمان بثوابتها، وأهم ثابت لها هو "العلمانية" ومحاولة أسلمة الديمقراطية هي محاولة مستحيلة، إضافة إلى أن مبادئ الديمقراطية التي تُصدر إلينا – كحقوق الإنسان والحريات – لم نجد منها شيئاً حقيقياً.. فهي ليست إلا مجرد أدوات ضغط للتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد باسمها، واستغلال الأقليات في خلخلة نظام الدولة وقت الحاجة، وحتى مسألة حرية السوق.. إنها تعني حرية أباطرة المال والمرابين في امتصاص ثروات الشعوب، وسرقة عرقهم، ومص دمائهم !.

❋ ❋ ❋

وإن دعوة الغرب للمسلمين للتمسك بالديمقراطية ليست هي من أجل صلاح شأنهم، وإنما هي من أجل جعل علمانية الدولة والقانون الوضعي بديلاً عن "سيادة الشريعة" التي تأمر بالتحرر من هيمنة الغرب وفكره وباطله.. إنها في الحقيقة ليست دعوة إلى رأي الأغلبية أو محاسبة الحاكم أو احترام الحقوق، ولكنها دعوة للاستبداد المطلق للدولة وقانونها المستمد من قانون الغرب ذاته، وتغيير القوانين والدساتير حسب الأهواء، وحسب إملاءات السيد المحتل.

وكافة نظم الحكم في العالم الآن تقوم بإجراء انتخابات ديمقراطية، وتزعم لأنفسها أنها دولاً ديمقراطية، فالحل ليس فيها.. والفرق بين الدول هو فرق في قوة الدولة من بناء المؤسسات بطريقة منهجية علمية، ومحاربة الفساد، والاعتزاز بالهوية، والتصنيع، والتحدي الحضاري، وحيوية المجتمع. فمن يُصور لنا أن مجرد إجراء انتخابات سيحل كافة مشكلاتنا فهو شخص مخادع لنا، وكثير من الناس يُخدع وينزل ليضع صوته في صندوق.. كأنه صندوق سحري سيحل له كافة مشكلاته بمجرد وضع ورقة فيه !.

❊ ❊ ❊

وقد يكون الأمر في حقيقته مراوغة من النظام الدولي للسماح للإسلاميين بالوصول إلى السلطة لحين مواجهة التيارات المتشددة الجهادية، أو مواجهتها فكرياً عن طريق إمكانية الحل السلمي الديمقراطي، ثم ينقلبون على الجميع في النهاية، أو لجعل الإسلاميين يصلون إلى الحكم لتشويه الإسلام، وإثبات فشل رجاله في الحكم، وقطع آمال الجماهير عن قدرة الإسلام على حل مشكلاتها.

فالحديث عن الديمقراطية والتبشير بها في ظل النظم المستبدة – العسكرية والملكية – وفي ظل هيمنة النظام الدولي على بلادنا يعتبر تهريج، وعبث بعقول الأمة، وتعليق آمالها بالأوهام، وتبديد طاقاتها في العبث.. فالديمقراطية في الغرب هي نتاج "ثورة علمانية" خاضت صراعات طويلة، وأصبحت تعمل هناك في بيئة شبه تنافسية حقيقية، ومحاولة استيرادها إلينا دون قالبها وثورتها كمحاولة استنبات البذور في الهواء، هذا إذا سلّمنا بصحة مسلكها ابتداء ![1]

ولقد حصل العديد من الانقلابات العسكرية على التجارب الديمقراطية التي تأتي بالإسلاميين إلى الحكم، منعاً لحصول أي نوع من عملية الاستقلال السياسي بالقرار، أو محاولة إصلاح للفساد.. فالجيوش تحمي النظام العلماني المرتهن للخارج؛ لتظل تبعية بلادنا للنظام الدولي، فهو لا يهيمن فقط أمنياً، بل سياسياً، وثقافياً، واجتماعياً.. وأي تهديد لثوابته فإنه يضع الديمقراطية وصندوق

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: الديمقراطية والهوية.

الانتخابات تحت قدميه، وهذا ما تعجز كثير من فصائل الحركة الإسلامية عن إدراكه، أو حتى الاستفادة من تجارب السابقين.

وقد يغتر بعض الإسلامين بحسنات الديمقراطية في الغرب من: محاسبة الحكام، أو التداول السلمي للسلطة، أو الفصل بين السلطات.. ونسوا أن هذه الدول تملك ابتداءً نوعاً من السيادة والاستقلال لا تملكه بلادنا الواقعة تحت التبعية والاحتلال، كما يغفلون كذلك أن هذه الديمقراطيات الغربية كثيراً ما تخدع شعوبها، وتعمل على استمالتها لحظة التصويت الانتخابي فقط، وأنها تتملص من تلك الوعود بعد انتهاء "السيرك الديمقراطي"، وأنها أوقعت شعوبها في شبح الديون التي لا تنتهي، وأنها تستبد بشعوبها باسم الأمن القومي، وتغتال حريتهم بتوحش المرابين وأباطرة المال والبنوك، وإن المحاسبة الحقيقية، والشفافية الصادقة لا مجال لها في عالم السياسة والمصالح، ومن يُسرب أي حقائق فإنه عرضة للقتل والسجن، فليس الأمر بهذه الصورة الوردية.

* * *

كما يجب أن لا نغفل عن "مخرجات" الديمقراطية الليبرالية الغربية، فمن **الناحية الاقتصادية**[1] – على سبيل المثال – نجد أن أمريكا – وهي أقوى دولة في العالم – يصل دينها العام إلى (19) تريليون دولاراً، وهو يزداد بصورة لحظية، وهذا الدين يُمثل (109٪) من الناتج الإجمالي لأمريكا، فيذهب عرق الشعوب وكدها إلى يد حفنة قليلة من المرابين؛ يسترقون الأمم والشعوب، ويرتبط الاقتصاد العالمي بالدولار فتكون حالة الاسترقاق والعبودية عالمية !![2] ومن **الناحية السياسية**: يَحكم العالم مجموعة من الشركات والعوائل الكبرى تربطها علاقات ومصالح ومصاهرة، وليس كما يصورون لنا أنه "حكم الشعب والأغلبية" فنظرة سريعة على شبكات الإعلام، والشركات العملاقة، وشبكات التجسس، وملاك البنوك، ورؤساء الأحزاب – والقوى الداعمة لهم ومن يمول الحملات الانتخابية – يعرف أن شعار حكم الشعب مجرد وهم.. فهناك "احتكار" إعلامي واقتصادي

---

(1) هذا غير مخرجاتها على المستوى القيمي والأخلاقي، وما أنتجته من انحرافات تأكل من رصيد الإنسانية.

(2) راجع – إن شئت – موقع: http://www.nationaldebtclocks.org ، ويشير إلى أن الدين العالمي بلغ (62) تريليون دولاراً !! .

وسياسي - غير مسبوق - لفئة قليلة من الناس تمارس أفحش صور الجشع والطمع المتوحش، وهي التي تضع السياسات، وتصدر القوانين، وتوجه الأحزاب وتمولها، وتتلاعب بالانتخابات وبطريقة إجرائها.. وبسمعة المرشحين، وتُشكل الوعي العام والتحكم في الناس معنوياً ومادياً؛ وتَسترق الأمم والشعوب.

وقد يظن بعض البشر - بطغيانهم واستغنائهم - أنهم وصلوا الغاية، ونهاية التاريخ، وقمة الحضارة، لمجرد أنهم تفوقوا في عالم "الحجارة والحديد" وظنوا في ذلك منتهى التقدم، ولم يُدركوا أنهم جعلوا الإنسان في "أسفل سافلين" فكانوا بحق في منتهى "الرجعية والتخلّف" - وإن تقدموا في عالم المادة - ذلك لأنهم جعلوها فوق الإنسان، وسحقوا من أجلها إنسانية الإنسان، بل جعلوا الإنسان ذاته - وحتى أعضائه - سلعة تُباع وتشترى، فحضارة كهذه على الإنسانية أن تتبرأ منها، وتبحث عن بديل جديد يُحررها من هذا الاستعباد، ولن تجد ذلك إلا في نور الله.. الإسلام.

لذا يجب أن نعتز بديننا وهويتنا وحضارتنا - ولا نشعر بالهزيمة النفسية أو الانسحاق أمام دجل الغرب والشرق - ونؤمن عن يقين أن لدينا ما هو أفضل، وأن نحمل مشعل الحضارة الإنسانية الحقيقية، ولواء الحرية الصادقة، ونُقدم لأمتنا وللبشرية كلها، بديلاً عادلاً عن هذا الفساد والعدوان والربا والظلم والاحتكار، فالبشرية تتطلع إلى فكر جديد، وقيادة عاقلة تأخذها من حالة التخبط والتيه والجنون.

* * *

ومن جانب آخر: تم الخلط بين "الإيمان بالديمقراطية"، و"المشاركة السياسية".. فشتان شتان بين التبشير بالديمقراطية واعتقادها هي السبيل للإصلاح الحقيقي، وبين المشاركة السياسية التي تحاول التموضع داخل النظام لفهم مكوناته ومحدداته ونقط ضعفه وقوته، وكشف السُتُر المخفية منه.. لتكوين ثروة معلوماتية تساعد في التحرر منه عندما تحين الفرصة.. وتشارك سياسياً لتعرف ما يدور في الغرف المغلقة، وتُكوّن شبكة علاقات تسمح لها بهامش من الحركة بما يخدم قضيتها، ولا تطمع في الوصول إلى رأس الحكم، أو الحكومة، ولا حتى تنافس على ذلك.. بل هي تبقى في الظل، فهي لا

تطمع في أن تكون على رأس نظام علماني فاسد، بل تطمح إلى إعادة تكوين النظام الإسلامي كاملاً، بعد استكمال أدوات القوة اللازمة.

كما أدى هذا التوجه الديمقراطي والممارسة المخجلة والمشينة لبعض الإسلاميين إلى ارتفاع موجة "التكفير" على الجانب الآخر، والتركيز على عيوب الديمقراطية، وإغفال عيوب الاستبداد.

وأقول: إن كانت الديمقراطية تعني سيادة الشعب على الشرع، وتسمح للشعب بتحليل ما حرّم الله أو تحريم ما حلل الله.. فهذا الفعل لا شك ردة عن الشرع.

وإذا كانت الديمقراطية - في مفهوم البعض - تعني انتخاب ممثلي الشعب، والفصل بين السلطات، ومحاسبة الحكام.. دون نبذ الشرع؛ فهذا مبدأ إسلامي أصيل يسمى "الشورى" ولولا دخول الأمة المبكر لـ "الملك العضوض" لكانت نظم الشورى أرقى نظم الحكم في العالم.

فالشورى: تعني السيادة للشرع، والسلطة للأمة.. وهي قد تلتقي مع الديمقراطية في مواطن، وتختلف في مواطن أخرى، لكن المنهج الإسلامي عموماً يمضي في طريقه متفرداً سواء التقى أو اختلف مع غيره.

وفي ظل العلمانية الراسخة، وجهل الناس بحقيقة التصور الإسلامي، والتاريخ الاستبدادي للملك العضوض.. قد يختلط على الناس الأمر، فلا تدري ما هو موافق للشرع، وما هو ضده؛ فتنادي بالديمقراطية، وقد تنادي بها ولا تقصد مخالفة شرع الله أو معاكسة مراد الله جَلَّجَلَالُهُ.

ومن جانب ثانٍ: فإن العدو التاريخي للمسلمين حريص على إفشال النظم الديمقراطية أيضاً؛ حتى لا تعطي مساحة لنمو الظاهرة الإسلامية، وتحرص على وجود أنظمة استبدادية - ملكية أو عسكرية - تدين بالولاء المطلق للعدو، وتحافظ على مصالحه.

وبالنسبة للمسلمين: فالنظم الديمقراطية - إن صدقت - أفضل لهم من النظم الاستبدادية - وفي كلٍ شر - فالصحيح هو: "نظام الشورى المنبثق روحاً وتصوراً ونية وقصداً عن الإسلام".

ومن جانب ثالث: فلا يصح سياسياً كشف عوار الديمقراطية وزيفها، دون بيان خطر الاستبداد الذي يأكل في الأمة من قرون، فإن بعض الطغاة والطواغيت حريصون على دعوة "الديمقراطية كفر".. هكذا بإطلاق، دون تفصيل وبيان؛ ليستمروا في استبدادهم باسم الدين !

والحكم بما أنزل الله: يشمل التشريع، والقضاء، والتنفيذ، وكل ما له علاقة بتنظيم الحياة البشرية؛ فهو لا يقتصر على التشريع وحده، والمسلم حينما يتعرض لأحد هذه الجزئيات لإصلاحها، لا يُلزمه أحد بإصلاح النظام العلماني كله جملة وتفصيلاً مرة واحدة، فلا يُكلف الله نفساً إلا وسعها، وهو مُلزم بما يقدر عليه ويستطيعه، سواء أكان فرداً أو جماعة.. لكن المهم هو عدم إعطاء الشرعية الإسلامية لأوضاع علمانية أو التسليم لها، أو الظن أن الديمقراطية طريق للتمكين.

وغياب هذه التفصيلات جعلت البعض يُكفِّر كل من يترشح في الانتخابات، ويُكفِّر كل من يُصوت فيها، ويُكفِّر من لم يُكفر هؤلاء ! ودخلنا في دوامة خطيرة بين "أوهام الديمقراطية"، و"خرافات التكفير".[1]

❊ ❊ ❊

(1) راجع – إن شئت – مقالات: ثوابت الشورى، وثوابت الديمقراطية – خطورة الفكر الديمقراطي – التحولات في الحركة الإسلامية – الشورى وآلياتها ومعالم الدولة المسلمة .



قامت الحركة الإسلامية من أجل استئناف الحياة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية، فكانت غايتها الأولى هي: عودة الدولة والمجتمع والإنسان إلى الإسلام مرة ثانية، بعد عمليات الفصل بين الإسلام والدولة بفعل الهجمة الاستعمارية الصليبية الاستشراقية على الأمة الإسلامية.

ولا يمكن وصف أي حركة بـ "الإسلامية" إذ لم يكن هذا هو هدفها الأصيل الذي تسعى إليه، وقامت الحركة الإسلامية بروادها الأوائل يُبيّنون للناس معنى الإسلام، وحضارة الإسلام، وأنه جاء ليحكم حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ، مثلما جاء ليحكم حياتنا الروحية.

فحصل أن تَكوّن للحركة الإسلامية جماهير عريضة من المسلمين متعطشة للإسلام وشريعته.. لا سيما بعدما أفلست المشروعات القومية وغيرها.. إلا أن الحركة الإسلامية تحت وطئة التجارب الفاشلة كانت قد طلّقت مفهوم "امتلاك القوة" وألغت من قاموس حركتها قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال : 60] والقوة: مفهوم شامل يُفَصّله الواقع الحضاري لكل جيل، وظروفه.

فأصبحت الحركة الإسلامية تسير بجماهير عريضة تحمل الآمال نحو عدل الإسلام، ونظام الإسلام.. ولكنها فقيرة من كل قوة اللّهم إلا قوة وبريق ونور هذا الدين الذي يجعلها تصمد أمام المحن والابتلاءات، وأصبحت الحركة الإسلامية تحت معضلة "كيف الحل؟" بعد الاقتناع بأن الإسلام هو الحل.

فتم استدراجها إلى "لعبة الديمقراطية" بعد أن تحلّلت من مفهوم القوة اللازمة لنجاح أي دعوة حتى ولو كانت وضعية، فما بالنا إذا كانت دعوة سماوية ربانية ينظر إليها أهل الباطل في الغرب والشرق على أنها الخطر الذي يهدد وجوده ومصالحه.

فوجدت الحركة الإسلامية نفسها أمام المعادلة التالية:

- لا تفكير في امتلاك القوة بأدواتها المعاصرة.

- الداخل يستهدف محاربة الحركة الإسلامية، وإيجاد بديل عنها من المؤسسة الدينية الرسمية.

- الخارج يستهدف استئصال الحركة الإسلامية وترويضها.

- ضرورة تقديم حلول للجماهير المسلمة.

فأيقنت استحالة قيام الدولة الإسلامية بهذه الصورة، ووجدت في العمل البرلماني والصراع الحزبي وسيلة تظن فيها أنها قد تصل بها إلى الحكم يوماً ما.. وسمحت لها بعض الأنظمة بهامش تلعب فيه شريطة القبول بقواعد اللعبة الديمقراطية، وهي اللعب على مسرح الدولة العلمانية المدنية القومية الحديثة، فهذا ثابت لا يمكن تغييره !.

فظهرت شخصية البرلماني الإسلامي الذي يجلس في جانب المعارضة، ويدافع قدر المستطاع عن الهوية الإسلامية.. ثم بدأ سلم التنازلات يأخذ بعداً آخر بعد صعود التيارات الجهادية الداعية للقتال كوسيلة وحيدة للحل !

فعملت مراكز أبحاث المستشرقون الجدد على إعادة التكوين الفكري للحركة الإسلامية من خلال "**علمنة الإسلام**" وتحويل المسلم الذي يحاول إقامة الدين.. إلى مسلم لا يرى ضرورة كبرى في قيام دولة إسلامية، فهذه صورة مستحيلة – في نظره – لن يستطيعها أحد، أو على أقل تقدير لن يستطيعها الجيل الذي يعيشه.

وأصبح المسلم – الذي يُفترض أنه ما قام إلا من أجل إقامة حضارة الإسلام ودولته – يتحدث عن "الدولة المدنية" ويمقت "الدولة الدينية" على نفس تصور أوروبا عنها أثناء صراعها مع الكنيسة! وتمت عملية الاختراق الفكري باسم الواقعية، وطبيعة الدولة القطرية الحديثة، وهيمنة النظام الدولي... إلخ.[1]

ومن التحولات التي حصلت في بعض قطاعات الحركة الإسلامية مؤخراً (كما يُعبر عنها أصحابها):

(1) التحول من مصطلح "الإسلام السياسي" إلى مصطلح "الإسلام الديمقراطي" والسبب: أن توصيف "الإسلام السياسي" يخلط بين الديمقراطيون المسلمون المؤمنون بالعمل المدني السلمي وبالحرّيات، وبين مسلمين رافضين للديمقراطية وللحداثة والبعض منهم يتبنّى العنف أو يلجأ إليه.

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: التحولات في الحركة الإسلامية.

(2) أصبح هدف الحركة الإسلامية هو: مزجها بين القيم الإسلامية والأسس الديمقراطية، تماماً ومثلما فعلت "الأحزاب المسيحية الأوربية" من المواءمة بين القيم المسيحية والأسس الديمقراطية؛ أي: التموضع داخل النظام السياسي العلماني في صورة "حزب يميني محافظ وسطي" على أرضية التوافق بين الإسلام والديمقراطية والحداثة والمبادئ الإنسانية الكونية.

(3) الشراكة الصادقة مع الأحزاب العلمانية المعتدلة، وأسس الاجتماع هي: الوحدة الوطنية، والقطرية، واستقرار البلد، والتقدم الاقتصادي، والتوافق، وتجنب الاستقطاب الأيديولوجي، وعدم تبني موقف المعارضة "الآلية" والمشاركة في الحكم مع القوى السياسية الأخرى، وتجميع القوى الوطنية البنّاءة وتحقيق المصالحة عبر الحوار والإنصات والتنازلات المتبادلة والتوافقات.

(4) فصل العمل الدعوي عن العمل السياسي، وتحول الحركة إلى "حزب سياسي" والانتقال من (حركة شاملة) إلى (حزب سياسي متخصص).

(5) القراءة المعتدلة والمنفتحة للإسلام هي البديل الطبيعي عن تيارات العنف والإرهاب التي تسوغ نفسها باسم الإسلام، والديمقراطيون المسلمون هم البديل الطبيعي والصورة المعتدلة للإسلام، وأن المعركة ضد الإرهاب تمر بالضرورة عبر معركة تأويل الإسلام وتحريره من نزعات العنف والتطرف.

وهذا التحول يعني: إن العلمانية أكلت الحركة الإسلامية ! - وليس العكس - وهضمتها، ووضعتها تحت تصرفها، وموضعتها في نظامها خادمة لها، وإن هذه الصورة لا تعني "حركة إسلامية" إنما الحركة الإسلامية هي التي قامت من أجل إعلاء كلمة الله، وسيادة شرعه، والتحرر من المحتل في كل صوره، وجهاد الطغاة والطواغيت.

❊ ❊ ❊

فأصبح عمل الحركة الإسلامية - عند البعض - هو تحولها إلى "أحزاب يمينية محافظة" على غرار الأحزاب المسيحية الأوروبية، مع فصل الجانب الدعوي عن الجانب السياسي.. فتم نسف الفكرة الأصيلة التي قامت عليها الحركة الإسلامية، وأصبح البديل عنها هو: "العلمانية المعتدلة" أو "العلمانية المتدينة" التي لا تعادي شعائر الدين، وتسمح بالممارسة الفردية له، دونما تدخل هذا الدين في شأن الأمور العامة؛ فأصبح لدينا أحزاباً علمانية بخلفية ومرجعية إسلامية !! وأصبح لدينا من شباب الحركة الإسلامية من يدافع عن العلمانية من حيث لا يدري أو يدري !

وبهذا فقدنا الأصالة والفكرة التي قامت عليها الحركة، والانشغال بمعارك حزبية تافهة، واستنزاف الوقت والجهد، وتشويه السمعة خلال الألاعيب السياسية الحزبية، والانعزال عن قضايا الأمة؛ فحصل انقلاباً فكرياً.. ورحنا ننظر في كيفية التوافق مع العلمانية والتعايش معها أو بمعنى أصدق كيفية الاستسلام لها دون الشعور بالألم، ووخز الضمير، وخيانة التضحيات.

ورأينا كيف أن العلمانية لا تقبل حتى بهذا التعايش وهذه الندية، فهذا يناقض المبادئ العلمانية.. إنما هي تقبل بالإسلام أن يكون خادماً لأوضاعها فقط !.

* * *

وعندما تجهل الحركة الإسلامية - وأي حركة - حقيقة حجمها، وأهدافها، وأدوارها.. فإنها تتخبط في شتى الدروب وتُهلك نفسها في النهاية، فالحركة الإسلامية التي تريد فقط الموعظة الحسنة، أو التربية الفردية، أو الوقوف في برلمان الدولة لتقول كلمة الحق.. فهذه الحركة ستكون محدودة بأمرين.. **الأول:** عدم القدرة على مواجهة التيارات العلمانية المواجهة المُؤثرة. **وثانياً:** عجزها عن التأثير في الدولة والحكومة ومراكز القوى. وعليها الانتباه لأمر غاية في الخطورة، وهو: الامتناع عن إعطاء الناس الوعود بالقدرة على حل المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لأن مجال عملها محدود، ولا تملك التغيير وإصلاح النظام من الداخل.

أما الحركة الإسلامية التي تريد الحل الجذري للمشكلات، والتحرر من الهيمنة والاحتلال الدولي لبلادنا، والقضاء على الفساد من جذوره، وعلاج الاستبداد، وإصلاح النظام السياسي والاقتصادي، وعلاج المشكلات الاجتماعية العلاج الناجع، فهذه لا بد لها من "**ثورة**" شاملة كاملة تكون أعدت كافة مقوماتها وأدواتها؛ لتُعيد بناء دولة على هوية جديدة، وتعيد بناء مؤسسات الدولة على أساس هذه الهوية، ولها شريعتها وحضارتها ونموذجها الخاص.

* * *

وإن أصحاب التوجهات العلمانية يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام: **الأول**: المُعادي المحارب الناقم على الإسلام، وهذا يشمأز قلبه إذا ذُكر الله، وهذا الصنف يقع في خانة "أعداء الإسلام". **والثاني**: قسم من الشباب الصادق المتأثر بالفكر العلماني بحكم انتشاره، وقوته، وهذا الصنف محل "دعوة

وبيان". والثالث: قسم من عوام الناس "الأتباع" التي لا تميز شيئاً، ولا تستطيع التفرقة بين الأشياء، وهؤلاء محل "احتواء وتسامح".

وأما بخصوص مسألة "التوافق مع العلمانية":

(1) إن الفكر العلماني – بمختلف توجهاته – ليس في بلادنا فكراً مستقلاً وطنياً، بل هو فكر تابع للغرب، وإن رغب بعض المخلصين من العلمانيين في التوافق، فقد تأتي الأوامر للبعض – من الخارج – بقطع هذا التوافق، والوقوف بجانب الاستبداد العسكري، كما حصل من قبل.

(2) قد يكون هناك "تقاطع مصالح" موجود بالفعل، أو أهداف مشتركة.. ولكن تحقيق هذه المصالح والأهداف يجب أن يكون لصالح الإسلام والمسلمين، وفي الغالب – عند المضي في هذا الطريق – تقع الحركة الإسلامية ليس في دائرة "التأثير والفعل"، وإنما في دائرة "التَأثر ورد الفعل"، وتُستغل في تحقيق مصالح العلمانية، وليس العكس.. فيتأثر شباب الحركة الإسلامية بالعلمانية، مما يؤدي إلى ذوبان أفرادها، وتخلخل شخصيتهم، وتحلل رايتهم، وضياع طريقهم.

(3) إن الانفتاح السياسي للحركة الإسلامية، ومحاولة الخروج من العزلة السياسية، والإبقاء على وجودها العلني داخل المجتمع، والدفاع عن شرعيتها.. لا يعني "التوافق مع العلمانية" ولا يعني التزلف لها، بل إنما يعني وضوح المواقف، وبيان الصواب، وأسر القلوب بصحة المنطق، وبسلامة العقل، وبربانية الحركة.[1]

ومن خطورة التوافق مع العلمانية:

- التوافق يعمل داخل المنطقة الآمنة وتحت خط الفاعلية، لذا فهو فكر تحت السيطرة ولا خطورة كبيرة منه على الطغاة والفسدة.
- يُستغل هذا التوافق في عملية تفريغ غضب الشعوب، ووعودها بآمال كاذبة.
- يَستهلك هذا التوافق من عمر الأمة الكثير، وتدفع ضريبة باهظة بلا مقابل.

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: المبدأ العلماني.

- يُجهِّل هذا التوافق وعي الأمة بواقعها المعاصر، ويحجب رؤيته، وطريقة التعامل معه، ويُجهلها بمصيرها عند استمرارها تحت حكم الطاغوت والاحتلال.
- يُضيّع فرص التغيير على الأمة في اللحظات التي تصل فيها الأمة للكتلة الحرجة التي عندها تحدث الطفرات ويبدأ التغيير.
- يُغيّب هذا التوافق الأمة عن طبيعة المعركة، وحقيقة الصراع، واستحقاقات تحول الأمة من "الحالة الغثائية" إلى "الحالة الحية الفاعلة"؛ لتحقق الدور الذي من أجله أُخرجت للناس.

* * *

وإنها لمأساة خطيرة أن نكتب ذلك عن الحركة الإسلامية، ليتحول بعض رجالها إلى خُداماً طائعين للنظم العلمانية، وصغاراً أذلة لدجلها وكذبها، وإلى منافقين يُطبلون لحُكام العلمانية وسدنتها، وعندما يرى الشباب الثائر المخلص هذه المأساة.. فإنه يجنح إلى الغلو والتطرف بفعل هذا التفريط وهذه الميوعة والدجل، فيتم توظيفه هو الآخر لخلق مزيد من الأزمات والشقاق داخل الأمة الواحدة..

فطريقة الأعداء من قديم هي "استغلال الأخطاء"، فالصادق عندما يرى الخطأ فإنه يرغب في إصلاحه، والعدو عندما يرى الخطأ فإنه يريد أن يستغله لخلق مزيد من الأزمات، وإذ لم يدرك الصادق كيف يُصحح الأخطاء.. فإنه ينزلق ليعمل من خلال خطة العدو؛ فيهدم الخير القائم، ويتحول من سيئ إلى أسوأ !

جاء كل ذلك تحت ضغط الواقع، والاستسلام لقوة الخصم، ويبدو أنها "سنة اجتماعية" إذ لم تسعَ في امتلاك القوة لمواجهة الخصم والحفاظ على دعوتك.. استسلمت لقوة الخصم، وتكيفت مع شروطه – حتى ولو كان الحق معك – وتخففت شيئاً فشيء من قناعاتك ومبادئك؛ ثم في مرحلة لاحقة "التبرير" و"الشرعنة" للفعل باسم الإسلام ذاته !.

وإن هذا التوجه العلماني إنما هو يجرد الحركة الإسلامية من قوتها الحقيقية، ويتركها مجرد يافطة، وتاريخ من التضحيات أنتج "حزباً محافظاً" يلعب على مسرح الدولة العلمانية، ويغسل وسخها وقت الحاجة !.[1]

* * *

(1) راجع – إن شئت – : خطورة الفكر العلماني على بعث الإسلام من جديد، الإسلام.. العلمانية؛ ونمط الحياة ، الإسلام.. ومشكلات العلمانية، فتنة العلمانية، خطورة الفكر المادي على بعث الإسلام من جديد.



الغُلو فِي التَكفِير

تقع بعض طوائف الحركة الإسلامية في الغلو في تكفير المسلمين، ومن أوسع أبواب الغلو هو: التكفير بـ (المآل ولازم الأقوال والفعل المحتمل) أي إلزام الآخر بما لم يعتقده، وبما لم يقصده، ولا يريده.. ومن ثم إجراء حكم الكفر على شخصه، وقد يأخذ الغلو منحى أشد، فيستحل دمه وماله؛ بناء على حكمه الشخصي ورؤيته !

وهذا منزلق جد خطير، يجب الحذر منه أشد الحذر، فالتكفير حكم شرعي من أخطر الأحكام، وقد حذر رسول الله ﷺ من اتهام المسلم به جزافاً.. فقال: "**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ**"[1] والأسلم هو الحيطة والحذر من ذلك، والخطأ في العفو أسلم من الخطأ في العقوبة: "**فَإِنَّ الْإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ**"[2] وهذا الكلام ينطبق على إجراء أحكام التكفير بين عموم المسلمين..

أما حالات (**الكفر البواح** أو **المعصية البواح**) التي عندنا فيها من الله برهان قاطع، لا لبس فيها، ولا غموض، ولا شك، ولا تأويل.. فإن الأمة في مجموعها تحارب "**مظاهر الكفر**" بعيداً عن الانشغال بإجراء الأحكام على الأعيان، فتُعيد الأمر إلى من يقود الأمة بكتاب الله ويُقيمه.

ولكن قد تأخذ الحمية والغلو البعض فيتوسع في مسألة التكفير.. ويجري أحكام التكفير بالعموم وعلى التعيين، وهذا خطره كبير، بل قد تتوسع المسألة من التكفير بالمآل إلى "من لم يُكفِّر من كَفّره

---

(1) [صحيح مسلم/63]

(2) [جامع الترمذي/ 1424]

المُكَفر أو شك في كفره فهو مثله"! وهكذا في تسلسل من التكفير، وقد يتوسع أكثر من ذلك فيستحل دماء المسلمين وأموالهم بناءً على هوس تكفيري!

وقد يقع الإنسان في الغلو في التكفير بسبب:

(1) رد فعل على التميع في قضايا الدين، وانتشار الإرجاء، والفساد الأخلاقي، والطعن في الدين من قِبل العلمانيين وأهل الإلحاد.

(2) حمية وغضبة تجاه شخص ما.

(3) محدودية العلم، وسطحية العقل.

(4) التعجل في فهم قضايا الإيمان والكفر، والأقيسة الفاسدة، وعدم تحقيق مناطات الأحكام، وعدم رؤية الواقع واختلافاته.. وانزال الأحكام في غير مكانها، أو انزالها بغير دقة أو بتوسع.

(5) الصراع السياسي والمذهبي بين طوائف ما.

(6) هوى وشهوة التكفير، والكِبْر.

(7) الولع والهوس بإجراء الأحكام.

(8) الغلو في دراسة منهج "الإدانة والحكم" وغياب منهج "التحليل والتشخيص والعلاج".

(9) تقييم العالَم المحيط من خلال فكرة واحدة هي "تفصيلات قضايا الكفر"، واعتبار كل مخالف كافر.

(10) عدم التفرقة بين فعل الكفر "الكفر المطلق"، وبين حكم الكفر "كفر المُعين".

(11) عدم التفرقة بين كفر الطائفة، وكفر أعيانها فرداً فرداً.

(12) عدم التفرقة بين حكم الكفر، وبين تنفيذ الحكم باستحلال دمه.

(13) التعصب الفكري، والتربية الأحادية المعلولة.

(14) خلل نفسي.. وحدة وغلظة وقسوة الطباع.

(15) البحث عن صورة التطابق النفسي والفكري الحادة، والتي لا تقبل أي اختلاف.

(16) اعتقاد الحق المطلق تجاه حكم فقهي، أو رأي ما.

(17) اتباع المتشابه من القول، وجعل الاستثناءات هي أصل الأحكام.

(18) الخروج من القواعد الأصولية العامة.. والغرق في التفصيلات، والاحتمالات، والبحث عن ما يؤيد قناعة سابقة، وفكرة مسيطرة.

(19) فهم أقوال العلماء فهماً مجتزئاً وخاطئاً.

(20) العجز عن التحقيق العلمي والمنهجي الموسوعي لمثل هذه القضايا.

* * *

الخلط بين الفعل والفاعل

ونقصد **بالفعل**: ارتكاب خطأ ما أو اعتناق فكرة ما (قد تكون بدعة أو كفراً أو باطلاً... إلخ) **والفاعل**: هو الشخص الذي ارتكب هذا الفعل، وتؤدي حالة الهوس بالإدانة والحكم إلى الخلط بين الفعل والفاعل، فيساوي بينهم في الحكم، فيُطلق حكم الفعل على الفاعل؛ دون بيان لحال الفاعل كاملاً، ودون معرفة بواعثه ودوافعه وتبريراته.. كأنه يتعجل إخراجه من السنة إلى البدعة، ويستبشر فرحاً بإخراجه من الإيمان إلى الكفر ! خصوصاً مع عموم المسلمين أو الجهلاء منهم.[1]

ومسألة: "الفعل كفر.. والفاعل ليس بكافر بعينه" هذه المسألة ليست بإطلاق، إنما مقيدة بعوارض تعترض أهلية المكلف (والمسؤول عن أفعاله ومُحاسب عليها محاسبة كاملة).. ومن هذه العوارض الداخلة على أهلية المُكلف: الجهل، الإكراه، الخطأ، النسيان، السفه، التأويل...إلخ، أو ظروف خاصة: كحديث العهد بالإسلام، أو الناشئ بغير دار الإسلام، أو المقلد عن حسن قصد.. والتزم ما يعلم من الإسلام، والتبس عليه أمر، **والمطلوب هو**: البلاغ والبيان، ورفع الجهل، وإقامة الحجة وإفهامها، وإزالة شبهاتها وعوارضها، والدعوة إلى صحيح الدين..

---

(1) وكفر الفاعل عيناً يكون غالباً في الطواغيت، وفي دعاة اللا دينية والإلحاد والإباحية؛ ومن يتبجح بالكفر البواح، بلا جهل ولا تأويل، ولا يُشترط في تكفيرهم التكذيب القلبي أو الاستحلال.. فأحوال القلوب لا يتحاكم إليها المسلم، فلا سبيل إلى معرفتها.

فإن أصر على فعل الكفر بعدها، فأصبح جاحداً معانداً محارباً للدين ولكتاب الله؛ صار كافراً.. فضابط هذه المسألة: "**المعاداة لدين الله بعد بيان الهدى؛ واتباع سبيل المحادين لله ورسوله ﷺ**".

وهذا يغلق الباب أمام الغلو في التفريط "الإرجاء"؛ والشذوذ في هذه القاعدة يؤدي إلى اشتراط "الاستحلال القلبي" للتكفير وهذا باطل.

* * *

ويقع الغلو – كما هي العادة – على كلا الطرفين طرف يغلو في الحكم بالإدانة للفاعل، وطرف يغلو في الحكم ببراءة الفعل والشرعنة له !.

فأما الطرف الذي يغلو في الحكم بالإدانة فهو يجعل من مجرد ارتكاب بدعة أو الوقوع في فعل كفر أمراً مخرجاً من الملة، يَكفر صاحبه في الحال، بل ويصل الأمر بالبعض إلى استحلال الدماء والأموال، فيرمي المسلمين بالشرك والردة ! وهذا أمر قد نهى عنه رسول الله ﷺ بشدة فقال: "**إِنَّ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى رُئِيَتْ بَهْجَتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِدْئًا لِلإِسْلامِ، غَيَّرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهِ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**"، **قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالشِّرْكِ، الْمَرْمِيُّ أَمِ الرَّامِي؟ قَالَ:** "**بَلِ الرَّامِي**"[1]

وأما الطرف الذي يغلو في الحكم بالبراءة؛ فهو يُهون من أمر البدعة، ويُسهل فعل الكفر كأنه شيء بسيط، ويُجهد نفسه في الشرعنة للبدع وأفعال الكفر، وقد يكون هذا رد فعل على من يُغالي في التكفير، فلا يستقيم أمر الأمة، ولا أمر هذا الدين لا بهؤلاء ولا بهؤلاء.

فالصحيح – فيما أرى – هو: بيان البدعة وأفعال الكفر كما جاءت به النصوص الشرعية بلا تحايل أو تحريف للكلِم عن مواضعه، حتى يظل ميزان الحق قائماً، والباطل معلوماً، وسبُل المجرمين واضحة.

(1) [صحيح ابن حبان / 81].

وأما الانشغال بالحكم على الأشخاص بالردة فلا حاجة لنا به.. ولا حاجة لنا بالاختلاف عليه، ذلك لأننا لا نقيم لهم محكمة - بل نواجه الظلم والبغي والطغيان في عمومه بكل وسيلة ممكنة - ولأننا ابتداء نستهدف إصلاح هذه الأمة كلها، وإقامة هذا الدين كله، وميلاد مجتمع لا يسمح بانحراف المنحرف، ونظام راشد لا يُتنفس فيه الفساد ولا المفسدين، فهذه هي الغاية الكبرى لنا.[1]

* * *

(1) راجع - إن شئت - مقالات: الغلو في التكفير، العذر بالجهل، مجالات التكفير .



ليس المقصود بـ "التكفير السياسي" حالات الغلو في رمي المسلمين بالشرك والردة، أو الغلو في التكفير، أو الهوس بإطلاق الأحكام على الناس..

التكفير السياسي: هو نوع من التلاعب بالفتاوى لتكفير الخصوم السياسيين، أو وصمهم بالبدعة والضلالة.

وتاريخ التكفير السياسي قديم، فهو منذ عهد الدولة الأموية.. ولعل أول حالات التكفير السياسي وقعت للتابعي الجليل والعابد الزاهد "حُجر بن عدي" فقد اتهمه زياد بن أبيه بأنه كفر كفرة صلعاء ! واتُهم بأنه من السبئية الترابية[1]..

وكان حجراً يُنكر على ولاة بني أمية ظلمهم، وسب الإمام علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على المنابر، فلما ضاقوا به ذرعاً تم تكفيره، وقتله صبراً، رغم شهادة القاضي شريح له، وشفاعة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.. التي أرسلت رسولها لطلب الصفح عنه، فوجدهم قد قتلوه وأصحابه ![2]

وأُتهم قوم - بعد ذلك - بالزندقة ظلماً وعدواناً نتيجة الإنكار أو المقاومة السياسية، فالسلطة السياسية كانت تستخدم سلاح "التكفير السياسي" قديماً لتصفية خصومها أو اغتيالهم معنوياً.

---

(1) السبئية: نسبة إلى اليهودي ابن سبأ، والترابية: نسبة إلى الإمام عليّ كرّم الله وجهه ورضي عنه، وهو تعريض بأصحاب عليّ ونسبتهم إلى اليهودي، وسخرية منهم.

(2) راجع - إن شئت - القصة بتمامها في: أنساب الأشراف للبلاذري، تاريخ الطبري، الأغاني للأصفهاني.

وحديثاً فعّلت الحركة الإسلامية هذا السلاح من جديد، وكذلك فعّله علماء السلطان وكهنته، فأما هؤلاء فإنهم يجعلون مِن كل مُنْكر عليهم إفسادهم وبغيهم وسرقتهم فهو من الخوارج "كلاب النار" **وأما الحركة الإسلامية**: فإن بعضاً منها جعل التكفير السياسي سلاحاً لهم، بعدما فقدوا كل سلاح..

وجعلوا "الولاء والبراء" على أنفسهم وعلى جماعتهم، فإن كان هناك شخص ما مؤيد لهم – وإن كان علمانياً منحرفاً – فهو من أولياء الله الصالحين، وإن انقلب عليهم هذا الشخص تحول من فوره إلى خائن مرتد، واستخرجوا في كلتا الحالتين الفتاوى المناسبة، والأدلة على صحة موقفهم !

وهذا لا شك تلاعب بالدين وبالفتاوى، وبموازين الحق والعدل، وأمر يجلب سخط الله وغضبه، فهذا استهزاء بالدين، واستهزاء بالأحكام الشرعية.. التي ما قام المسلمون إلا من أجل إعلائها، وجعل كلمة الله هي العليا، فإذا بهم يجعلون منها لعبة في أيديهم حسب الأهواء، ويرمون بالتكفير من شاؤوا، نكاية في عدوهم، وسخطاً عليه، وليس من أجل حق أو عدل أو شهادة لله، أو قيام بالقسط.

فالتكفير السياسي يُفسد الدعوة، ويُفقد أصحابه المصداقية، وحتماً سيجعلهم أمام متناقضات شتى، وموازين مختلة؛ ستكون من أوضح صور الصد عن سبيل الله.

وسيدخل التكفير السياسي بأبناء الحركة الإسلامية إلى ساحة الجدال والخصام في قضية الحكم على الأشخاص – الأعيان – بدلاً عن إيجاد الحلول المناسبة لواقعهم ومشكلاتهم.

❋ ❋ ❋

والتكفير السياسي هو أحد أنواع الفتاوى السياسية، والمتتبع لتاريخ الفتاوى السياسية يجدها:

- تدور مع الأهواء حيث دارت.
- التناقض فيما بينها.
- التلاعب بالأحكام الشرعية.
- إظهار بعض الكتاب، وإخفاء البعض.

فالمفترض في الفتوى والرأي الديني أن يكون خالصاً تاماً لوجه الله الكريم، وابتغاء رضوانه.. من أجل صلاح الأمة المسلمة، وهدايتها ونصرتها، وليس من أجل مصالح وخصومات شخصية.

وإن بعض علماء الحركة الإسلامية لا يقولون الحق لوجه الله الكريم ! هم أحياناً يضعون بين يدي الطغاة والحكام جميع الأقوال: يجوز ولا يجوز، والحاكم يختار ويُظهر ما يريد من الفتاوى التي تتناسب مع الظرف السياسي.

فأصبح البعض – إلا من رحم ربي – من أصحاب "المطبخ الشرعي" الذي يُفصّل للحاكم ما يريد من "مشروعية" لعمله ولنظامه.. تماماً كمثل "المطبخ السياسي" الذي يُهندس للحاكم قرارته وطريقة تنفيذها وإمرارها على المجتمع.

وللفتوى دور خطير جداً – لا سيما عندما تصدر عن أصحاب الألقاب الرنانة، والشهرة الواسعة، والهيئات الكبرى – فهي إما أن تأخذ الأمة في خدر عميق لا تستفيق منه، وإما تستيقظها، وترشدها إلى صراط الله المستقيم.. وما نال العلماء قيمة عند الحكومات الباغية، وما اهتم بهم الطغاة إلا من أجل أن الأمة مازالت عاطفتها الدينية تنبض بدرجات متفاوتة، وأن الفتوى والرأي الديني يؤثر فيها، ويحرك اختياراتها، لذا وجد الطغاة والظلمة والمستبدون أن "المطبخ الشرعي" لا يقل أهمية عن "المطبخ السياسي" بل ربما يتفوق عليه كلما ازدادت عاطفة الأمة الدينية، واقترابها من دينها.

وعندما يتورط بعض علماء الحركة الإسلامية في العمل في "المطبخ الشرعي" للأنظمة الباغية الفاسدة، فقد فقدوا مصداقيتهم، وصاروا عقبة في طريق الحركة نفسها !

* * *



نحن لا نتحرك في الفراغ، بل في واقع مزدحم بالأعداء، وفي واقع تحكمه القوة، وفي صراع بين الحضارات لمن تكون له السيادة، وكل فريق يستخدم كل أدواته لتحقيق القوة والسلطة اللازمة لتفوقه.

غياب الحنكة السياسية، والخبرة بها.. تجعلنا نقع بسهولة في أفخاخ العدو، وتجعلنا ندخل حقول ألغامه لنقتل أنفسنا بأيدينا دون أن نشعر، وتجعلنا - في أحيان - نعمل من خلال خطة العدو، فنتآمر على أنفسنا !.

والحنكة السياسية ليست هي الفقه السياسي أو تحصيل العلوم السياسية وخبراتها وأدواتها.. وإنما تعني "الوصول إلى الحقيقة الخفية" للواقع السياسي الذي نتعامل معه.

فما يظهر لنا هو جزء يسير من الحقيقة، فالنظم السياسية تعيش خلف سُتر كثيفة، والوصول إلى نقاط الضعف والقوة فيها، ومعرفة القوى المالية والإدارية المتحكمة فيها، وشبكة العلاقات والارتباطات الداخلية والخارجية الخاصة بها، وآليات عمل هذه الأنظمة، وكيفية التعامل معها.. تحتاج إلى حنكة سياسية أو بمعنى آخر نوع من "المكر السياسي" و"الكيد للعدو" باختراقه؛ لمعرفة الحقائق، وبيانها للأمة في اللحظة والكيفية المناسبة، وللاستفادة منها في كيفية التخلص من أعداء الدين والأمة.

وتعني الحنكة السياسية: كيفية إدارة القوى الناعمة بطريقة آمنة، واستخدام الهوامش المتاحة في ترسيخ الوجود الإسلامي، والإدارة المبدعة للموارد التي لدينا. ولكن للأسف نحن لدينا رؤية أحادية حول تعريف القوة بأنها القوة الخشنة فقط، وأما القوى الناعمة - ومنها على سبيل المثال:

مراكز الأبحاث، والقنوات الإعلامية المحترفة، والاستثمار في التقنية وأدواتها[1]، واستثمار القواعد الشعبية العريضة، وتشبع المجتمع بالأفكار الصحيحة، والاختراق السياسي للدولة... وغيرها الكثير - لا نفكر في كيفية تحصيلها وإدارتها وتوظيفها التوظيف الأمثل والمناسب لواقعنا.

وتعني الحنكة السياسية: رسم المسارات العملية دون ارتجال، ودون اصطدام.. حسب الإمكانات والقدرات المتاحة، وتعني عدم تعجل الصدام، وعدم استعداء وتجييش الأعداء ضدنا، وعدم إعطاء المسوغات للعدو، وعدم الاستعلان بالنوايا والكشف عن الخطط.. بل حالة من المرونة التي تتطلبها الحالة الواقعية.

وتعني الحنكة السياسية: فهم المعادلات السياسية بدقة، وفهم المواءمات والتوازنات السياسية التي تتقلب كل يوم، وتتغير فواعلها حسب المصالح المتوافقة والمتناقضة لأصحاب السلطة. وتعني عدم الانجرار إلى معارك سياسية حزبية تافهة، أو تأليب الخصوم وقت الانتخابات في معارك فارغة... إلخ، أو الانخداع في المكتسبات الهشة التي لا يمكن حمايتها، أو الانخداع كذلك في الجماهير الملتفة بلا عقيدة راسخة، وبلا قضية جامعة حيث تنفض عنك عند أول مواجهة حقيقية.

وتعني الحنكة السياسية: تحمل المسؤولية كاملة بكل شجاعة، وعدم الاتكال على الفكر الجبري، أو الظن بأن الله جَلَّجَلَالُهُ سيحابي أحداً في سُننه، الأمر الذي يرفع من حساسية التخطيط، ومن دقة إتباع السنن بأسلوب علمي يكافئ قوة العدو.

غياب الحنكة السياسية تجعلنا هدفاً سهلاً متاحاً للعدو، إن شاء سحقه، وإن شاء استخدمه، وإن شاء تلاعب به، وتجعلنا نمضي بلا خطة عمل..

وعدم وجود خطة عمل على أساس العقيدة يؤدي إلى:

- العمل من خلال خطة العدو.
- استفراغ الوسع والطاقات في لا شيء.

(1) كأدوات الهجوم السيبري، والأسلحة الإلكترونية، والتجسس الإلكتروني.

- دخول الأمة في التيه البعيد، فلا حل جزئي أو شامل للمشكلات.
- ضياع العقيدة والفكر والهوية واضطرابها؛ وانهيار الوعي.
- اختلاط الأفكار والقيم والتصورات والموازين، وضياع الوحدة الإيمانية المميزة للفكر.
- عدم الشعور بالتميز والتفرّد والريادة.
- الشعور المستمر بالضعف والتبعية والاتكالية.
- الانتقال من سيئ إلى أسوأ، وضياع الغاية والهدف.
- الفشل في خلق واقع جديد يحتوي المشكلات والأزمات.
- الارتجالية والعفوية تجاه الأزمات الكبرى.
- الاستهتار بالأرواح، وعدم الاستفادة من دروس التاريخ.
- نمو عقلية المتواكل، الذي يلقي اللوم على عدوه.
- الانتحار الذاتي، وتدمير الموارد والثروات.
- ضياع الفرص، واللحظات الفارقة.
- الفشل في الانتصار للعقيدة، والقعود عن حمل رسالة الإسلام.

فأي حركة إسلامية تريد تغيير هذا الواقع عليها أن تدرسه بعناية، واستبانة تامة بسبل المجرمين.. والحذر منها، وترتيب عمل الحركة بطريقة لا تسمح بالاستخفاف والتلاعب بها، وأن تضع الحركة خطتها وتنفذها بحنكة وحكمة وصبر ووعي وإخلاص.. والله جَلَّجَلَالُهُ لا يُضيع أجر المحسنين. [1]

* * *

(1) راجع – إن شئت – مقال: تجربة.



أبرز اتجاهين في الحركة الإسلامية تجاه الأنظمة السياسية الطاغية الفاسدة في بلادنا.. **الأول**: المُشرعن لهم. **الثاني**: المراوغ والمشارك لهم.

الاتجاه الأول:

يؤدي وظيفة جليلة للطغاة والطواغيت.. إنه بكل بساطة يعتبرهم ولاة أمور شرعيين! وهم أئمة المسلمين، مهما فعلوا فلا يجوز الخروج عليهم، ومن يخرج عليهم فهو من كلاب النار حلال الدم ! ويُسقطوا من اعتباراتهم وقوع الأمة في "الملك الجبري والطواغيت" وخضوعها تحت سلطة العدو المباشرة ! ولا يريد الطغاة أكثر من هذا القول تخديراً وتخذيلاً، ولأن هذا القول لا يأتي من هيئة دينية رسمية تتبع الدولة، بل من الحركة الإسلامية ذاتها ! فيكون له من المصداقية لدى الشباب المُستغفل.

وهذا الاتجاه في الغالب لا يملك أي رؤية سياسية أو فقهية تجاه الأحداث، ويغلب عليه طابع التدين الفردي دون أن يكون له أدنى مشاركة في قضايا الأمة المصيرية.. اللّهم إلا إثارة بعض المشكلات التافهة في أحلك لحظات الأمة؛ لصرف الناس على الانتباه لقضاياهم.

ولهذا الاتجاه أشكالاً عدة: **فمنها** ما هو شديد الوقاحة، والتبعية للطغاة. **ومنها** ما هو أكثر احتراماً ويبتعد عن هذه التصريحات الفجة، إلا أن سلوكه العملي والفكري والتربوي يصب في مصلحة الطغاة والطواغيت؛ لأنه يشغل الشباب بقضايا تافهة بعيدة عن مشروع التغيير الحقيقي الذي تتطلع إليه الأمة. **ومنها** ما ينزلق إلى هاوية التكفير كحل لمشكلات الأمة !.

ولا تكمن خطورة هذا الاتجاه في مجرد الشرعنة للطغاة، بل إنهم يتحولون إلى سلاح قاتل لكل محاولة تريد فيها الأمة الخروج من محنتها، وإزالة هؤلاء المجرمون، فيُخذلون الناس عن أي حركة،

ويطلقون الفتاوى هنا وهناك من أجل حماية الطغاة، ومنهم من هو على الحقيقة مخلص، ولكنه شديد السذاجة، والجهالة، ولا يعرف شيئاً عن واقعه، فيعيش خارج الزمان والمكان، وعندما يُفتي مثل هذا.. فإنه يسبب أضراراً كثيرة على فكر الأمة وحركتها.

وهو ليس اتجاهاً تربوياً كما يظن البعض، فالاتجاه التربوي الحقيقي هو الذي يُخرّج رجالاً وقادة تحمل هموم هذه الأمة، وتقودها إلى الحرية والخلاص من هذا الاستبداد والتيه، وتعرف كيف تقيم شريعة ربها، والتضحيات اللازمة في هذا الطريق، وما يستلزم ذلك من وعي سياسي، واستراتيجي، وتخطيطي.. هؤلاء أبعد ما يكونون عنه.[1]

* * *

ومن خطورة هذا الفكر بالعموم:

- جنوحه الشديد نحو الاستبداد متأثراً بمرحلة "الملك العضوض".
- اعتقاده أنه صاحب الحق المطلق.
- التعصب المذهبي.
- إنكار الصغيرة، وابتلاع الكبيرة.
- إلغاءه لوجود الأمة وقيمتها وشورها وطاقاتها.
- اعتقاده أنه وحده الطائفة المنصورة، والجزم القاطع بذلك !.
- تفسير فكره على أنه هو الإسلام، وليس للإسلام مدلولٌ سواه.
- عبادة الظالمين، أو تكفير المسلمين.
- السطحية في فهم القضايا السياسية والاجتماعية والدولية.
- الاهتمام بالشكليات على حساب المضمون، والقسوة والتشدد في القضايا البسيطة، والتفريط والإهمال في القضايا الكبرى.

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: الدجل باسم الدين.

- التسرع والاستهانة برمي المخالف بالبدعة والضلال، وبالشرك والردة عند بعضهم.
- تحويل بعض القضايا الفقهية إلى قضايا عقيدة وكفر وإيمان، ورمي المخالف فيها بالكفر والبدعة.
- تضخيم بعض القضايا الفرعية والصغيرة، والتعصب لها على حساب قضايا الأمة المصيرية.
- التحزب والتعصب لبعض الأراء والأقوال.. وجعلها أصلاً من أصول الدين.
- التجهيل السياسي باسم الدين، وخلق بيئة الاستبداد المطلق.
- التناقض والازدواجية في الأراء والأحكام، والتلاعب بها حسب قوة السلطان السياسي، وحيث دار.
- العاطفة المفرطة، والحساسية الشديدة تجاه أي محاولة نقد أو تقويم أو تصحيح أو إبداء الرأي.
- اختزال الدين وقضاياه الكلية في بعض الأحكام الفقهية، دون الترحيب ببيان غيرها من الأحكام الفقهية الصادرة على المدارس الأخرى، وعدم السماحة في ذلك.
- سهولة استخدام الدين لتمرير المواقف السياسية.. وإن كانت كارثية.
- النظر في الحكم على الأمور - عند بعضهم - من خلال منظور واحد، وأحادي: مرتد أو مسلم على المنهج !.
- عدم القدرة على الاندماج داخل حركات الإحياء الإسلامي، لاعتقاد تميزهم وضرورة علوهم على المسلمين بحجة "نقاء المنهج" و"صفاء العقيدة"، مما يُحدث كثيراً من التحزب والتفرق على مستوى العاملين جميعاً.
- عدم قبول النصح من غيرهم، وعدم الاستفادة من دروس التاريخ؛ لاعتقاد أنهم الأفضل، ومحاولة هدم الشخصية المعنوية للمخالف لهم، فإذا عجزوا.. تصيدوا له الأخطاء اللغوية، ومن ثم اتهامه بعجزه عن فهم العربية !.

- اختزال الشخصية المسلمة وكبتها، في مقابل تضخيم وتقديس السلطان الحاكم، واعتقاد أن مجرد نصح السلطان علناً – فضلاً عن نقده – كبيرة وحُرمة تستوجب الغضب والإنكار والتحذير.
- إهمال الفكر الإسلامي، وعدم مواجهة النوازل المعاصرة بصورة لائقة.
- إهمال تدبر القرآن الكريم، والتعلق بأحاديث واهية أو ضعيفة أو منكرة أو متناقضة أو شاذة.. وإشغال الناس بالحديث عنها، وجعلها من أصول الدين وكلياته !.
- تضخيم دعوى "إتباع الدليل" ثم تناول الأدلة بصورة سطحية أو جزئية أو انتقائية، والتنطع والتعسف في التعاطي معها، والتعامل الحَرفي مع النصوص.

* * *

الاتجاه الثاني:

وهو اتجاه يُظهر الكثير من التناقض والتيه في فكره وحركته؛ إنه يجمع الأتباع باسم الدين والشرع والأمة، ويتحرك سياسياً بما لا يهدد مصالح الطغاة والطواغيت بعد تفاهمات الغرف المغلقة ! وهو دائم التخبط في التصريحات، ودائم التناقض في الأقوال، فهو من جانب يحاول أن يُلبي تطلعات الأتباع في مواجهة الظلم والفساد والطغيان، ومن جانب آخر يحترم التفاهمات السياسية مع الطغاة، فيتأرجح بين هؤلاء وهؤلاء !.

فهو مهادن للنظام، وفي نفس الوقت مواجه له ! بين إدعاء القدرة والقوة، وبين الاستكانة والضعف.

وهو لا يعرف – حتى الآن – ماذا يريد؟ وكيف يحقق ما يريد؟!

ويعتمد على الحشد الجماهيري، وتثوير العاطفة لحد معين لا يجاوز حدود الاتفاقات والتفاهمات، فهو يرفع الناس لأقصى حالة تثوير ثم التبريد المفاجئ، فيتجمد وعي الناس، ويغرقون في التيه، ويعجز العقل عن تحليل هذه الظواهر العجيبة !.

ومشكلة هذا الاتجاه أنه يعطي الشرعية للطغاة والطواغيت، ومن ثم فدوره هو "المشاكسة السياسية" من داخل النظام، وهو اتجاه يعمل على الإصلاح من داخل النظام الذي بنيته الأساسية هي "الفساد"، ولبناته هي "الظلم"، وهواؤه هو "النتن"، ولا يفكر هذا الاتجاه في "الاختراق" السياسي للنظام، ولا في تحصيل القوة اللازمة لمن يريد تغيير هذه الأنظمة العتيقة في الإجرام والإفساد والعمالة للمحتل الأجنبي.

فهناك فرق كبير بين التفكير في الإصلاح من داخل نظام قائم على الفساد والإجرام، مع اعتقاد شرعيته.. وبين اختراق هذا النظام، وعدم اعتقاد شرعيته، والعمل على فهم بنيته الداخلية، وكيفية القضاء الجذري على الفساد.

ولقد احترفت الأنظمة التعامل مع هذا الاتجاه، وإحسان توظيفه بما يخدم مصالحهم.. فإن شعروا باختناق هذا الاتجاه من التضيق عليه، أعطوه مساحة للتنفس، وإن أحسوا بقوة انتشاره، ضيقوا عليه هذه المساحة، حتى يبقى داخل الدائرة المسموح بها.

ويتحول هذا الاتجاه – في أحيان كثيرة – إلى "**محرقة**" للشباب والطاقات، فهو اتجاه يريد التغيير، ولا يريد امتلاك أدوات التغيير**!** هو يريد تحرير الأمة.. ولا يريد تحصيل القوى اللازمة لذلك**!** هو يريد كل شيء وعكسه !.

هذا الفكر المضطرب والمتناقض لا يستطيع أن يصمد لحظة واحدة أمام اللحظات الفارقة في عمر الأمة، بل يكون أشد تخبطاً واضطراباً، بل يزيد من كوارث الأمة، ويُحبط أي فرص تلوح لها.

فـ "التناقض" يُفسد عمل العقل عن معرفة الصواب من الخطأ، و"التيه" يحرق الطاقات في البحث عن لا شيء.

❊ ❊ ❊

ومن خطورة هذا الفكر بالعموم:

- التناقض بين الخطاب الدعوي، والخطاب السياسي، والخاص والعام.
- الاستعلاء على الآخر من خارجهم، وإن كان محباً لهم.

- جعل مصلحة الدعوة.. هي مصلحة الجماعة.
- انقلاب الوسائل إلى غايات، وضياع الأهداف الرئيسية.
- ميزان القاعدة الشعبية والشهرة هو ميزان الحكم على الآخر.
- خذلان الفئات المخلصة الغير منتسبة لتيارات معينة،سواء إسلامية أو وطنية.
- العمل والانضواء تحت مشاريع الهيمنة العالمية.
- الحزبية، واختزال العمل السياسي في الانتخابات ومقاعد البرلمان.
- المظلومية والرهبانية عند المواجهة.
- تقديم رسالة إعلامية فاشلة.
- انتهاج المسار الإصلاحي في واقع يستحيل فيه الإصلاح.
- البناء فوق الركام، وذهاب المكتسبات سدى، وضياع التضحيات هباء.

* * *

ولكي نخرج من هذا التيه السياسي والحركي.. علينا "**التحرر الكلي**" من هذه الأنماط الفكرية الخطيرة، التي تحرق الجهود والأعمار في لا شيء، وتجعلنا نتخبط في التيه والظلمات، فنحن بحاجة لـ "**ثورة فكرية**" **تلفظ** كل الأنماط والقوالب الفكرية والسلوكية التي أدت بنا إلى هذا الفشل، والتراجع.. **وتفرز** قيادات جديدة مؤمنة بمبادئها، ومستعدة لأن تمضي في طريق السنن الإلهية لتحقق أهدافها الربانية بعيداً عن: (الحزبية، والعصبية الجاهلية، والدجل، والبراجماتية)..

وتستلهم النموذج الراشد الذي يستضيء بنور الوحي؛ ليُبصر طريق الخروج من التيه أولاً، ثم يمضي على صراط الله المستقيم رافعاً راية الإخلاص لله وحده، وابتغاء رضاه وحده، والعمل من أجل دينه وحده.

* * *



يتلخص الفكر السياسي لدى البعض في:

- تحكيم السيف.
- طاعة الظالمين، وإن بغوا وسرقوا واعتدوا.
- المعترض على السلطان – ولو فكرياً – هو من الخوارج.
- الاستسلام للأمر الواقع.
- النبوءات، وانتظار المهدي أو "المُخلص المنتظر".
- الشورى غير ملزمة للإمام في شيء.

وللأسف نشأ هذا الفكر قديماً في "الملك العضوض" في ظروف خاصة، وأصّلَ له البعض تأصيلاً منحرفاً، ووافق البعض عليه على أساس "الأمر الواقع" ومنعاً للصدامات والحروب الأهلية الداخلية، طالما السلطان يقوم بأمر الشريعة والجهاد، وتغاضوا على استبداده في أمر الحكم، واستحواذ ثروات الأمة لنفسه وحاشيته !.

ولكن البعض منهم خرج بنظرية سياسية عجيبة مفادها: إن السلطان القائم الآن – ولو بغى وظلم – لا يجوز لأحد الخروج عليه، وهو في الحكم إلى ما شاء الله بلا رقيب ولا حسيب، ومن يخرج عليه فهو من "الخوارج كلاب النار" فإن خرج كلاب النار هؤلاء وتغلبوا بالسيف، صاروا أئمة شرعيين لا يجوز الخروج عليهم ويجب طاعتهم، ومن يخرج عليهم سيصبح هو "الخوارج كلاب النار" !

وواضح أنها نظرية سياسية براجماتية نفعية قائمة على "القوة" والدوران مع صاحب السيف حيث دار.[1]

ولكن هذه النظرية تركت آثاراً خطيرة في الفكر السياسي لدى المسلمين لأنها قُدمت لهم باسم الدين ! أو باسم السلف، على زعم أن طاعة المتغلبين – مهما فعلوا – من أصول الدين والسنة !!.[2]

أدى غياب الفكر السياسي الراشد إلى ترسيخ الاستبداد، والشرعنة للطغاة والبغاة، وإلى ممارسة مقيتة لبعض علماء الدين في فتاويهم السياسية؛ التي جعلتهم هم والبغاة الطغاة الفسدة في خندق واحد !.

* * *

واستسهل البعض "الرضى والمتابعة" على الباطل، والظلم، والعدوان[3].. ففقدوا حساسيتهم تجاه البغي والإفساد؛ فصار جزءاً طبيعياً من حياتهم.. لا ينهضوا لينكرونه، ولا يغضبوا لوقوعه، بعدما تعايشوا معه قروناً طويلة.

فأصبح الفقه السياسي لدى البعض هو: مشروع "تغلب" من يَغلب ويفرض "الأمر الواقع" فهو الأمير والسلطان وعلى الجميع الخضوع له.. فحتى إذا قامت حركة تريد تغيير البغاة الطغاة وهي تحمل فكر "التغلب والقهر" لا "الرشد والعدل".. فإنها ستنقل الناس من طاغية إلى طاغية آخر !

ففكر التغلب يحمل جينات الاستبداد، والظلم.. وليس هو بطبيعة الحال فكر الرشد والسنة، وتتلخص خطورة الاستبداد في: اتخاذ "**كتاب الله**" دخلاً.. أي: التلاعب به وبالحق الذي جاء فيه خدمةً للسلطان، و"**ماله**" دُولة بين الأغنياء والملأ والبطانة وحدهم، و"**عباد الله**" خولاً.. أي: عبيداً للملوك؛ فيقهرونهم ويستذلونهم ويسحقون كرامتهم.

* * *

(1) راجع – إن شئت – مقال: وإن ضرب ظهرك.

(2) يجب الانتباه إلى أن العلماء الذي وافقوا على "شرعية التغلب" اشترطوا قيام الحاكم بالجهاد والشرع، وإقامة الحدود، والدفاع عن الأمة.

(3) وقد نهى رسول الله ﷺ وحذر من تلك المتابعة كما جاء في الحديث الشريف: "**سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ مَا لا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ بَرِئَ، وَمَنْ أَمْسَكَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**" [صحيح ابن حبان/ 6658]

المهدي والنبوءات

ولقد أصبح عمل البعض هو "انتظار" المهدي أو المُخلص المنتظر الذي سيقوم بحل جميع المشكلات بطريقة سحرية غامضة الأسباب، لا تكلفهم شيء.. ويؤدي هذا الفهم المنحرف إلى فقدان "الفاعلية السياسية" وأدت التصورات الباطلة عن المهدي إلى خروج حركات تزعم لقائدها المهداوية، وأدت إلى كوارث حركية خطيرة..

وفكرة انتظار المهدي، وترقب موعده... إلخ، هي ظاهرة قديمة، أصابت الفكر الإسلامي وعطلته، وتفرعت عنها فكرة المريد، والغائب، والإمام؛ حتى عطلت طاقات المسلمين!

لقد كان بعض المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ يظنون في كل حادثة أنها أحداث النهاية، وأن الساعة على وشك القدوم اليوم أو غدا ! لا سيما بعد الحوادث الجثام ك: الفتنة الكبرى، وضرب الكعبة، واستباحة المدينة، واقتتال الملك العضوض، وظهور الفتن... إلخ.

بل كان البعض يظن – في فترة حكم الدولة الأموية – أن خلافة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي "الخلافة الراشدة" التي بعد الملك العاض والجبرية ! وظنوا أنه هو المقصود بـ "الخلافة على منهاج النبوة".

وكذلك ظهر العديد من الأفراد ممن أدعوا المهداوية، وصار لهم أتباعٌ وجيوشٌ ! ثم طوتهم صفحات التاريخ.

ويشغل بال المسلمون كثيراً فكرة تحقيق النبوءات وانتظار الحوادث الكبرى، التي تُطمئن بالهم أنهم على الحق، ولقد كان هذا الفكر يسري في عقول المسلمين منذ أمد طويل، ولقد احترف البعض تخدير الناس بالحديث عن أحداث النهاية... إلخ.

وإن "تجربة" المسلمين في كل زمان ومكان، يجب أن تظل في إطار "**التسديد والتقريب**" وهذا هو الفكر الأقرب – بإذن الله – للتصور الإسلامي الشامل..

إن المسلم الحقيقي هو في ذاته "المهدي" المهدي بهدى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والمهدي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده، وهو المجاهد الذي يواجه الباطل والكفر.. وعندما يدرك المسلم هذه

الحقيقة، سيجد أن ليس بحاجة إلى "انتظار" المهدي.. بل سيجد أنه في جهاد متواصل، أي: عمل دؤوب، وسعي حثيث ولو قامت الساعة ! وهذا – ولا شك – هو التصور الإسلامي الصحيح: "**الانشغال بالعمل في كل وقت، تحت أي ظرف**".

ولكن أصاب المسلمون القعود، والترهل، وسبقتهم جميع الأمم، وأفسد الاستبداد والقهر طاقاتهم واستعداداتهم – من قديم – فأصبحوا يطربون للحديث عن المهدي، وأحداث النهاية، ظناً منهم أنه يجوز لهم القعود، أو عسى أن يجدوا فيها السلوى.. وهذا غير صحيح، إنما الصحيح هو: السعي الدائم والجهاد المتواصل، وتحمل التبعة الفردية والجماعية، حتى يأتي الله بأمره.

فلا يمكن أن يكون الفكر السياسي والتخطيطي والحركي للمسلمين قائم على فكرة النبوءات وهي: الأحاديث الخاصة بالغيب، وآخر الزمان، وأحداث النهاية، والفتن... إلخ، ومثل هذه الأحاديث لا ينبني عليها "تصور سياسي حركي" لأننا نتحرك في "عالم الشهادة"، ملتزمون بـ "اتباع السنن الإلهية" حتى لحظة قيام الساعة، وعليه فإن صدق النبوءة عند صحة الحديث لن يغير في تصورنا وعملنا شيء..

ولا يمكننا الاعتماد على هذه النبوءات في الفكر، والفقه، والحركة؛ فعملنا في النهاية واحد: "**إتباع الهدي الرباني، والعمل، والأخذ بالأسباب، وتحمل التبعة الفردية، والمسؤولية الاجتماعية**".

فحتى لحظة قيام الساعة على المسلم أن يمضي في طريق السنن والفعل الإيجابي كما جاء في الحديث الشريف: "**إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ**"[(1)]

والذي يحصل أن يأخذ البعض جملة من الأحاديث الضعيفة، أو ما يتطرق إليه شك، أو يُتوقف فيها، فيبني عليها تصوره وحركته؛ ثم تقع بعدها فتن تُستباح فيها دماء المسلمين، فينسب البعض لنفسه أنه هو المقصود بالحديث – كونه المهدي أو الخليفة المنتظر – وأنه في "حالة قدرية" كونية، تسمح له بالأخطاء، والمجازر، والتولي عن سنن الله جَلَّجَلَالُهُ، وهذا كله باطل لا يمت لـ "التصور الإسلامي" بصلة.

(1) [مسند أحمد/ 12569]

ويجب أن يظل مفهوم "الخلافة الراشدة" سواء خلافة الإنسان، أو خلافة المجتمع، أو خلافة الدولة.. خلافة راشدة تتبع سنن الله، وهديه، وحقه وعدله الذي أمر به، وأن نظل نعمل في كل الظروف والأحوال، اعتماداً على السير على منهج السنن في عالم الشهادة، لا على التواكل على الله وانتظار قدره الغيبي، أو معجزة تنزل من السماء، فمثل هذا الفكر لا شك يؤثر سلبياً في رؤية المسلمين، وفي أحكامهم، وتصوراتهم، ويجعلهم في حالة من التخبط والتيه والاصطدام بالسنن الإلهية.

* * *

الشورى

وعندما يتحدث البعض عن الشورى، فإنه يذكر أمثلة طيبة من حياة الرسول ﷺ، ومن مواقف الخلفاء الراشدين.

ثم ينتهي إلى مسألتين غاية في الخطورة:

الأولى: جعل الشورى في النهاية مسألة من حق الحاكم ردها، وعدم الأخذ بها.. كأن الشورى أصبحت "مجلساً لـ (الدردشة) حول بعض القضايا" الحاكم فيها صاحب "القرار المطلق"، فلا يُفرّقون بين حرية القرار التنفيذي للحاكم واستشارته لحكومته وعدم الأخذ برأيهم إن شاء - بعد تقليب وجهات النظر - حيث هو المسؤول التنفيذي أمام الأمة في النهاية، وهو أعلى سلطة من الحكومة التي تساعده، وبين قرارات مؤسسات الشورى الأخرى التي تراقب الحاكم وحكومته، وتُصدر التشريعات - في إطار مبادئ الإسلام - وهذه في حالة من الندية - وربما أعلى سلطة - من الحاكم، وهذه لا شك قراراتها ليست فقط ملزمة، وإنما جامعة.

الثاني: وهو الأمر الأخطر والأعنف، وهو اعتبار: أن الحاكم إذا انفرد بقراره، ونفذ ما يحلو له، ثم كان هذا القرار خاطئاً، فليس من حق أحد محاسبة الحاكم، ومن يلوم الحاكم على قراره الخاطئ فهو "منافق" ! استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ **لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا** ﴾ [آل عمران : 168]، وهو استدلال من أعجب ما يكون !.

ونجد من هذين الأمرين.. حاكم يقرر ما يشاء، وإن أخطأ فلا يحق لأحد محاسبته وسؤاله وإلا كان منافقاً.. نجد أن هذا هو "مصنع الاستبداد" و"الفقه السياسي للملك العضوض" الذي لا يمكن أن يُخرج هذه الأمة من سجنها، ويعود بها خير أمة أُخرجت للناس.

* * *

إننا نعاني من أزمة كبرى في "الفقه السياسي الإسلامي" منذ لحظة استيلاء بني أمية على الخلافة حتى يومنا هذا، ولم نصل بعدُ إلى "الرشد" في بناء النظام السياسي الإسلامي، ذلك أننا لم نتحرر بعدُ من أوهام فقهية لا أصل لها..

ولا ننكر المحاولات الطيبة التي يقوم بها البعض في محاولة استخلاص الفكر السياسي الراشد من براثن فقه الملك العضوض.. وإن كانت هذه المحاولات تأتي فردية لا على مستوى الجماعات الكبرى، وليس لها من التأثير الكافي لحدوث تغيير في وعي الشباب حول معنى الرشد، والحكم الإسلامي الرشيد.

* * *

ولما لم تحسم الأمة أمرها في "معركة صفين" – وما بعدها – وتلجلجت ! دخلت "الملك العضوض" من أوسع أبوابه؛ ودفعت الضريبة كاملة من أنفسها، وثرواتها، بل ودينها.. ثم سقطت الأمة في "الملك الجبري والطواغيت" ولم تفهم بعد التضحية المطلوبة للخروج منه، فدفعت الضريبة كاملة من أنفسها، وثرواتها، ودينها، بل ومن أجيال لم تأت بعد ! وحتى تعود الأمة إلى "الرشد" من جديد لا بد وأن تدفع ضريبة كاملة غير منقوصة؛ وأن تدور مع كتابها الذي فيه ذكرها وعُلوها، وأن تخوض "معركة الفرقان" الكبرى – من جديد – على مستوى الدعوة والسياسة والجهاد.

وعلينا إدراك أنه لا يوجد نظام سياسي إسلامي محدد نتعبد الله جَلَّجَلَالُهُ به..إنما هي مبادئ وأحكام عامة، لا نخرج عن إطارها، ولنا حرية تصميم النظام السياسي ونظام الشورى وفق ظروف كل عصر، ووفق أدواته كذلك، ونضع ما نشاء من نظم وتنظيمات تمنع أي استبداد، وتمنع أي خطأ، وتحاسب على الصغيرة قبل الكبيرة.

ومن هذه المبادئ حتى يكون نظام الحكم إسلامياً:

- شرع الله وحده له السيادة والحكم والمرجعية العليا.
- لا يحق لأحد أن يُقدم بين يدي الله جَلَّجَلَالُهُ ورسوله ﷺ.
- ما ليس فيه نص - من الكتاب والسنة - قطعي الثبوت والدلالة.. فهو محل الاجتهاد والنظر داخل الإطار العام للشريعة.
- منع توريث الحكم، ومنع الاستئثار بالثروة والمال للحاكم والملأ المتابع له.
- منع التلاعب بكتاب الله، خدمة لأخطاء الحاكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الحاكم أجير عند الأمة فليس في الإسلام "مُلوك"، والناس سواسية لا فرق بين أحد إلا بالتقوى؛ وبذلك نمنع استغلال المنصب في سرقة ثروات المسلمين.
- الجميع - الحاكم والمحكوم - سواسية أمام شرع الله، فلا حصانة لأحد، ومحاسبة الحاكم عند التقصير؛ وبذلك نمنع استغلال المنصب في الشرف والعلو على المسلمين.
- الأمر شورى بين المسلمين، وولاية أهل الأمانة والقوة والكفاءة.
- منع كل صور الفساد في الأرض؛ أخلاقياً، وسياسياً، وإدارياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وبيئياً... إلخ، والدفاع عن بلاد المسلمين ومقدساتهم، وحماية الدعوة الإسلامية.
- الاجتماع على الإسلام، والانتساب للشرع، فهو الهوية الجامعة للمسلمين.

هذه المبادئ العامة والحدود الكلية هي الإطار العام الذي في داخله نُبدع - كيفما شئنا - في بناء أنظمة الحكم الرشيد، والشفافية الكاملة، والمحاسبة الدقيقة، والشورى الملزمة، التي تحقق فاعلية الأمة، وتعود بها من التيه إلى الرشاد، ومن الظلمات إلى النور.[1]

❊ ❊ ❊

(1) راجع - إن شئت - مقالات: خريطة تحيكم الشريعة، البناء في الدولة المسلمة، منظومة القيم في الدولة المسلمة.



بيئة القهر والاستبداد تُفسد العقول والقلوب، وتعطل العقل عن وظائفه، فيتبلد ويترهل، وليس المقصد هو مجرد غباء فطري، بل عقول مكتملة.. لكنها متبلدة وسطحية في فكرها وفي فهمها، وتفهم من خلال طرق "التربية الاستبدادية" التي خرجت فيها، ولم تتحرر منها ! بل لم تتربَ ابتداء على التفكير – وهناك من يحتقر التفكير ويعتبره بدعة ! – فلم تتمرن عضلة العقل على الفهم بل فقط التلقي، والتعصب لما تتلقى.

فتفهم – مثلاً – النصوص الشرعية بصورة سطحية، أو مبتورة، أو بصورة خارجة عن سياقها، أو شاذة عن طرق استدلالاتها المعتبرة، أو أحادية الفهم، والتعلق ببعض النصوص وترك بعض، وقبول المتناقضات بلا فهم، وقِصر النفَس عن البحث والاستقصاء، وعدم اعتبار الغايات والعلل والمقاصد من وراء النصوص، هذه أحد صور الفهم المنحرفة.. تؤدي على مستوى السلوك إلى التطاول على من هم أعلم وأفهم، ذلك أن التفكير بصورة سطحية، والتمسك بهذا الفكر، والتعصب له.. سيؤدي إلى رفض كل صور الفكر الصحيحة أو المكتملة، ويؤدي إلى الشحناء والبغضاء، والفرقة.[1]

والعقل في ذاته يتسم بالمحدودية والقصور والضعف، ولتعويض ذلك النقص لا بد من: التركيز، وصفاء الذهن، وسرعة الاستجابة، وعدم كتمان الحق؛ حتى يظل في لياقته ونشاطه، وقدرته على الفكر السليم، والاستيعاب الكلي لما حوله.

(1) راجع – إن شئت – مقال: مشكلات في تناول الفقه الإسلامي.

وتؤدي "أحادية" التفكير وسطحيته إلى كوارث حركية ضخمة، فالسلوك هو استجابة للإرادة الداخلية، والإرادة تنشأ نتيجة مجموعة الأفكار المتكونة في العقل، والعواطف الراسخة في الشعور. فإن كان هذا العقل في صورة حادة أحادية النظر فلا شك أن السلوك سيكون كذلك، وسيكون الاصطدام بالواقع وبالحياة مسألة وقت، والفشل نتيجة حتمية؛ وستطغى العاطفة بهيجانها على العقل، وستكون حركتنا مجرد استجابة لمجموعة غير مترابطة من العواطف المتقلبة، تنتهي ببرود العاطفة وسكونها.

❊ ❊ ❊

وأما الفهم: فسطحية الفهم تقطع أي استفادة من أي علم، ذلك أن للقارئ هواجس معينة يجري وراءها بغض النظر عن موضوع المقال، وله ولع بالخروج عن موضوع المقال إلى توافه الأمور، فمهما كان الكلام مُحكم الصياغة، فإنه يبحث عن أي جملة أو كلمة لينشغل بها عن موضوع المقال، فلو كتب إنسان مقالاً في موضوع ما يحمل من الآلام والآمال للأمة، فقد ينشغل صاحب الفهم السطحي والبليد إلى سطر من وصل الكلام.. كأن تترحم على فلان من الناس، فيتوقف ليسأل هل يجوز الرحمة له؟ أليس كذا؟ أليس فعل كذا؟ وقال العلامة فلان في حكم ذلك كذا؟ ورد عليه العلاّمة فلان بكذا؟ أين العقيدة، وصحة المنهج؟... إلخ من المهاترات والترهات التي تُفسد العقول والقلوب، وتجعلنا نختلف على أتفه الأشياء، ونُضيع لا أقول فرصة إنقاذ الأمة، بل حتى مجرد "محاولة الفهم" فلا يمكن ونحن بهذه الانحرافات أن تجتمع أمتنا على كلمة سواء !.

❊ ❊ ❊

وتُنشأ سطحية الفهم والبلادة حالة من "الورع الكاذب" الذي يجعل صاحبه يتورع عن شيء بسيط جداً، ويأتي العظام أو كما قيل: "يحاسبون على البعوضة، ويبتلعون الجمل" ! والورع الكاذب لا بد أن يُنشأ في القلوب القسوة والجفاء واللامبالاة، وإساءة الأدب، وغلظة المشاعر، وانغلاق العقول.

ومن علامة سطحية الفهم أيضاً: الولع بالوقوف عند الأمثلة التوضيحية التي تُبين الفكرة المجردة، والجنوح بعيداً جداً خارج فكرة وموضوع المقالة، والهوس كذلك بالحكم على الأشخاص تقديساً أو تدنيساً، والعجز عن تفكيك عناصر الفكرة المكتوبة، للحصول على أقصى استفادة منها، وغالباً ما

يكون لصاحب البلادة في الفهم منظومة مسبوكة من الأفكار والقناعات لا يريد أن يطرأ عليها أي تغيير، أو تكون هناك أفكار مناقضة لها؛ فهو يحب أن يسمع ما يُطلي منظومة أفكاره دون وجع الرأس بنقد أو حوار، أو تفتيش فيها بالنفوس والعقول، أو استعداد للتغيير لما هو أفضل وأرشد؛ فهو يعشق من يؤيد فكره، ويشعر معه بالالتصاق الذاتي، وأنه القدوة الحسنة.. ويا ليت العالم كله مثله ! وقد يغتر البعض بهذا الثناء الكاذب.. وإن هو إلا تقديس للذات في صورة الآخر، فيختزل دوره في العمل الإسلامي في تأكيد صحة موقفه مهما كان الخطأ، ومهما بلغت درجة الفشل.[1]

وعلى النقيض من ذلك فإنَّ من يخلخل منظومة أفكاره بنقد أو فكر أكمل أو أوضح، فإنه يتحول إلى شخص مزعج، مكروه، مغرور، متكبر، يريد التطاول على الآخرين، وتتحول المعركة – بمرور الوقت – ليس مع أفكاره، وإنما مع شخصه هو، والحقيقة هذا التدنيس ليس لشخص الكاتب ولا أفكاره، إنما هو رد فعل على حالة الإزعاج التي سببتها أفكاره أو نقده.

مما يؤدي ذلك إلى وقوع "أزمة فكرية" أهم ملامحها:

- عدم القدرة على التركيز على الفكرة الأصلية.
- الدخول في استطرادات كثيرة ليس لها علاقة بالفكرة.
- الدخول في تفصيلات تُحبط الغرض الحقيقي من الفكرة.
- التعاطي مع الفكرة من خلال الحالة العاطفية والنفسية، بمعنى تفسير الفكرة في إطار العاطفة الحالية المسيطرة على الإنسان.
- الفشل في معالجة الفكرة، وضبطها، ووضعها في إطار العمل.
- التعامل مع كل فكرة بمجرد "السماع" دون التمحيص والتدقيق وقوة الفهم.
- السطحية في التعامل مع الفكرة دون الرسوخ والتأني، وربط الفكرة بمنظومة معلومات دقيقة يترتب عليها موقف أو حركة.
- الحكم المسبق على الفكرة، والتي يجعلها بلا قيمة أو أثر.

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: الفكر والالتصاق بالذات.

إضافة إلى ذلك أننا نبقى عند المرحلة الأولى (مرحلة الفهم والفكر) ولا نتجاوزها، ونظل نعيش في صراعات لا تنتهي، والعالم يمضي من حولنا، ونظن أننا نتحرك بينما نحن لم نراوح مكاننا بعد ! أو لا نتصور ابتداء أن هناك مراحل أخرى، وأننا قد أدينا كل ما علينا !.

وفي كلتا الحالتين ينقطع الأمل في الفهم أو التصحيح أو التقويم.. بل يبقى "التعصب" في حالة التقديس، و"الغل" في حالة التدنيس.

* * *

وأما من ناحية فهم الواقع السياسي:

فالواقع السياسي المعاصر – في أي مكان – من التعقيد والتشابك والاتصال والترابط بما لم يسبق له مثيل، وحصل تطور هائل في العلوم السياسية والاجتماعية والنفسية والإعلامية... إلخ بُغية الإحكام والسيطرة، والحصول على القوة، وإخضاع الشعوب بالقوة الناعمة، واحتلال عقولهم بالأفكار والقناعات التي يريدها الساسة، إضافة إلى ذلك حالة الاستبداد الداخلي بالنظم العسكرية والملكية، ومدى الشرور والإفساد الآتي من وراء هؤلاء.. مع حالة الهيمنة والتبعية للخارج، مع تعدد الفواعل السياسية المحلية والإقليمية والعالمية، وتغير المعادلات السياسية بين ليلة وضحاها، فعدو الأمس، صديق اليوم، وصديق الصباح.. عدو المساء، وقد يكون الصديق صديقاً في مكان وعدواً في مكان آخر !.

فمع تطور وسائل الاتصال، وثورة المعلومات.. نجد أن محاولة فهم المعادلات السياسية والتوازنات الواقعية تتغير بصورة لحظية، إضافة إلى شح المعلومات الحقيقية، والسُتر الكثيفة للسياسة، مما يجعلنا نلهث لمعرفة الحقيقة، وفي النهاية لا نعرف إلا القليل.

وقد يُتعب المرء نفسه جاهداً لمعرفة الحقيقة في موقف ما، ثم لا يلبث أن تتغير قناعته، بتغير المعلومات الآتية إليه، وهذا الأمر يحتاج إلى: (المرونة والصبر والفهم الشامل والكلي والإحاطة بجوانب الصورة كلها) دون النظر إلى أحد زواياها، ودون الإغفال عن التغير اللحظي لهذه الصورة.

غياب الوعي السياسي، وغياب الفكر الراشد، وغياب العلوم السياسية الصحيحة النابعة من ديننا ومن حاجتنا الواقعية، تجعلنا خارج الزمان والمكان، وتجعل آراءنا السياسية أشبه بنوادر جحا ! وتجعلنا نُخطأ في تقدير قوة الأعداء – سواء سُوء التقدير بالمبالغة أو التهوين – وتحليلها.. ونحن هنا نتحدث عن الفكر فقط، فما بالنا بالحركة الصحيحة، والقدرة على المضي فيها؟

بل تم ترسيخ الجهالة، وصناعة الغباء، والإصرار على التضليل.. عندما تم تقديم العلم – عند البعض – على أنه بعض كتب يحفظها من ينتسب للحركة الإسلامية فيصير بها "طالب علم" أو "شيخاً" يفتي في كل الأمور – خاصة السياسية منها – وهو على جهالة، بل احتقار لتلك العلوم نفسها ! فالعلم هو الكتب التي قررها الشيخ أو قررتها الجماعة، وهذه – بلا شك – لن تسعف من يريد الفهم، أو حتى محاولة الفهم.

وهذا الذي جعل قامات كبيرة من الدعاة تخرج بآراء عبثية سياسية، ضيّعت كثير من الناس.. عندما انخدعوا أو خلطوا بين شهرة الداعية، أو قدرته على الخطابة، وبين العلم السياسي الذي يحتاج إلى مجاهدين مخلصين لوضع الأمة في إطارها الصحيح بعيداً عن: (البراجماتية، والتعصب الجاهلي، والمصالح الحزبية أو الأيديولوجية).

ولا بد من تصحيح هذا الخلل الفكري – سيما عند الشباب – واعتماد أساليب جديدة تُرسخ قوة الفكر، وعمق الفهم، والدفع بالراسخين في العلم ليقودوا مسيرة التربية الصحيحة للعقول.[1]

* * *

[1] راجع – إن شئت – مقالات: التفكير وتميز الإنسان، معالم في الفكر الإسلامي.



تواجه أي حركة إسلامية عاملة لهذا الدين تحديات عالمية، ووجودية.. تستهدف استئصالها، أو تحوير أهدافها، وفي حالة كهذه لا مفر من: (الحكمة والبصيرة والصبر والاستماع إلى النصح، والتواضع للحق، والعمل بمنهجية دقيقة وصارمة)..

إلا أنه – وللأسف الشديد – نجد من بعض أطياف الحركة أنهم أمام تحديات مصيرية، وقضايا خطيرة فإذا موقفهم يتسم بالرعونة والسطحية وسوء تقدير المواقف، وسوء تقدير العواقب !

ويصرخ الناصحون أن انتبهوا، واحذروا.. فلا يُستجاب لهم، ولا يعبئون بمن هو خارج جماعتهم مهما كان صادقاً مخلصاً في النصح والحرص عليهم، ويستكبرون عن الاستماع للحق، ويظنون أنهم يعلمون كل شيء، ويفهمون كل شيء، فيتعاملون مع أخطر القضايا بمنتهى السذاجة، واللامبالاة، والإفراط في التضحيات بلا مقابل ! كأن التضحيات والعذابات أصبحت هدفاً في حد ذاته ومدعاة للمفاخرة !

ثم بعد وقوع المحذور، يقولون لأتباعهم: نحن الأكثر تضحية، والأكثر عذابات، وليس الآن مجال للنقد، ليس هذا من المروءة، فلا يكن هناك مجال للتصحيح والتقويم أبداً.

إن الشخصية الرعناء، التي تتعامل باستهتار، وسذاجة، وسطحية، وفهلونية.. لا تصلح أبداً لا أقول لقيادة عمل إسلامي فحسب، بل ولا حتى لمجرد أن تكون تابعة، فأي حركة إسلامية تسير في وسط حقول من الألغام، ويُتربص بها الدوائر، والسهام منصوبة إليها.. فهي بحاجة شديدة إلى العقل الحكيم السديد الواعي المتجرد، وليس إلى شخصيات رعناء تُفجر كل الألغام في أبناء الحركة،

ثم تنظر إليهم في بلاهة، وتقول: "عفواً لم نكن نقصد، عذراً لم نكن نحسبه لغماً، دعونا من الماضي ولننظر في المستقبل" !!

ولعل من أهم أسباب الرعونة هو طريقة التربية في الحركة الإسلامية ذاتها.. التي تعمد إلى طريقة "تربية الأطفال" وليس القادة والرجال.. تلك التربية التي تتلخص في بعض الأمور البسيطة السهلة التي تصلح للأطفال والصبية، ولا تصلح لمن يقوم بمهمة خطيرة كمهمة العمل لهذا الدين في ظل هذا الواقع.

فيظن البعض أنه بمجرد قراءة كتاب هنا وهناك.. فقد أصاب الفهم التام، وأدرك الحقيقة كاملة، بل ويظن كَون أن شيخه - مثلاً - يحفظ القرآن أو شيء من الحديث الشريف، فقد أصبح مؤهلاً للخوض في كل شيء، والإفتاء في كل شيء ! رغم تعقيدات هذا الواقع التي تُحير أكبر العقول !.

وهذه التربية المنحرفة ستُخرّج للحركة الإسلامية قيادات تكون ألعوبة في يد الأعداء، فتحسب الصديق عدواً، والعدو صديقاً.. فيسهل هندستها وفق مصالح العدو - رغم إخلاص هذه القيادات - فيأخذون الحركة الإسلامية إلى الهاوية.

وتؤدي الرعونة وأسبابها إلى "**استخفاف**" الظالمين بالمسلمين، والاستهانة بهم، وخداعهم والتلاعب بهم، ولا يملك الظالمين فعل ذلك إلا إذا: (1) أصابنا عدم اليقين، واهتزاز الحق في ضمائرنا. (2) وقوع الفسق في القلوب والعقول، بالانخداع في سحر الطغاة والفراعنة، وعند الانحراف عن صراط الله المستقيم، واضطراب القيم والموازين في تصوراتنا. (3) وفقدان التقوى التي ترفض الباطل تلقائياً، والتي يهبها الله لعباده المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ **إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً** ﴾[الأنفال : 29] ﴿ **وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾[البقرة : 282]

والويل كل الويل لأي حركة إسلامية - أو غير إسلامية - يتصدرها الأرعن الساذج، لأن حياة هذه الحركة ستكون عبارة عن: سلسلة متصلة من الأخطاء، وسوء تقدير للمواقف، وإحسان الظن بالعدو المتربص، وعنتريات فارغة في أحلك وأصعب المواقف، ثم الهزيمة في النهاية، وإعادة تكرار هذه الهزيمة في كل مرة.

* * *



كل إنسان يطمح أن يرى ثمرة لفكره، وعمله.. ويريد أن يُشبع هذه الرغبة الكامنة، بل إنه يصبر على الألم، والتضحيات من أجل اللحظة التي يفرح فيها برؤية الثمرة، فأجمل لحظة لدى المزارع هي رؤية الثمرة بعد طول عناء في حرث الأرض، ووضع البذور، ورعاية البذور بالغذاء تارة، وبالحماية من الأمراض والأعداء تارة أخرى، ثم يستوي الزرع على سوقه، يُعجب الناظر إليه، وبذلك يكون الزارع قد أتم مهمته بنجاح، واستمتع برؤية ثمرة جهده.

حتى إن القرآن الكريم يلفت الفطرة الإنسانية لرؤية الثمرة الضاحكة الزاهرة على الأغصان فيقول سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ **انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ** ﴾ [الأنعام : 99] فهي إشارة لعملية الخلق المتجدد، والجمال البارز لهذا الوجود التي تدل على بديع صنع الله، ونعمه جَلَّجَلَالُهُ على الإنسان.

انتقال هذه الرغبة في رؤية الثمرة إلى العمل الإسلامي يضر به ضرراً بالغاً ! ذلك أن مجال العمل الإسلامي هو "النفس والمجتمع".. ورواد التغيير فيه يعلمون أن رؤية الثمرة والاطمئنان والفرح بها قد لا يكون في جيلهم، وربما كذلك في الجيل الذي يليهم؛ لذا فهم يخلعون من قلوبهم هذه الرغبة.

إن النفس والمجتمع مثل التربة التي تحتاج إلى عناية منذ اللحظة الأولى حتى خروج الثمرات الطيبة، وكَون التربة فاسدة بفعل الاستبداد، والأفكار الباطلة، فهي تحتاج إلى تنظيف أولاً، وتحتاج إلى اختيار أفضل الأماكن المناسبة، ثم يمضي الرواد لغرس بذورهم الطيبة في النفس والمجتمع، ويتعهدونها بالرعاية.. وقد يفارقون الحياة، والبذور تشق الأرض في عناء وبهجة، وقد يمر عليها الأعداء فيسحقونها في مهدها، فيعيدون الكَرة من جديد، وقد يصيب النبتة الصغيرة الأمراض وهي

بعدُ ضعيفة فلا تقوى على البقاء، وقد يودع الرواد بذورهم الطيبة، وهم مطمئنون أن ما ينفع الناس سيمكث في الأرض، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، والعاقبة للمتقين.

فهم يدركون أن تغيير ما بالنفوس – ومن ثم المجتمع – عملية طويلة، ورحلة شاقة.. فالنفس لا تغير قناعاتها بسهولة، ولا تُسلّم للحق في بساطة، بل تحتاج إلى ترويض طويل، وتهذيب مستمر حتى تأتي أكلها.

كثير من أفعال الحركة الإسلامية تدل على الرغبة الشديدة في "استعجال الثمرة" ورؤيتها، وإثبات النجاح الواقعي دون تمام أسبابه.. الأمر الذي يؤدي إلى سحق البذور، وانكشاف التربة للأعداء والأمراض، ثم ضياع كل شيء.

إن الذي يستعجل الثمرة، مثل الذي يقتلع البذور من التربة ليرى هل أثمرت أم لا ؟!

ولعل من أسباب ذلك: قلة الصبر، وعدم القدرة على تحمل المعاناة، والمحاولات القسرية لمعالجة النفوس ! الأمر الذي يؤدي إلى نتائج عكسية، أو محاولة استنساخ التجارب في غير بيئتها، فلا يُفرق بين الاستفادة من التجربة، وبين استنبات بذور في غير بيئتها.

كما أن استعجال الثمرة يكشف عوراتنا أمام الأعداء، ويقضي على "الخطط التكتيكية" – المرحلية – اللازمة لمرحلة ما، ويقطع الطريق على الوصول إلى "الأهداف الاستراتيجية" البعيدة المدى.

وهناك حالة أصعب من ذلك، وهي المقامرة بهذه الثمار بعد نضوجها في ألاعيب سياسية حقيرة، فنكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا.

وهناك من يضع البذور.. ولكنه غير متعهد لها بالرعاية والعناية، ويظن أنه بذلك قد أدى ما عليه، وهناك من يأخذ الثمرة بعد طول الجهد ليُهديها للأعداء غفلة منه وسذاجة، أو يبيعها لهم عن علم طمعاً في مال أو منصب !!.

إن الإخلاص لله جَلَّجَلَالُهُ والتجرد التام له، لا شك يُعوض الرغبة برؤية الثمرة.. وإن فهم سنن النفس والمجتمع من شأنه أن يُنبت البذور الطيبة في البيئة الطيبة؛ ليحدث التغيير وفق سنن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في أرضه.

* * *



مَن يريد العمل لهذا الدين عليه أن يكون في حالة تامة من التجرد والإخلاص لله رب العالمين، خالعاً عن نفسه أي حظ أو جزاء من وراء عمله هذا، سواء أكان هذا الجزاء مادياً (مال أو غيره) أو معنوياً (جاه أو رياسة أو سلطان) بل ولا يطمع حتى في شهوة أن يرى أثر دعوته وعمله لهذا الدين.. كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ **اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [يس : 21]

وهذا الأمر ليس سهلاً على النفس الإنسانية، بل يحتاج إلى تربية عميقة، ورقابة سلوكية على النفس، يجب ألا يغفلها المربي أبداً، حتى لا يتحول العمل لدين الله إلى نقمة على صاحبه، فإذا به قام للعمل لدين الله، يجد نفسه يركب هذا الدين، ويتاجر به !.

ومن مظاهر فقدان الإخلاص أمرين:

الأول: حب المال والجاه.

وفيه يفتتن من قام للعمل لهذا الدين بالدنيا وزخرفها.. ولو نظر في أول نية قام فيها لنصرة هذا الدين، لوجد الإخلاص ورغبة ابتغاء وجه الله الكريم، ولكن هذه النية لا تبق على حالها إن ظهرت فتنة المال والجاه، فعند ذلك تتغير النفوس، ولا يصمد أمامها إلا أولياء الله الصالحين.

وقد تُفتن النفس بالمال دون الجاه، فتتغير النفس عند جريان المال من وراء العمل لهذا الدين والدعوة له، سواء أكان طريق هذا المال حلالاً أو لا.. المشكلة هي التعلق بالمال، ومجيء المال من وراء العمل لدين الله، الأمر الذي يجعل صاحبه المفتون يتعلق بالمال لا بدعوة الحق، وسيجد نفسه مضطراً ليس للحفاظ على صحة ونقاء دعوة الحق، بل حريص على تدفق جريان المال، فيُكيّف الدعوة ويغير مجراها لتصب في صالح المال لا الدين.

وقد تُفتن النفس بالجاه دون المال، فهناك نفوس لا يهمها المال ولا يعنيها، بقدر ما يعنيها حب المنصب والجاه والرياسة الدينية على الناس، وشهوة رؤية الأتباع، وكثرتهم.. وتعشق هذه النفس حب الإطراء، واصطناع التواضع المكذوب، بينما في المعاملات الشخصية الضيقة تتعامل بحالة من الكِبْر والاستعلاء على الضعفاء، وتحترم الأقوياء وأصحاب الجاه فقط.

ولا شك أن مثل هذه الحالة تؤدي إلى "النفاق الدعوي" وإلى إفساد ذات البين، واستغلال الدين في إشباع شهوات النفس، وعندما يكتشف الناس التكسب المادي والمعنوي من وراء الدعوة لهذا الدين.. فإنهم يفقدون الثقة في كل شيء، ولا يحترمون أحداً بعد ذلك، ويُشاع بين العامة قولهم: "إنهم يتاجرون بالدين" ! وقد يكون هذا قول حق من جانب، ومن جانب آخر يستغل البعض هذا القول، ليطعن في الدين، أو في أبنائه المخلصين، أو ليضع الدين على الرف، أو يحصره في زوايا المسجد.

والافتتان بالمال والجاه من أوسع الأبواب التي يدخل منها شياطين الإنس.. ليُفسدوا قلوب العاملين لهذا الدين، وليلعبوا على نقاط الضعف الإنساني، وتوسيعها من خلال دراسات نفسية عميقة؛ تجعلهم ألعوبة في يد أعداء الدين !.

* * *

الثاني: البغي والهوى، والكسل.

المسلم يدور مع الحق حيث دار، ويَشهد لله جَلَّجَلَالُهُ، ويقوم بالقسط.. ويقوم لله جَلَّجَلَالُهُ، ويَشهد بالقسط ولو على نفسه أو الأقربين.

ولكن عندما لا يكون الإخلاص ليس على درجة تامة من النقاء، بل يشوبه الشوائب.. يقع المحذور؛ فقد ينجو المسلم العامل لدينه من فتنة "المال والجاه" ويحذر منها أشد الحذر، بل ويكون لديه هاجس من الوقوع فيها؛ تجعله يمتنع في أحيان عن العمل خوفاً من تلك الفتنة، إلا أنه من جانب آخر قد يقع - دون أن يشعر - في فتنة "البغي والهوى والكسل".

والمقصود بها: أن المسلم يُحاكم الحق والحقيقة إلى "المُسلّمات الفكرية والتربوية" لديه، فلا ينهض للدوران مع الحق إذا تعارض مع ما تربى عليه أو مع ما قد يظنه أنه الحق، فتجده يُسارع في "البغي" على الآخرين دون بحث أو تمحيص لما معهم من حق أو دليل؛ فيُطلق عليهم أحكام التبديع والتفسيق وغيرها، ويسارع في ظن السوء، وإلقاء التهم، فيصد بذلك عن الحق، ويقعد للناس في طريق الهداية يصدهم عنها ! - دون أن يشعر - اعتقاداً منه أنه على الحق المطلق المبين؛ فيقع البغي الذي يُفرق الأمة.

وقد يكون الهوى هو الفتنة الخفية.. التي تجعل المسلم يرد الحق، لمجرد أنه لا يتوافق مع هوى الإنسان، أو أن الحق يُدين حزبه أو جماعته، فلا ينهض إلا للتبرير ولو بالباطل.

ومن جانب آخر قد يكون السبب هو "الكسل العلمي" بمعنى عدم الرغبة في الاطلاع والبحث والتدقيق، فيركن إلى ما لديه من علم، ولا يجد في نفسه الرغبة أو الطاقة أو القدرة على البحث الطويل، وتقليب الأراء، ومطالعة كافة الاتجاهات؛ لتمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، فيكتفي بما لديه، ولا ينهض إلا في سب وتسفيه المخالف له.

ولكن الإخلاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والرغبة الحقيقية في إرضائه جَلَّجَلَالُهُ - لا إرضاء النفس - تجعل الإنسان ينهض ليبحث عن الحقيقة ويصدع بها.. لا يخاف في الله لومة لائم، وتجعله لا يبغ على الآخرين، ولا يتبع الهوى.. بل يدور مع الحق حيث دار.

* * *

ويؤثر فقدان الإخلاص سلباً على الوعي الفكري للإنسان.. فبفقدان الإخلاص يفقد الإنسان معية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ونصرته.. ويضيع من الإنسان الوعي اللازم والضروري لحركته سواء على مستوى الدعوة أو السياسة أو الجهاد:

فنرى في مجال الدعوة أن يتحول الداعية إلى: استخدام دعوته لحماية الطغاة والفسدة بالفتاوى الباطلة، أو يستخدم الدعوة لمجده الشخصي والمصالح المادية، أو يستخدم الدعوة لتفرقة الأمة، وتحزبها، وبلبلة أفكارها بالموضوعات الخارجة عن سياق الزمان والمكان.

ونرى في مجال السياسة أن يتحول السياسي إلى: استخدام السياسة لإضفاء الشرعية على الطغاة بعدم إنكار المنكر ومحاولة تغييره، أو يستخدم منصبه السياسي لمجده الشخصي والحزبي، أو يستخدم حزبه لتفرقة الأمة، وإدخالها ساحة الصراعات الحزبية، والمنافسات الانتخابية على أساس أنها معركة الأمة المصيرية، واختزال السياسة في معارك تافهة وقتية بعيداً عن بناء القوة السياسية الحقيقية الراسخة.

ونرى في مجال الجهاد أن يتحول الجهادي إلى: استخدام الجهاد في العنف المفرط، وتكفير المجتمعات المسلمة، أو العمل من خلال خطة العدو، أو استخدام الجهاد للمجد الشخصي والتسلط والاستبداد، والاستعلاء على الناس كأمراء الحرب ! أو يستخدم الجهاد لإدخال الأمة في معركة عالمية غير مستعدة لها، ولا مهيأة بعدُ لها، بل ولا حتى تفهم طبيعة هذا الصراع.

وقد تؤدي انحرافات "الدعوة والسياسة والجهاد" إلى حالة إنكار لهم؛ فمن يرى الانحرافات الدعوية.. سيزهد في العمل الدعوي، ومن يرى الانحرافات السياسية سيزهد في العمل السياسي، ومن يرى الانحرافات الجهادية سيزهد في العمل الجهادي؛ نتيجة التعميم أو أحادية التفكير.

وقد يكون الإخلاص تاماً كاملاً، والحماسة فائرة.. ولكن "مشكلة الوعي" تُضيّع الاستفادة من هذا الإخلاص، نتيجة الجهل بالذات، وبالواقع.

فالعمل الإسلامي الناجح لا يتم إلا بجناحي "**الإخلاص**" التام لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، و"**الوعي**" السنني المتكامل بالنفس والحياة.

* * *



ينشأ المسلم المعاصر في بيئة استبدادية علمانية، تُشوه فكره وروحه وسلوكه، وتجعله خليطاً متناقضاً مضطرباً، يمتص كل شيء، وحسب اتجاهه النفسي يصوغ هوية معقدة ومركبة من تناقضات مختلفة تؤثر على سلوكه النفسي والعاطفي؛ وتؤدي به إلى حالة من "الاغتراب" تارة، وحالة من "التماهي" تارة أخرى؛ فيحدث له نوعاً من "فقدان التوازن الاجتماعي" و"اضطراب الهوية النفسية"..

والحركة الإسلامية ليس لها مناهج تربوية للمعالجة الدقيقة لهذه الأمراض فضلاً عن اكتشافها، فتتم التربية بصورة سطحية تعمد إلى التدين الفردي، والاهتمام بالمظهر والسمت الإسلامي؛ وقليلاً ما تهتم بالداخل الإنساني المعقد، والمضطرب، والمتصارع، ولذا فالحصانة ضد الأمراض الاجتماعية تكاد تكون معدومة، والعرضة للتأثر بأخلاق النظم الاستبدادية العلمانية أمر مؤكد طالما لم يتم التحذير منها فكرياً وتربوياً وسلوكياً.

لذا قد نجد - في أحيان كثيرة - سلوك الحركات الإسلامية هو نفس مسلك النظم الاستبدادية في معاملاتها الداخلية، فتنتقل أمراض الاستبداد إلى الحركة الإسلامية مثل:

- التنازع على السلطة داخل الجماعة.
- منطق الولاء مُقدم على منطق الكفاءة.
- الاستبداد بالسلطة، وتوظيفها لأغراض شخصية أو أيديولوجية معينة، وتوهم الشعور بالقوة.
- استمالة الناس بالأموال والعطاءات، وجعل العطاء على أساس الولاء للجماعة ! وحرمان غير الموالين.. مما يجذب إليهم المنافقين والمتملقين، ويطرد الأحرار المخلصين.

- التلاعب بالخطاب الإعلامي، وصياغته بلا تجرد ولا موضوعية.
- تَحكم المال في صياغة أهداف الجماعة وأولوياتها.
- استغلال المنصب في إقصاء المخالفين داخل الجماعة.
- طرد وفصل وعقاب الكفاءات المبدعة والحرة التي تقاوم طغيان الجماعة.. بل وتشويه سمعة هذه الكفاءات !.
- الترهل الإداري والحركي.
- بطئ اتخاذ القرارات الهامة.
- الرعونة في مواجهة المشكلات الخطيرة.
- إلغاء المشكلات بدلاً عن حلها.
- استسهال المشكلات بدلاً عن فهمها وتحليلها وعلاجها.

* * *

والمشكلة في هذه الأمراض أنه يتم تبريرها، بل وشرعنتها، وإضفاء هالة من التقديس على أفعال الحركة الإسلامية لمجرد أنها تحمل راية إسلامية !

ولا شك إن وجود مثل هذه الأمراض سيُفشل عمل أي حركة، ويشلّها عن أي انطلاقة، ويَصدم أتباعها.. عندما يكتشفون أن حركتهم – التي قامت من أجل القضاء على هذه الأمراض والانحرافات في الأنظمة التي تحكمهم – تحمل نفس الأمراض.. وموجودة هي هي في أنفسهم، وفي قياداتهم؛ فيفقدون الثقة في كل شيء، والجدوى من عمل أي شيء.. إضافة إلى الصراعات النفسية، والتساؤلات الخطيرة التي تطل برأسها في عقولهم؛ فتذهب جهودهم سدى.

فنجد أعمالاً كثيرة، ولكنها بلا فاعلية مؤثرة.. وتضحيات عظيمة يأكلها السلوك النفسي المنحرف الناجم عن هذه الأمراض التي تتحول إلى "**محرقة**" تأكل كل خير، وتستهلك كل مورد، وتستنزف كل جهد.

وإن بقاء مثل هذه الأمراض في النفوس والعقول لا يجعلنا أمناء على هذا الدين، ولا يؤهلنا إلى الإمامة والوراثة في الأرض، فلا يأتي التمكين إلا بعد أن تتهيأ نفوسنا، وترتفع إلى مستوى هذا الدين، وإلى إدراك حجم المسؤولية الملقاة على عاتقنا، وإن ورثنا الأرض بهذه الأمراض فلن يتجاوز عملنا إلا أن نقدم صوراً أخرى من الطغيان والفساد الذي ربما يتلبس بلبوس الدين !

والأصل التربوي الذي يجب أن تقوم عليه الحركة الإسلامية بعد البيان العام للإسلام ورسالته هو: المعالجة النفسية والتربوية لأمراض الاستبداد، وأمراض العلمانية؛ وتحصين الفرد المسلم من هذه اللوثات الخطيرة، فإنَّ تركها بلا علاج يُحوّل المسلم الذي يريد نصرة الإسلام.. إلى مسلم يصد عن سبيل الله !.

❊ ❊ ❊



فتنة المُلك – السلطان – هي من أعظم الفتن على الإنسان، ولا ينجو منها إلا الأفذاذ.. ولقد سجل التاريخ صفحات مليئة ببحور الدماء من أجل الصراع على المُلك والسلطان، الذي في سبيله تم استباحة كل شيء، وتوظيف كل شيء !.

والإسلام لا يعترف بسلطان في الأرض إلا سلطان الكتاب – القرآن الكريم – ولا يستمد أحد شرعيته في دولة الإسلام إلا من خلال الكتاب والقيام بما فيه، فهو يرد السلطان كله لله جَلَّجَلَالُهُ، منعاً لأي صراع، ويمنع عن النظام الحاكم التميز بشيء من المال – فهو مجرد أجير عند الأمة – ولا مُلك في الإسلام، ويمنع عنه الشرف والعلو بعدم حصانته، بل يُأمر بالمعروف، ويُنهى عن المنكر، ويحاسب على التقصير[1]؛ وبذلك يصبح المنصب مغرماً لا مغنماً، ولا يطمع فيه أحد. ولكن هذه الفتنة عميقة دفينة في النفس الإنسانية.

فقد يبدو الإنسان ضعيفاً هادئاً كريماً طيباً لا يحسب في نفسه شراً، ثم إذا هو اُبتلي بهذه الفتنة – فتنة المُلك – فإذا به يتحول إلى وحش، وفرعون، وتنكر لفكره وشعاراته.. بل حتى يتنكر لنفسه !.

وللشيطان مداخل شتى لهذه الفتنة، فقد يجعل الإنسان يقتل باسم الدين، وهو في الحقيقة يقتل باسم الملك، وتجعله يسرق المال لحسابه الشخصي، ثم يُصور له أن ذلك من أجل مصلحة الجماعة.

وهناك من يفتتن بالسلطة الروحية على الناس، وهناك من يفتتن بالسلطة المادية على الناس.. **فالأولى**: تجعله يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، ويأكل أموال الناس بالباطل. **والثانية**: تجعله يبغي في الأرض بغير الحق، ويُفسد فيها.

---

(1) وجاء التحذير من فتنة "المال والعلو على الناس" في الحديث الشريف: **"مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ"** [جامع الترمذي/ 2376]

وللسلطة إغراء تجعل الإنسان يستجيب إليها.. فقد يكون السعي إليها من أجل الرياسة على جماعة، أو من أجل الرياسة على سلطان الدولة.

فالسعي للرياسة على جماعة – من الحركة الإسلامية – قد تكون صورة مصغرة من صور الصراع الاستبدادي الماكر على السلطة، فيكون فيها من الكيد والمكر والخداع والكذب والتحزّب – داخل الحزب الواحد – من أجل صراع الأجنحة الداخلية على السلطان، ولا شك أن طريقة الوصول إلى السلطة هي التي تحدد طبيعة ومسار وكيفية التعامل مع هذه السلطة، فمن يصل عن طريق الغوص في طريق الوحل والدناسة.. حتماً سيكون هذا سلوكه في ممارسة السلطة، ومن يصل وهو لا يتطلع للتسلط، ولا يطمع في الجاه، ويستشعر عِظم وخطورة المسؤولية.. سيكون هذا سلوكه في ممارسة السلطة.

وفي محاولة الحركة الإسلامية في الوصول إلى السلطة عن طريق الصناديق – ولعبة الديمقراطية – سلك البعض منهم نفس طريق الدجل من استمالة الجماهير وقت التصويت فقط، وخداعهم بالوعود البراقة، ثم بعدها لا شيء، ويقول الناس في النهاية: لم نجد كبير فرق بين الإسلامي والعلماني، كلاهما وعد فأخلف !

إضافة إلى ذلك.. أنه في حال الوصول إلى السلطة عن طريق الصناديق فإن ذلك يحدد طبيعة ومسار السلطة التي تملكها، وتكون في النهاية أمور جد هامشية لا قيمة لها، ولا سلطان حقيقي فيها، إنما هي مجرد ديكور لزوم (الدستور، والجمهورية) لإقامة عرس الديمقراطية، فلا يصح أن نقيم العرس بلا معازيم يطبلون ويصفقون !.

وعندما تكون الأمة واقعة في الأسر – وفي داخل سجن كبير – فإن الخطوة الأولى هو تحريرها، وكسر أسوار السجن – أو على أقل تقدير الاستعداد والتخطيط لذلك – وليس محاولة الصراع على السلطة داخل هذا السجن! ولذا لا يستطيع من يصل إلى السلطة حل مشكلات الأمة من جذورها:

- لأن الأمة واقعة تحت احتلال منذ الحرب العالمية الثانية، إما باحتلال عسكري مباشر عن طريق القواعد العسكرية، والسيطرة الأرضية والجوية والبحرية. أو الاحتلال عن طريق خلفاء المحتل وأدواته وعملائه.

- النظام الاقتصادي الدولي يتحكم في "الاقتصاد العالمي"، ويُدار من خلال المؤسسات المالية الدولية.. ولا حل إلا بالفكاك والتحرر من هذا الأسر.
- المحتل يراقب الأمة من خلال أجهزته الاستخباراتية والأمنية، ويقطع عليها أي نهضة حتى ولو كانت علمانية !
- المحتل يُحرم على الأمة أمرين: (أ) السيادة والاستقلال، (ب) تحكيم الشريعة، وإقامة الدين.
- المحتل يتحكم في كافة مقدرات الأمة وثرواتها، وهو الذي يسرقها، ويديرها، ويوزع الربح على وكلائه وعملائه.
- المحتل حريص على عدم قيام أي قاعدة أو نهضة علمية وصناعية وتقنية.. ويريد للشعوب أن تظل في حالة من "استهلاك" انتاجه باستمرار.
- المحتل لا يسمح أن تُحل أو حتى تخفف أي مشكلة من مشكلات الأمة باسم الإسلام، أو من يحملون شعار الإسلام.. ولا يريد أن يُنسب لهم إلا "الفشل، ومحدودية الرؤية، والدروشة".. وأي حل أو تخفيف لمشكلة لابد وأن يكون باسم "العلمانية".

ولذا فالافتتان بالسلطة والجماهير قد يجعل البعض من الإسلاميين ينجذب وينخدع في وهم السلطة، الأمر الذي يُسيء إلى الحركة الإسلامية، وإلى صورة المسلمين العاملين للدين.

***

ومن المبادئ الإسلامية في أمور الحكم: قطع الطريق على من يريد التسلط على المسلمين، ويطمع في حكمهم سعياً منه لتحقيق منفعة ذاتية له، فالولاية والحكم في الإسلام تكليف شاق وصعب، ليس فيه أي مغنم في الدنيا فيحرص عليه المسلم أو يسعى له.. فضمانة عدم البغي، والتجبر، والإفساد في الأرض هي: منع اتخاذ الولاية على المسلمين مغنماً ومُلكاً، فجاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: " دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ جَلَّجَلَالُهُ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَقَالَ: **إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**"[1]

ومن المبادئ الإسلامية في الحكم أيضاً، ولاية أصحاب "القوة والأمانة" معاً، ولما فقد أبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ القوة – أوالكفاءة – لم يُوله رسول الله ﷺ، فجاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي، قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ، قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ: **إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا**"[2]

وأبو ذر من كبار الصحابة، وقال فيه النبي ﷺ: "**مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ، وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ**"[3] ولكن كَونه ضعيفاً لا يقوى على مسؤولية الإمارة، وأعبائها.. أشفق رسول الله ﷺ عليه من تحمل تبعاتها، رغم أمانته وصدقه وعلمه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فكان أبو ذر مؤهلاً للشهادة لله جَلَّجَلَالُهُ؛ فهو من أصدق الناس لهجة، ولكنه لم يكن مؤهلاً لتحمل تبعات القيام بأعباء الإمارة.

وبذلك نجد في الحديث الأول سبب الرفض "ما ظهر من الطمع والحرص"، وسبب الرفض في الحديث الثاني "الضعف وعدم الكفاءة" وفي ضوء هذا الهدي النبوي الشريف يَتبين لنا أن من أهم شروط الولاية على المسلمين: (1) عدم الحرص عليها والطمع فيها، (2) والقوة والكفاءة في تحمل المسؤولية، (3) وأداء الأمانة بالقيام بالحق والعدل الرباني.

ومن أهم الدروس التربوية في الحركة الإسلامية هي: ترويض الرغبة في السلطة، وبيان خطورة هذه الفتنة، والحذر منها، وطريقة التعامل معها، وخطورتها على الرسالة والإنسان.[4]

❋ ❋ ❋

---

(1) [صحيح مسلم/ 1826]

(2) [صحيح مسلم/ 1828]

(3) [سنن ابن ماجة/ 156]

(4) راجع – إن شئت – بحث: خطورة الفكر المادي على بعث الإسلام من جديد.



التعميم مرض فكري خطير لم تصنعه الحركة الإسلامية، ولكنه آفة فكرية لم تعمل التربية الفكرية – إن كان ثمة تربية فكرية – على إصلاحه، وفي حال وجود أمراض أخرى – كالسابق ذكرها – فإن ذلك يعني تعطل عمل العقل إلا من "التعميم والتبرير وسحق المخالف".

إن العقل يميل إلى التعميم حتى يستريح من قضية التحليل، والتعليل، وفهم المتناقضات، ومعالجة كل مسألة على حدا، هذه قضية تُجهد العقل كثيراً، وعند غلبة العاطفة يميل العقل أكثر إلى إطلاق التعميم سواء أكان إيجابياً أو سلبياً.

عند ذلك يُجهد العقل نفسه في مسألة جد خطيرة، وهي تحويل كل الأحداث الواقعية والتاريخية والمستقبلية لتؤكد صحة التعميم الذي وصل إليه، فيتحول "تفسير" الواقع والحياة إلى تأييد نوع الحكم الذي وصل إليه قصراً وتعسفاً، فلو اعتبر العقل المريض بالتعميم أن جماعة ما هي الجماعة التي على الحق، فإن رؤيته للأحداث والوقائع، تطغى على عقله، ويفسر بها كل شيء، فانتصار الجماعات الأخرى يعني "مؤامرة" على جماعته، وانسحاب الجماعات الأخرى أيضاً "مكر" بجماعته، والفتاوى الصادرة هنا وهناك "كيد" في جماعته.. والأحداث الجوية هنا وهناك "انتقام إلهي" من أجل جماعته، وسقوط حزب سياسي في أقاصي الأرض كان بسبب جماعته !! وهكذا يتم تفسير كل شيء بهذه الطريقة المطلقة، والتي لا شك تُفسد الفكر والتصور والرؤية، وتجعل الإنسان يتخبط في هذا التيه الكبير.

والمشكلة أنه حتى بعد انهزام جماعته، فإنه لا يستفيق من سُكرة الوهم، بل إنه يفسر الهزيمة أيضاً على أنها "مؤامرة" مُحكمة على جماعته، تسبب فيها الخصوم، بعدما رفضوا دعم جماعته.. ولن يدرك العقل أسباب الهزيمة لأنه دوماً يُفتش في خارجه !.

ومشكلة التعميم "**سلباً**" تؤدي إلى "استعداء" الآخرين.. وتنفيرهم، وظلمهم، فالتعميم بالشر على جماعة ما لا يكون صحيحاً، والصحيح هو: وزن الأفكار لا الأشخاص - ولو كان الأشخاص مجرمون في جرم بواح - فالأولى بيان ذلك الجرم دون التعميم الكلي سلباً على "كل" أتباعهم.. لأن فيهم: (المخدوع، والموتور، والساذج، والمغفل، والأرعن، والجهول، وساقط الوعي...إلخ)، وكل هؤلاء محل للدعوة والبيان، بعكس رؤوس المجرمين الواجب مواجهتهم؛ وحتى لا يظهر الصراع أنه مجرد "صراع شخصي" أو أن الهدف مجرد النيل من شخوصهم فقط؛ إنما الغاية بيان وإقامة الحق والعدل.

ومشكلة التعميم "**إيجابياً**" تؤدي إلى حالة من "الخدر" عن رؤية الأخطاء، والعيش في فضاء متوهم، والاطمئنان إلى الذات، وإلى الأخطاء دون تصحيحها، أو حتى مجرد إنكارها، والقرآن الكريم يربي الإنسان على "الوجل" والخشية وهو يأتي الطاعة ! حتى لا يغتر بنفسه، أو يَمن بعمله؛ فيُحبط هذا العمل.

❊ ❊ ❊

ويأخذ التعميم أيضاً بعداً نفسياً.. يتجه إليه أصحاب "التطابق النفسي"؛ فهناك من يُعمم بأن "التربية" وحدها هي الحل، والآخر يرى أن "السياسة" هي الحل، وآخر يرى أن "القوة المسلحة" هي الحل... إلخ، والسبب في هذا التعميم ليس هو "الاستنتاج الفكري" بقدر ما هو "الميل النفسي" وطبيعة الشخصية، ولا شك أن هذه الطريقة تقطع الاستفادة من الحلول الأخرى أو حتى أخذها بعين الاعتبار.[1]

❊ ❊ ❊

ويؤدي التعميم إلى عملية "**استقطاب**" لا تفيد أصحاب الخطاب الرسالي، وتُفرق الأمة شيعاً وأحزاباً، وصاحب الرسالة يريد استقطاب الناس إلى "الرسالة" لا إلى الشيخ أو الجماعة أو الحزب،

---

(1) راجع - إن شئت - مقال: الاتجاهات النفسية للحركة الإسلامية.

فالمسلمين هم "حزب الله" يتحزبون لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكل ما يؤدي إلى الله فهو مجرد "وسيلة" لا "غاية".

كما يؤدي الاستقطاب على المدى الطويل إلى رسوخ أخلاقه في "التكوين الجيني" للأجيال التالية، فتخرج الأجيال تحمل نفس الأخلاق والفكر بصورة تلقائية، وهذا ما يُسبب:

(1) "العقم الفكري" والسير في حلقة مفرغة.

(2) و"انكشاف الشخصية أمام العدو" مما يَسهل توقع ردود أفعالها، وتفكيرها، وسلوكها والتحكم فيها.

(3) صعوبة حصول التغيير في هذه الشخصية إلا بعد جهد جهيد، ورحلة طويلة، وصدمات متتالية.

كما يؤدي التعميم والاستقطاب إلى هوس "التصنيف" على طريقة الأجهزة الأمنية في تصنيف العاملين للإسلام، وقد انتقل هذا الخُلق إلى الحركة الإسلامية، حيث كل عامل للإسلام يجب تصنيفه؛ وإطلاق الأحكام عليه بالعموم سلباً أو إيجاباً، فيكون التظالم فيما بينهم، وإفساد ذات البين، وضياع الحقيقة، وكثرة الخلاف.

والاستقطاب نحو الأشخاص أو الأحزاب أو الأيديولوجيات والغلو في ذلك.. يؤدي حتماً إلى الصراع البيني بين مكونات الأمة أو الحركة الإسلامية، ويجعلها تحارب نفسها لا عدوها، وتُؤتى الجدل لا العمل؛ ويجعل الأمة تعيش في جزر منعزلة لا ثمة هدف مشترك بينها، ولا ثمة تراحم فيما بينها.

* * *



يتسلل فكر الجبرية والتملص من المسؤولية إلى قطاعات كبيرة من أبناء الأمة عبر بعض الأحاديث الموضوعة أو المبتورة عن سياقها أو المناقضة لصريح القرآن والسنن الإلهية، وتسللت "الجبرية السياسية" في العهد الأموي لمنع الناس عن مقاومة السلطة السياسية، واعتبار أن السلطان الحاكم ما هو إلا قدر الله الكوني، ولا سبيل لبشر من دفعه، وفي الدولة العباسية صرّح بعض حكامها أنه يحكم باسم "الحق الإلهي المقدس" !!.

على أنه في عصرنا هذا ليس بالصورة التي كانت موجودة سابقاً، ولكن آثاره وبقاياه موجودة، وتطفح على السطح عند مواجهة جماعة ما بأخطائها، أو وقوع كوارث أو فشل نتيجة أفكار خاطئة أو حركة غير محسوبة العواقب.. ضاربة بعرض الحائط "السنن الإلهية" التي تحكم واقعنا، وسنن التغيير التي تعمل في هذا الكون.

وقد يخلط البعض بين قدر الله الكوني، وقدر الله الشرعي.. **فقدره الكوني** "كن فيكون": فلا شيء يحدث في هذا الوجود إلا بإذنه جَلَّجَلَالُهُ ومشيئته وإرادته المطلقة من كل شيء، وهو القائم على كل شيء، وبأمره يقوم كل شيء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يحدث في ملكوته أمر إلا بإذنه، وهذا القدر لا دخل لنا به، وله نُسلّم، وبه نؤمن، ولرحمة الله نرجو ونسأل.

أما قدره الشرعي: وما عهده إلينا من إرادة وأمانة واختيار، وما تفضل به علينا من نور كتابه، وما علمنا إياه من سنن إلهية.. فهذا هو محور ومناط "التكليف" والابتلاء، بل إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل أمر التغيير في حياتنا، منوط بتغيير ما بأنفسنا، وعليه فإن أمور الحكم وحياتنا الخاصة والعامة، وما

نحن فيه من هزيمة أو نصر أو غيره، فإننا نتعاطى معه من منطلق "الأمانة والحرية والإرادة" التي منحنا الله إياها.

ولكن قد يجعل البعض من كوارثه وأخطائه "المعتقد الصحيح" الذي يجب التسليم له، ويؤدي ذلك إلى إلقاء اللوم على الآخرين من جهة، وغياب الفكر الاستراتيجي من جهة أخرى.

والفكر الاستراتيجي يعني – على سبيل المثال – : التخطيط لأربعين سنة قادمة على مستوى الفكر والتصور والحركة، والانتقال بين المراحل التكتيكية – المرحلية – واحدة بعد واحدة للوصول إلى الهدف، وذاك يتطلب همة عالية، وقدرات عقلية عظيمة وكبيرة، ومشروعات ضخمة تحتوي قضايا الأمة المصيرية، وتتحرك بخطى ثابتة وقوية بعيداً عن الارتجال والعبث والرعونة والغفلة والسذاجة.

بل إن الفكر الاستراتيجي في حد ذاته علم واسع، والتخطيط له مسألة تكون على مستوى رجال الدولة.. فماذا سيكون حالنا إذا وجدنا قطاعات من أبناء الحركة الإسلامية تعتقد أن مثل هذه العلوم هي لغو وانشغال عن العلم الشرعي؟! رغم أن العلم الشرعي بمفهومه الصحيح – والذي يهدف بحق إلى إقامة الشرع، وتحرير الأمة – يجعل العلوم السياسية والاستراتيجية أحد أهم أدوات الفهم، وليس كما يتصور "طلاب الجهل" من أصحاب مدارس الدروشة والدجل.

فغياب الفكر الاستراتيجي، وغياب المشروعات الكبرى للحركة الإسلامية تجعلنا نمضي في هذه الحياة كيفما اتفق، وتجعلنا في مقاعد المتفرجين، نعيش حالة من رد الفعل لا صناعته، ونمضي نعترض ونصرخ بلا غاية ولا هدف.[1]

* * *

(1) راجع – إن شئت – خريطة: مراحل الواقع الإسلامي .



إذ لم تفكر وتخطط بنفسك، فسيفكر لك الآخرون، وستعمل من خلال خطة عملهم ! والعمل المؤسسي ذو المنهجية العلمية الصارمة، والآلية الإدارية المنضبطة أصبح أحد الأسلحة الهامة في ساحة الصراع اليوم، وما نواجهه من تحديات. والحركة الإسلامية إما يغيب عنها العمل المؤسسي بالكلية وتعمل بصورة ارتجالية عفوية استبدادية، أو يكون لديها من المؤسسات المترهلة أو الضعيفة التي لا ترتقي لحجم وضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقها، مما يجعلها عاجزة عن الاستفادة من الطاقات وتوظيفها التوظيف الأمثل، فنصبح أمام كم كبير وأعداد هائلة، ولكنها من ناحية الكيف ضعيفة التأثير والإنتاج.

إن مهمة المسلم ضخمة وهامة وعظيمة، إذ يحمل رسالة الله إلى العالمين.. ولذا وجب عليه أن يفهم مقاصد تلك الرسالة **أولاً، وثانياً**: أن يعالج قضايا أمته المصيرية؛ حتى تكون أمته قدوة حقيقية لرسالة الله، **وثالثاً**: عليه أن يفهم الواقع العالمي للبشرية جمعاء.

إنها رسالة عالمية تتطلب جهوداً عالمية.. وطاقات مجتمعة.. وراية واضحة.. واكتشافاً لكل طاقات المسلمين.. وتوظيف تلك الطاقات في رحاب تلك الرسالة العالمية، وتلك الأمة الربانية.. متحررة من أمراض الحزبية، والتعصب.. فالولاء لله والانتماء لتلك الأمة، والعمل من أجل هذه الرسالة.

وفي ظل هذا الواقع العالمي الذي يرفض وجود الإسلام كرسالة ربانية، وكدولة متقدمة، وكدعوة عالمية.. ويقبله فقط مجرد شعائر أو طقوس.. في ظل هذا الواقع الذي يرفض وجود الإسلام، ويُجيش الطاقات من أجل عدم السماح بوجوده، فوجب على المسلمين أن يتعاملوا مع واقعهم العالمي بنفس القدرة والكفاءة أو أشد.

في الواقع العالمي توجد المؤسسات، والعمل الجماعي المشترك، والتوظيف الأمثل لكافة الطاقات، والإدارة المبدعة لكافة الأمور، والدقة المتناهية في كل فعل.. وهذا شيء غير الأحزاب السياسية، إن المؤسسات الفكرية (Think Tanks) في أمريكا وحدها بالمئات.. تجمع كافة الطاقات البشرية في شتى العلوم الإنسانية، حتى تكون في النهاية هي من يُوجه الواقع البشري وفق مصلحتهم الخاصة وأهدافهم المادية، هذا غير المؤسسات الاقتصادية والأمنية والاستراتيجية والعلمية والتقنية.. إلخ.

وللأسف لم ندرك نحن بعدُ أهمية العمل المؤسسي، وفرق العمل الجماعي، وتفرقنا شيعاً وأحزاباً.. كل حزب بما لديهم فرحون ! وكل شيخ وطريقته ! والسبب في ذلك هو عدم قوة الانتماء للأمة الإسلامية - إذ وحدها إطار الولاء الجامع - وكذلك عدم الارتفاع إلى مستوى المسؤولية والشرف في حمل رسالة الله إلى العالمين !

ولهذا تتفرق الجهود، وتضيع الطاقات، ويُدفن المبدعين والمفكرين في غياهب الحزبية التي لا يعرفها الإسلام.

إن الإسلام كمنهج ورسالة يسع الجميع، ويوظف طاقات الجميع، لكن حواجز الحزبية والتعصب قد تمنع الاستفادة الحقيقية من تلك الطاقات ! وتمنع كذلك اكتشاف القدرات والمواهب في الأمة.

إن الإسلام تصور واعتقاد، وعبادة وشعيرة، وشريعة ومنهج حياة.. والإسلام وضع الأسس والمبادئ والأحكام لقيام أمة الإسلام ودولته.. وترك التنظيم والإدارة للمستوى الحضاري لكل جيل.. وترك كيفية تحقيق ذلك إلى إبداع الأمة في كل جيل.

فكان واجب كل أمة مسلمة في كل جيل من أجيال البشرية:

1- تحقيق إسلامها في: التصور والاعتقاد، وفي العبادة والشعيرة، وفي قيام شرع الله ومنهجه في الحياة.

2- إدراك واقعها المحلي والعالمي، والعقبات التي تقف في طريق حمل رسالتها، حتى تكون مؤهلة لحمل رسالة الله إلى العالمين.

3- بناء المؤسسات اللازمة حتى تقيم دعوة الإسلام ودولته، وحتى تحقق أهدافها الأولية والمرحلية والتكتيكية والاستراتيجية، نحو تحقيق إسلامها، ونهضة أمتها، وعولمة رسالتها.

4- الجهاد في سبيل الله: **جهاد النفس:** بحملها رسالة الله واستعدادها للتضحية والبذل والفداء، **والجهاد المجتمعي:** بإحياء الأمة الربانية وانتقالها من "الحالة الغثائية" إلى "الحالة الحية القيمية الفعّالة"، **والجهاد العسكري:** وذلك بتدمير قوة الباطل التي تقف في وجه قيام الحق والعدل بقيام شرع الله في أرضه، ودون إكراه أحد على الدخول في هذا الدين.

* * *

وهذه المؤسسات تكون وليدة المستوى الحضاري والفكري الذي يعيشه الجيل المسلم.. فمثلاً (الأحزاب – المراكز الفكرية – مراكز البحوث – الجمعيات – الجامعات – الاتحادات – أو غيرها مما تحمله كلمة مؤسسة)

حينما يغيب عن هذه المؤسسات أمراض التعصب، والحزبية، وحظ النفس، والفتور، والسمعة والرياء والمسمى الوظيفي.. وتنطلق إلى رحاب أوسع.. رحاب النبوة والرسالة والخلافة عن رسول الله ﷺ، وترتفع إلى مستوى المسؤولية العالمية تجاه البشرية، وتعرف قدر ما تحمله من رسالة، ودورها في هداية البشرية إلى صراط الله المستقيم.. حينها سيتلاشى التعصب، وستتلاشى حظوظ النفس، وتنطلق النفس الإنسانية بكل طاقاتها.. بكل حب وحرص ورحمة بالإنسانية، تحقق دورها في حمل رسالة الله إلى العالمين.. مثلما فعل الجيل الفريد.. جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

والعمل المؤسسي - ومؤسساته - ضرورة لتحقيق الفاعلية الاجتماعية والعالمية والقدرة على صياغة وفهم الحياة..

وما هو مرفوض من هذه المؤسسات هو: [التعصب والحزبية، وحظوظ النفس والسمعة والرياء، واستخدام الإسلام كشعار فقط لأغراض حزبية أو شخصية، وتحوير الأهداف تحت ضغط المال !] أي أن هذه الأخلاق المقيتة هي المرفوضة.. وهي أخلاق تلغي معنى الأمة، والقيام بحمل الرسالة العالمية.. لأن رحاب الإسلام واسعة، وآفاقه عالية، وأهدافه سامية.

إن فكرة الأمة تقفز فوق حدود الذات، والشيخ، والحزب، والجماعة.. بل وحدود الأرض واللغة والجنس؛ لتُؤلف العقول والقلوب والأرواح نحو هدف واحد.. رفع راية الله في الأرض، ومتى أخلص جيل في هذا الهدف.. نصره الله وأيده ورفع ذكره وتقبل عمله.

* * *

إن الطاقات في العالم الإسلامي واسعة وفي كل مجال، لكن لا يجمعها رابط، ولا يوحدها هوية، وتتفرق بها السبل، وقد تقف حدود الحزبية أو التعصب مانعاً لاجتماع الطاقات ! وآن للعلماء أن يجتمعوا، وأن يوحدوا جهدهم نحو عمل مؤسسي، وأن يتبنى أهل المال من المسلمين قيام هذه المؤسسات، وأن تكون نهضة الأمة وحمل رسالتها للعالمين مسؤولية فردية وجماعية لكل مسلم، وأن يكون الانتماء للأمة الإطار الواسع الذي يحتوي الجميع.. يسع المفكر والمتخصص، ويسع المبدع والباحث، ويسع أهل المال والسلطان، ويسع المسلم العادي المحب لدينه ووطنه.. وهذا هو الذي ينشر الفاعلية والحيوية والانطلاق والاستفادة من طاقات أبناء الأمة، فحاجة النفس الإنسانية إلى الإحساس بدورها وقيمتها ورسالتها عميق في النفس، ولا يوجد رسالة غير الإسلام تستطيع تحقيق ذلك على الوجه الصحيح والتام.

ولهذا أدعو كل المسلمين إلى بناء المؤسسات الإسلامية بالأخلاق الربانية ومنها: (الإخلاص والتجرد لله جَلَّجَلَالُهُ – التحرر من الحزبية والتعصب – الصدق والأمانة – الولاء لله، والانتماء للأمة... إلخ) وغيرها من الصفات والأخلاق الربانية التي تجعل من المؤسسة الإسلامية منارة هادية للبشرية، وتكون المؤسسة الإسلامية متميزة في أخلاقها وأهدافها وقيمها، وليست مجرد تقليداً لغيرها !

وأدعو المسلمين أن ينفقوا جهدهم وأموالهم في بناء مؤسسات جامعة للأمة، وأن ندرك أنه لا تحقيق لأهداف الإسلام بالعمل الفردي – وإن كان أجره لا يضيع عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ – بل بالعمل الجماعي، والهدف من كل مؤسسة إسلامية هو: بيان رسالة الله جَلَّجَلَالُهُ للناس كافة، وتحقيق الحق والعدل الرباني، وإقامة الحضارة الربانية الراشدة، والنهي عن الفساد في الأرض، ومنع ذلك قدر الوسع والطاقة، والجهاد في سبيل الله.

وأدعو كافة المفكرين والمشايخ والعلماء والمبدعين، وكل من يحمل حباً لهذه الأمة أن يحاولوا جمع شمل الأمة، وإنما يجتمع شمل الأمة باجتماع كلمة العلماء والمشايخ المخلصين لله جَلَّجَلَالُهُ؛

ولاؤهم: لله ورسوله ﷺ.. لا لحاكم ولا لحزب ولا لجماعة.

والانتماء: للأمة.

والهدف: تحرير الأمة، ورفعة شأنها، ومواجهة الظلم والباطل والطغيان، وبناء المؤسسات اللازمة لذلك.





بديهي لدى كل مسلم أنه مسؤول عن نتيجة عمله، ومحاسب عليه.. فهو يؤمن بذلك إيماناً قاطعاً جازماً، إلا أن الأمر يختلف كثيراً عندما يعتقد أن عمله لهذا الدين يختلف عن غيره، وله قوانين خاصة.. فيها من المحاباة له، والقدسية لشخصه ! ويختلط في "فكره" مفهوم العقاب والابتلاء، ومفهوم القيام بالسنن والقوامة على السنن، ومن هنا قد تنشأ "رعونة" حركية وجهادية تجاه عمله.

يقول في نفسه ولغيره – من أتباعه – : علينا أن نقدم الأسباب، وليس لنا علاقة بالنتائج، فإن فشلنا، فقد أدينا ما علينا، وليس علينا من حرج.. فإنما هو ابتلاء ليُمحص الله به الذين آمنوا، أو ابتلاء ليتخذ الله الشهداء، أو ابتلاء لتخاذل الأمة، فيُبرأ ساحته من الخطأ، ويُنزهها عن النقص – من دون أن يشعر – ليتهرّب من تحمل المسؤولية، والإلقاء باللائمة على غيره !.

❊ ❊ ❊

إن سنن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا تحابي أحداً، ولو كان رسول الله ﷺ.. بل هو القدوة والمعلم في تحقيق السنن، واستفراغ الوسع، وبذل الجهد، دون تواكل أو سوء ظن، ولما اختلت هذه السنن، كانت النتيجة "الهزيمة" في أُحد؛ حتى لا يبق في صدر مسلم أنه عندما يجاهد في سبيل الله، أو يقوم لهذا الدين أن الله سيُحابيه أو يخرق له السنن والقوانين لأنه يقوم لله.. كلا، إنه لحكمة بالغة جعل الكافر والمسلم سواء أمام هذه السنن، ولعدله جعلها لا تُميز بين مسلم وكافر، فمن يخرق السنة، يحق عليه قانونها.

ولكن مَن يُسبب الأسباب، وله القوامة على السنن.. وله القوامة على كل شيء، وبأمره يقوم كل شيء.. هو الله وحده لا شريك له. يَحكم فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

ومن هنا نتجه إلى البحث عن "النتائج" في العمل لهذا الدين.. **هل المسلم مسؤول عن نتيجتها ؟**

بالطبع مسؤول عن نتيجتها في الدنيا.. ومحاسب عليها حساباً عسيراً – من الأمة، أو من الأجيال التي ترصد تجاربه وعمله – وفي الآخرة: نسأل الله المغفرة لكل صاحب نية صادقة قام لوجه الله الكريم، ولا نخوض في أحكامها، فكلنا خشية ووجل.. ولا ينفعنا من شيء سوى رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إن المسلم عندما يعمل لهذا الدين لا يعني أن معه "صك البراءة" و"صك العصمة".. كلا.. إنما هو مسؤول عن نتائج جهاده، ونتائج ما يقوم به لهذا الدين، ولا ينفعه أن ينسب نفسه لـ "الطائفة المنصورة" أو "الصراط المستقيم" !

فحقاً "النتائج على الله" بمعنى: أنه لا يقع في هذا الكون من صغيرة ولا كبيرة إلا بإرادة الله ومشيئته المطلقة، والنتائج على الله يحكم فيها بعدله وحكمته، ولا تُحابي سننه أحداً عدلاً منه، ولطفاً، وبمعنى أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُسبب الأسباب، وليس المعنى أن يأتي المسلم برعونة وتغافل وسفه بعض الأسباب ثم ينتظر أن تحل "المعجزة الإلهية" ويتحقق له النصر بطريقة سحرية غامضة الأسباب، فقط لأنه مسلم !.

وإنه عندما لا يحسب نفسه مسؤولاً عن "نتيجة" جهاده وجهده وأثره وقيمته وهدفه وغايته.. فإنه وبشكل تام صريح يعتقد – من حيث لا يشعر – أنه "معصوم مقدس" معصوم من الخطأ، ومُقدس عن النقد ! ومن ثم تحدث كوارث حركية تُضيع ثمرة العمل، ويتكاسل العقل عن "التصحيح والتسديد والتقريب والمراجعة" و"تتكرر" نفس الأخطاء، بنفس الكوارث.. دون الاستفادة من دروس التاريخ، وندور في حلقة مفرغة من التيه؛ فتحضر العاطفة المفرطة في تناول جميع الأحداث، ويغيب العقل تحت هيجان العاطفة.

فمن يعمل لهذا الدين يجب أن يدرك أنه ليس معه عصمة ولا براءة، بل هو مسؤول عن نتيجة الإخفاق والفشل، ومسؤول عن تكلفة الدماء والتضحيات التي يأخذها من الأمة، ومسؤول عن حرق طاقاتها وعاطفتها نتيجة حسابات خاطئة على سبيل المثال.

والتصور الإسلامي يضع المسلم على الصراط المستقيم فمن جانب: يرفض التكاسل والتراخي فيُحرض المسلم على الحركة والجهاد، فقال تعالى: ﴿ **انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ** ﴾ [التوبة : 41] ﴿ **وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران : 133] ﴿ **وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾[النساء : 84]

ومن جانب آخر: لا يُعرضه من البلاء ما لا يطيق، ولا يدفعه إلى التهور أو الرعونة فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالمسلم – وبالإنسانية كلها – رحيم، فقال تعالى: ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : 286] ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا** ﴾[الطلاق : 7] وقال رسول الله ﷺ: "**لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ", قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: " يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُهُ**"[1]

ومن جانب ثالث: لا يُسلمه للعجز واليأس، بل يدفعه إلى استفراغ الوسع، وبذل غاية الجهد، فقال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ** جَلَّجَلَالُهُ **يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**"[2] وفي رواية: "**إِنَّ اللَّهَ** جَلَّجَلَالُهُ **لَيَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، فَأَبْلِ مِنْ نَفْسِكَ الْجَهْدَ**"[3]، ويقول ﷺ أيضاً: "**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ** "[4]

ومن جانب رابع: يُواسي المسلم، ويطمئن باله في سعيه إلى الله والدار الآخرة فيقول تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد:22، 23] فلا ييأس المسلم عند الفشل، ولا يغتر عند النصر، ويقول رسول الله ﷺ: "**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،**

(1) [سنن ابن ماجه/ 4016]

(2) [سنن أبي داود/ 3627]

(3) [المعجم الكبير للطبراني/7475]

(4) [صحيح مسلم/ 2667]

وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ "[1] ويدفعه إلى التسديد والتقريب مع البشرى "**سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا**"[2]

ونجد من هذا التوازن العجيب في التصور الإسلامي، تربية دقيقة للمسلم تضعه - بإذن الله - على صراط الله المستقيم.

* * *

وقد يختلط في ذهن البعض الفرق بين "الدعوة والبلاغ" وبين "الإدارة ومشروع التغيير" فالإنسان الذي يقوم بمهمة الدعوة والبلاغ ليس عليه سوى "البلاغ المبين" فإن لم يستجب له أحد - بعد استكمال سنن البلاغ والصبر عليها، وإتمامها على الوجه الصحيح - فليس هو مسؤول عن النتيجة، كما جاء في الحديث الشريف: "**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطَ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلَ والرجلين، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ...**"[3] ، ولكن قد يُسقط البعض هذا الحديث على غير واقعه، تهرباً من المسؤولية..

أما الإنسان الذي يقوم بمسألة الإدارة، ويريد تحقيق مشروع التغيير.. ويكون تحت يده ملايين من أبناء الأمة المخلصين، قد استجابوا لربهم، ويريدون إقامة هذا الدين، ويضحون بالغالي والنفيس من أجله، ثم تمضي بهم القيادات إلى التيه والهاوية - ولا يُنكر عليهم الأتباع! - ثم بعد التخبط في التيه وفقدان كل شيء.. يريدون بعدها التهرب من المسؤولية باستحضار أحاديث مثل "يأتي النبي وليس معه أحد" أو قصة أصحاب الأخدود، فبذلك تضيع معالم الحق أمام تقديس النفس والتواءاتها !.

وهذا الأمر يأخذنا إلى "الآلية الصارمة" في قراءة قضايا الأمة المصرية[4]، و"المنهجية العلمية" المنضبطة في حلول ومعالجة تلك القضايا سواء أكان الحل: هو الدعوة أو القتال أو السياسة... إلخ.

---

(1) [صحيح مسلم/ 3001]

(2) [صحيح البخاري/ 6467]

(3) [مسند أحمد / 2444]

(4) راجع - إن شئت - بحث: آلية قراءة قضايا الأمة المصرية.

وإن هذه "الآلية" في تناول قضايا الأمة سواء فهماً أو علاجاً.. للأسف الشديد نفتقد أبسط مناهج البحث العلمي الدقيق في التعاطي معها، بل ولسفهنا نسخر من المحاولات المتواضعة هنا وهناك ممن يحاول فعل ذلك، ونتهمه بـ "التنظير" حتى أصبح تهمة !.

- وإن العجز عن فهم قضايا الأمة، ووضع منهجية دقيقة تناسب العصر الذي نحن فيه – وتتفوق على مثيلاتها لدى عدونا الذي يُنشأ مراكز للفكر والبحث لكل جزئية ولو كانت بسيطة أو تافهة – لهو ترك للسنن وعدم التزامها.
- وإن العجز عن فهم بواعث الناس وتفكيرها والقدرة على التأثير فيها، لهو ترك للسنن وعدم التزامها.
- وإن استعجال الثمرة وحرق المراحل، لهو ترك للسنن وعدم التزامها.
- وإن التعامل العاطفي الساذج مع النوازل العظام، لهو ترك للسنن وعدم التزامها.
- وإن عدم التخطيط المناسب والتنفيذ الدقيق – وفق مقتضيات كل عصر – لهو ترك للسنن وعدم التزامها... إلخ.

* * *

وقد يفهم المسلم الأسباب فهماً قاصراً أو يحصرها في شيء واحد، ويعتقد بذلك أنه أدى ما عليه، ويتجاهل ويتعامى عن رؤية الصورة الكلية الصحيحة للأخذ بالسنن، فلو كان النجاح في شيء ما – على سبيل المثال – من عشرة أسباب أو خطوات.. فإنه يظن بمجرد أن يأتي خطوة واحدة أو سبب واحد، فإن باقي التسعة أسباب سوف يتم التغاضي عنها كونه مسلماً ! أو ربما لأنه لا يحسب لها حساب، وهذا "الفشل" في الرؤية، و"الفشل" في الحساب، و"الفشل" في التقدير، و"سوء الظن" في الحكمة الإلهية هو ما يؤدي لكثير من الفشل والعقاب.. ويؤدي إلى اعتقاد أن هذا الفشل والعقاب.. منزلة رفيعة لا ينالها إلا أهل الإيمان والابتلاء !!.

وإن "التفتيش" فيما هو في داخلنا – قبل إلقاء أسباب الفشل على غيرنا – سيكشف عن الكثير من الأخطاء والكوارث التي تحتاج إلى توبة أولاً، وعلاج ثانياً.. وكلما اكتشفنا خطأ وعالجناه، ذهبنا

للذي يليه، ولا يكون ذلك إلا عندما نُدرك أننا مسؤولون عن "النتائج" وإنه لِزامٌ علينا "النجاح"، وليس أن نقدم "ضحايا" على طريق الفشل ! وإن الأخطاء تأتي بالعقاب وليس بالابتلاء.

ومن هنا يتبين أهمية النقد الذاتي، بل وطلب نقد الآخرين لنا (كيف يرانا الآخر؟).. نقداً هدفه تحديد مواطن الخطأ والصواب، والنجاح والفشل، فيكون هدفه "التقييم الموضوعي للأفكار والأعمال (سلباً أو إيجاباً) بعيداً عن شخصية صاحبها أو حبه أو التعلق به أو سيرته الحسنة، أو معروفه، أو تاريخه .. وكذلك بعيداً عن كرهه، أو مخالفته، أو بعض منكراته.

❊ ❊ ❊

وإن منهج "ليس لنا علاقة بالنتائج" فهي من عند الله، والتهرّب من المسؤولية.. منهج لا يُقدم للأمة سوى مزيد من الضحايا والتضحيات، ويستنزف طاقاتها.

وإن منهج "علينا الأخذ بالأسباب، وإتباع السنن بصورة متكاملة دقيقة صارمة تحسب حساب كل صغيرة وكبيرة، ونحن المسؤولون عن النتائج".. منهج يضع الأمة على الطريق، ويأخذها برفق وحزم إلى النجاح والتمكين والريادة من جديد بإذن الله.[1]

❊ ❊ ❊

(1) راجع – إن شئت – مقال: الأسلوب القرآني.. والأسلوب التبريري.



التفكير التبريري يكون هو النتيجة الحتمية للتحزب والتعصب والتفرق في الدين، وترك الرسالة، ويجعل الإنسان يدور في حلقة مفرغة من الفشل؛ فيُضيع الفرص، بل والفشل حتى في مجرد الاستفادة من دروس هذه الفرص.

والمنطق التبريري هو منطق إبليسي، فآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد عصى ربه، وكذلك إبليس.. لكن آدم اعترف بذنبه وطلب عفو ربه؛ فتاب الله عليه وهدى. أما إبليس فقد عصى وأبى واستكبر، ولم يندم أو يطلب التوبة، بل ألقى باللوم على الله جَلَّجَلَالُهُ واعتبره سبب غوايته؛ فاستحق اللعن إلى يوم الدين والهلاك.

وللنفس البشرية قدرة عجيبة على التهرب من المسؤولية، والالتواء.. والمكابرة عن الاعتراف بالذنب، فتختلق آلاف من المبررات تستطيع معها أن تجعل ساحتها نقية طاهرة، وإن ظروف أخرى قاهرة هي المتسببة في الكوارث.

والقرآن الكريم حين تحدث عن "هزيمة أُحد" قال: ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران: 165] والحل يكمن فيها، والبداية عندها، وكل ما حدث كان مجرد أعراض وآثار ما بالنفس من أمراض.

هكذا كان الإسلام يُخرّج المسلم الرسالي، الذي لا يلوم عدوه، ويجعله هو المتسبب في كل ما يحدث، بل يلوم نفسه أنه عصى القيادة، أو لم يعد العدة، أو لم يتحر الإخلاص والصواب والوعي معاً... إلخ.

هكذا كان الإسلام يصنع المسلم الرسالي، الدقيق في حركته، والمتتبع والمتبع لسنن الله في الكون، الذي يعالج خطأ نفسه، ويغير ما بنفسه، ويصحح ويتطهر مما كسبت يداه، ثم يعمل على تغيير المجتمع حتى يدور في فلك الرسالة.. وعندها يُغير الله ما حل بهم من أعراض وآثار وظواهر نشأت – من الأساس – عن تخلي المتجمع عن رسالته: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى : 30] ﴿ **إِنَّ اللَّه لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد : 11] ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّه لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[الأنفال : 53]

هكذا كان المنهج القرآني وهو يصنع ويُخرّج الشخصية المسلمة، وأهم سمات تلك الشخصية هي "التوازن" فلا الإنسان يُبرأ نفسه تماماً، ويلقي اللوم على عدوه، ولا هو يجلد ذاته ويعذب ضميره في وساوس وهواجس تقعده في النهاية عن العمل.

بل بكل بساطة ورفق، يُوجهه للمشكلة، والحل. **المشكلة**: خلل في النفس. **الحل**: معالجة الخلل والمضي في الطريق.

وفي محاولة التبرير.. تهرب نفوسنا من المسؤولية والمراجعة ، وتهرب من تحمّل التبعات ، ومعالجة الأخطاء.. إنها فقط تكتفي بالصراخ وإثبات وحشية العدو ! لأنه يبدو عملاً سهلاً أمام الشجاعة في مواجهة النفس ! إنه نفس هروب ابن آدم – الذي قتل أخيه – من مواجهة نفسه !

والمنهج القرآني يُوجهنا بكل حسم ودقة ووضوح: "**مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ**" "**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**"

يقول المنهج القرآني راجعوا :

- إخلاصكم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.
- صوابكم في الأعمال.
- وعيكم بظروف جيلكم.
- سنن الله في كونه.
- فتشوا في أمراض نفوسكم.

- كرروا المراجعة والبحث في النفوس عن الخلل.
- تحلوا بالشجاعة والصبر في مواجهة أمراض النفس.
- استعلنوا الحقيقة وعلّموا قومكم طريق الله، وصراطه المستقيم.
- اجتمعوا على تصحيح القيم والموازين والتصورات والمفاهيم والأخلاق.
- أحسنوا "إعداد القوة" المناسبة والمكافئة لمواجهة الباطل.

ولكن تتفلّت النفس من هذا الإصلاح عبر التوهم بأن العقوبة والاصطدام بالسنن الإلهية هي "محنة" تحمل في داخلها "منحة" ربانية؛ وبهذا يتم دفن الجثة بلا تحقيق ! وبهذا تضيع الفرص، ويضيع الاستفادة من تجارب هذه الفرص.. فتتكرر الأخطاء بنفس الطريقة، وبنفس الأسلوب !.

❋ ❋ ❋

ومكمن الخطورة في الفكر التبريري:

- تطهير ساحة النفس وتقديسها، وتبرأتها من الأخطاء.. الأمر الذي يقطع الطريق على سنن الله في التغيير.
- إلقاء اللوم على العدو، الذي تتضخم قوته يوماً بعد يوم، بينما النفس قاعدة عن العمل – بإخلاص وصواب – فهي تدعي أن بريئة من أي مسؤولية.
- نشوء الشخصية الارتجالية الاتكالية التي تنتظر معجزة من السماء.
- استهلاك الطاقات والأعمار والأموال في الحديث عن مساوئ العدو، والإفراط في الحديث عنها.. والاكتفاء بذلك دون اتخاذ خطوات المعالجة في داخل النفس ومجتمعها، والاستعداد المناسب لخوض المعركة مع هذا العدو !
- العقم الفكري أمام النظر في سنن الله في الكون والحياة والإنسان.

- التخلّف عن علوم النفس والواقع والمجتمعات، وتَحول الكتاب والوحي إلى مجرد تلاوات عذبة وأمنيات كاذبة ! يُستكثر فيها بحفظ القرآن الكريم، وكتب السنن.. والاكتفاء بذلك، دون التدبر والفهم اللازم لمعرفة صراط الله المستقيم !.
- التخلّف عن طريق الله، وصراطه المستقيم.
- تفاقم المشكلات، وزيادة آثارها وظواهرها دون معرفة مكمن الخلل، وكيفية التصحيح وبداياته.
- ذهاب الدماء والأرواح في طرق خاطئة، ومحاولات فاشلة.
- الفشل في إقامة الدين، وإعلاء كلمة الله، وتحكيم شريعته.
- الفشل في حمل رسالة الله إلى العالمين.(1)

وإصابة تيارات الحركة الإسلامية بهذا النمط من التفكير، والغلو فيه.. يحرق الطاقات والأعمار دون الوصول إلى الأهداف المرجوة، ويجعل تقديس الذات والجماعة مُقدماً على تصحيح الفكر، والاستقامة على صراط الله المستقيم.

* * *

(1) راجع – إن شئت – مقال: خطورة الفكر التبريري على بعث الإسلام من جديد.



"متلازمة التماهي للبقاء أو متلازمة التوحد للبقاء.. أو (متلازمة ستوكهولم) هي مصطلح يطلق على الحالة النفسية التي تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه أو من أساء إليه بشكل من الأشكال، أو يظهر بعض علامات الولاء له مثل أن يتعاطف المخطوف مع المُختَطِف.

وبدأ اكتشافها.. عندما تعرض بعض موظفي بنك - أغلبهم من النساء - في مدينة ستوكهولم عاصمة السويد إلى حادث سطو مسلح احتجزوا فيه كرهائن لمدة ستة أيام متواصلة، وعند محاولة إنقاذهم قاوموا رجال الأمن الذين يريدون مساعدتهم ورفضوا أن يتركوا خاطفيهم... بل إنهم - وبعد تحريرهم ورغم ما عانوه على يد خاطفيهم - دافعوا عن الخاطفين وعن مبادئهم بل وجمعوا التبرعات للدفاع عنهم أمام القضاء !!

وأظهر البحث أن الظاهرة شائعة إلى حد استحقاقها تسمية منفردة فقد سجل حدوثها في السجناء في المعتقلات السياسية، وضمن المدنيين في السجون الشيوعية الصينية...إلخ "[1]

والمتلازمة: مجموعة من الأعراض والسمات التي تُشكل حالة معينة ومستقلة بذاتها، وذات مصدر واحد، وتشير هذه العلامات والأعراض الى وجود حالة مرضية أو احتمال ظهور مرض معين.

ونلحظ - على الرهائن - من هذه الحادثة الغريبة الآتي:

(1) الخوف المفرط، والمشاعر الإيجابية تجاه المعتدي المتسلط.

(2) حالة من إنكار الجريمة، والمشاعر السلبية للضحية تجاه من يحاول إنقاذهم أو الوقوف بجانبهم.

---

(1) ويكيبيديا، ومصادر أخرى.

(3) حالة هروب من الضغط النفسي، و عدم القدرة على المشاركة في أي سلوك يساعد على تحرير الضحية أو فك أسرها.

(4) حالة من العجز الخارجي ضد الجناة، والصورة الايجابية للمعتدي تجاه الضحية، فيخدع المعتدي الضحية بأنه يفعل ذلك من أجل مصلحة الجميع، أو أنه صاحب قضية عادلة !.

(5) حالة من الدفاع النفسي الداخلي ضد الخوف عن طريق التماهي مع الجناة.

(6) حالة من التبرير تجاه المجرم والجريمة، و دعم وتأييد سلوك وتفكير المعتدي.

كل هذه الأحوال اجتمعت في نفس واحدة فأنتجت الآتي:

(1) الخضوع للجناة.. ثم (2) الحيل النفسية.. ثم (3) التكيف.. ثم (4) الحب.. ثم (5) الدفاع عن الجلاد !!

كان يمكن دفاعاً عن النفس من بطش الجناة.. أن يكتفي الرهائن بالاستسلام لهم - مع عدم الإقرار بالجريمة وإنكارها ولو قلبياً - ومطاوعتهم لحين تحريرهم.. لما عانوه من الضغط النفسي الشديد، والرهبة من الموت.. ولكن لماذا انتهت إلى "حب الجلاد والدفاع عنه" ؟!!

لقد ظهرت هذه المتلازمة في حالات خطف النساء.. أي كان العامل "العاطفي" هو الطاغي على هذه الحالة، وقد أدى الخوف المفرط إلى حالة مضطربة من العبودية والولع بقوة المعتدي.

وفي حال سحب هذه المتلازمة على المجتمعات التي تقع في "حب الجلاد"، ولا تريد الفكاك منه، بل وتعادي من يريد تحريرها ! فإن هذه المجتمعات تتعرض للقهر والاستبداد والفقر لمدة طويلة.. يكون فيها الرجل قد فقد القوامة المادية والفكرية والنفسية على الأسرة؛ ومن ثَم في المجتمع، وبغياب الرجل عن الأسرة فترات طويلة لطلب الرزق والمعاش في أحوال شديدة من الفقر والعوز، أو بسبب الاعتقال السياسي لسنين طويلة.. مع الإرهاب المنظم والممنهج من قِبل الطغاة والطواغيت ولمدد طويلة؛ تجعل الشعوب على علاقة خوف من النظام، ويصبح المجتمع ضحية النظام، فيعتاد على القمع والذل، لدرجة يخشى معها من التغيير للأفضل، ويظل يدافع عن النظام المتوحش ويذكر محاسنه القليلة جداً، دون الالتفات إلى مظاهر القمع والفساد الكثيرة جداً ! ويُبرر

له توحشه، وإرهابه، ويصبح لا يحترم إلا اليد التي ترفع السياط ! ويرى في اليد التي تريد تحريره الفوضى والإرهاب !!

والاستسلام للجلاد ثم الوقوع في حبه، ومن ثم تقليده ينعكس في بعض أشكاله على بعض جماعات الحركة الإسلامية.. فيروح فريق منها يبحث عن "مخرج شرعي" وتبرير فقهي لجرائم الجلاد، لتقع حالة من التماهي بين القوي (الجلاد) والضعيف، حتى يستمد الضعيف شعور القوة من جلاده، والشعور بحالة الأمان بمزيد من حبه – وقد كان له في الإنكار القلبي سِعة إن خاف إنكار اليد واللسان، ولكنه يرضى ويُتابع ويُقر ما عليه الطغاة ! – والهرب من حالة "الخوف المفرط" باللجوء والارتكان إلى الفسدة والفجرة، مما أظهر بين بعض أطياف الحركة ظاهرة "**الجاسوسية المجانية**" على المسلمين، وتفشي شعور استحالة القدرة على تغيير الواقع.. الأمر الذي يدفع إلى الاستسلام للطاغية، والتموضع فيه بلا أدنى مقاومة، بل وحرب كل من يحاول التغيير !.

كما تؤدي هذه المتلازمة إلى الافتتان بقوة الباطل، وتصديق دجله، والركون إلى الظالمين.. والرهان عليهم في أي مشروع تغيير، وعدم الإيمان الصادق بالحق المجرد، وبالأمة المستضعفة التي يمكن لها أن تكون عزيزة قوية لو أحسنت التوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، واتبعت السنن الإلهية.

وإصابة بعض أبناء الحركة الإسلامية بهذه المتلازمة يمثل خطورة شديدة عليها.. إذ حامل هذا المرض لا يصلح أن يكون عاملاً لهذا الدين، فالتركيبة النفسية لديه ستُسبب له انقلابات نفسية خطيرة؛ قد تدفعه إلى حرب الحركة ذاتها، وتسليمها للعدو، كما يشيع جو من الانهزامية والاستسلام، فهذه الشخصية ليست إلا مجرد ذيول الأقوياء، ولا تصلح لبناء القوة، ولا مقاومة الظلم.

ومعالجة هذه الشخصية يحتاج إلى جهد كبير، وصبر طويل لأن النفس تكون في حالة من السيولة لا التماسك، وقابلية شديدة للاستضعاف، وتَشرّب الدجل، ورهبة شديدة من أي بطش للعدو.. والإحسان إليها مطلوب، وإبعادها عن أي منصب قيادي أو توجيهي ضرورة، والحذر من انقلاباتها أمر محتوم.(1)

❋ ❋ ❋

(1) راجع – إن شئت – مقال: وإن ضرب ظهرك.



تلعب الخطب العاطفية والحماسية والوعظية التي تجيدها الغالبية العظمى من قيادات الحركة الإسلامية دوراً كبيراً في صناعة الوهم، واستهلاك المشاعر، واستنزاف الخطاب الصادق، فأسلوب الخطاب لأبناء الحركة الإسلامية، وللأمة عموماً هو: "خطاب عاطفي" يغيب عنه تحليل الواقع التحليل الصحيح، وفهم الواقع بأدوات الفهم الدقيقة، وتشخيص أمراضه، وعلاجه بالوسائل المكافئة.

فالناس تمل من هذا الخطاب التحليلي.. إنها تريد البكاء ! لتفريغ الشحنة العاطفية، والشعور بالقهر؛ إنها لا تريد الحل، ولا تصبر على تكاليفه، ولا تخطط من أجله، إنها تنتظر حلاً سحرياً ليس فيه تكاليف، وليست لها فيه فاعلية.

والقادة بدلاً أن تُعلم الناس الصبر على سنن التغيير، والهمة في أخذ الخطوات الصحيحة على الطريق، فإنها تستجيب لإرادة الجماهير، وما يطلبه المستمعون !

وعندما يطول الزمان، وتكثر المصائب – والعياذ بالله – يتساءل الناس: متى التمكين؟ متى نصر الله؟ كأنه أجهدهم عناء المضي في طريق التغيير، وقطعوا أشواطاً طويلة على صراط الله المستقيم! والله جَلَّجَلَالُهُ يلوم على العجز كما جاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ اللَّهَ لَيَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، فَأَنِلْ مِنْ نَفْسِكَ الْجُهْدَ**"[1] فلا بد من "الجهد والكيس" في استفراغ الوسع، ثم حسن التوكل على الله بعدها، وليس مخادعة النفس وتخديرها.. كمثل الذي يطلب النصر بلا أن يكون في معركة ابتداء، بل ولا حتى في مرحلة لإعداد القوة ! وإن هي إلا مجرد أماني وأوهام.

---

(1) [مسند الشاميين/ 422، سنن أبي داود/ 3627]

وبدلاً عن إدراك الفرصة وكشف الحقيقة للناس.. يخرج بعض الشيوخ والقادة مرة ثانية لترسيخ الوهم، وصناعة الضعف.. عبر التأكيد على صحة موقف الناس، وأن النصر تحت أقدامنا قادم لا محالة، وإن هي إلا سويعات الابتلاء! وفي الحقيقة تكون هي "العقوبة" نتيجة التخلّف عن سنن الله التي لا تحابي أحداً، ويُوهمون الناس ببعض النصوص الشرعية، وإخراجها عن مواضعها، وسياقها، وشروطها.. ليُنزلوها على أنفسهم وعلى الناس ! ويتكون لدى البعض شعور أنهم "أبناء الله وأحباؤه" وأن نصر الله سينزل عليهم لمجرد أنهم بالله يؤمنون ! بل ويستعينون بالرؤى والأحلام لتأكيد صحة موقفهم، فلا تكون إلا جرعة تخديرية للعقل !

فلا تلبس أن تقع صدمة الهزيمة، التي ربما قد تأخذ البعض إلى الكبائر والإلحاد - والعياذ بالله - وفقدان الثقة في كل شيء.. بعد صناعة الوهم، وانتظار الناس لحظة التمكين في ذات الوقت الذي يُساقون فيه إلى المذابح، وبعد المذابح لا يستفيقون ! وي كأنهم يتلذذون بالمحنة، ويعيشون فكر المحنة لا يريدون الخروج منه أبداً، مهما أكرمهم الله بالأموال والأنفس والأفكار !.

كما يؤدي صناعة الوهم إلى قتل الأفكار الفاعلة، والمؤثرة، واستبدالها بالأفكار الميتة، التي لا حياة لها إلا بين الأموات.. ونقول "صناعة" الوهم، لأنه ليس مجرد رأي باطل، أو فكرة ميتة تمر مرور الكرام على حركة دؤوبة وعمل رشيد، بل لأن الوهم والضعف أصبح تخصص وصناعة ينزع كل فكرة ثورية، وكل عمل يستهدف التغيير الحقيقي الجذري، ويستبدله بصورة وهمية من أفعال عبثية، ويترك شباب الحركة الإسلامية لقمة سهلة تُذبح في صمت بلا مقاومة، وتُقدم قرباناً للطغاة والطواغيت باسم "الوسيطة والاعتدال واللا عنف" بعدما استبدل البعض فكر "إعداد القوة والاستعداد للمواجهة" بالفكر الغاندي وأمثاله، فبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلّوا قومهم دار البوار !.

* * *

كما يتصور البعض "مرحلية" العمل الإسلامي بصورة خاطئة.. وبالتالي يترتب عليها نتائج كارثية، فقد يتصور البعض أن عليه أولاً إصلاح الأخلاق والعودة إلى الإسلام هكذا دون تحديد لسقف محدد، أو خطة واضحة.. ويقول لأتباعه: "إن أصلحنا أنفسنا سينصلح العالم، وننتصر على الأعداء"!

وبمرور الوقت يتحول الأمر إلى صورة من "الانعزال والدروشة" وفي النهاية لا يتمكن من التغيير الاجتماعي المنشود، بل يعيش على الهامش..

فيتحول العمل الإسلامي والحركة الإسلامية إلى حركة "تنويم" و"تفريغ" لطاقات الشباب، وحصرهم في حظيرة من الأوهام، والمعارك الفارغة، والصراعات البينية، وفي فضاء متوهم، يُسعد كل عدو، فلا يُمثلون أي خطر على الباطل وأهله، بل يركبهم الباطل، ويُوظفهم لخدمة دجله وطاغوتيته وإفساده !!.

ولا يتصور أنه لا بد من المضي في مسارات متوازية.. فلا بد من الأخلاق والدعوة إلى الإسلام، ولا بد في ذات الوقت من إعداد القوة، ومواجهة واقع الباطل بالوسائل المكافئة له على جميع المسارات بلا تأجيل، فالباطل لن يترك دعوة إلى أخلاق أو دين يهدد وجوده دون محاربته.. ولا بد أن يكون هذا في الحسبان ونحن نخطط استراتيجياً لمشروع التغيير.

* * *

وهناك من يعيش رؤية سوداوية لكل حركة وإنجاز للمسلمين، فلا يرى أي إنجازات على الطريق، ولا يقبل بأي خطوة مرحلية.. بل لا يريد إلا حلاً كاملاً جاهزاً يأتي دفعة واحدة في ضربة واحدة ! لذا فهو يرفض محاولات التغيير، وييأس من الإصلاح، ويفقد الأمل، ويرى كل جهد بعين الفشل، أو بعين المؤامرة..

وقد يستعين بقول مفكر أو عالم مضى على أقواله ربما نصف قرن، فيروح يرى واقعه من خلال كلام المفكر، دون أن يشعر الفجوة الزمنية الحاصلة، ولا تطورات الواقع، ولا التحديات الجديدة؛ فيكون عامل إحباط، وخبل لأي حركة أو تربية أو دعوة.

وهناك من ينتظر "طلب النصرة" من الأقوياء ليتحرك ويمضي في بناء الحضارة الإسلامية، وهو انتظار لوهم لن يأتي أبداً، فالمسلم – العامل لدينه – لا ينتظر شيئاً بل يمضي في طريق دعوته وجهاده وسياسته قدر الوسع والطاقة، مستكملاً ما يستطيعه من السنن، مستعيناً بالله، يمضي بخطوات على الطريق، يصنع القوة لا ينتظر أن يمنحها له أحد.

وبذلك يكون صناعة "**الوهم**" على مستوى الإيمان والفكر، وصناعة "**الضعف**" على مستوى الحركة والسلوك، والتخلف عن إدراك القوة بأدواتها المعاصرة، وعدم الاستثمار فيها، أو استغلال الهامش المتاح، وفي كل مكان أحسب أنه يوجد فرصة، ويوجد هامش يمكن استغلاله وتوسيع رقعته، ولكن روح القوة والعزيمة والمواجهة غير موجودة ابتداء.. بل هو الاستسلام للطغاة والطغيان أو المهادنة أو المشاركة معه، ذلك لأنه لا يوجد استقلالية، أو المشروع الطموح الذي يريد لهذه الأمة السيادة والريادة العالمية، ويريد إخراجها من جديد عزيزة قوية.

❊ ❊ ❊



التحديات التي تواجه أي حركة إسلامية هي تحديات عالمية، ذلك أن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي تتحدى حضارة الغرب العلمانية القائمة الآن، وترفض الاندماج فيها، أو الاستسلام لها.. والغرب يدرك تماماً مدى خطورة وعودة الإسلام من جديد كشريعة ودولة وحضارة كما كانت في السابق، لذا فهو يحشد كل قواه الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية لمنع أي عودة للإسلام في صورته الراشدة، أو حتى صورة "الملك العضوض" ! ولا يقبلون من الإسلام إلا التصور العلماني عن عموم الأديان، حيث ينحسر في زوايا المسجد، وفي مجال حرية الاعتقاد، وعزله تماماً عن أي دور في حياتنا.[1]

وإن أي حركة تقوم باسم الله، وباسم شريعته لمقاومة الظالمين والطغاة، دون أن تدرك عمق أهدافها، وعظيم مسؤوليتها، وقدر التضحيات التي ستواجهها، وسنن قيام هذه الدعوات، وتحافظ على حيويتها اللازمة طوال هذه الرحلة؛ حتى تصل إلى الجنة التي وعدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَن يحملون منهج هذه الدعوة.. عندما لا تدرك ذلك، فإنها لا تلبث أن يساومها أهل الباطل أصحاب السلطان والمال على دعوتها..

يساومونها من خلال دراسات عميقة، ومعرفة يقينية بخطورة منهج الحياة الرباني لهذه الدعوة الذي يهدد مصالحهم ووجودهم، بل لقد أصبح لمنهج المساومة هذا، هيئات ومؤسسات ترسم شكل المساومة وحدودها حسب طبيعة الزمان والمكان، وحجم الدعوة ودرجة فاعليتها.

* * *

(1) راجع – إن شئت – مقال: المبدأ العلماني.

وإن هدف أي حركة إسلامية حقيقية هو: عودة الإسلام كشريعة وحضارة ودولة وهوية ومنهج حياة قائم على التوازن بين الروح والمادة.. ولهذا فأي حركة إسلامية صادقة تُعتبر في ذاتها تهديداً للحضارة العلمانية الغربية، والحرب على الإسلام، والحركات الإسلامية من قديم، إلا أن أخطر هذه الحروب هي: "توظيف الإسلام ذاته في حرب الحركات الإسلامية" !.

ومازالت هذه الحروب تستهدف أمرين:

الأول: استغلال اختلافات الحركات الإسلامية في ضرب بعضها ببعض.

الثاني: العمل من خلال خطة العدو.

فأما في مسألة ضرب الحركات الإسلامية بعضها ببعض فيتم عن طريق استغلال فشل هذه الحركات نفسها في "إدارة الاختلافات" فيما بينها، مما سهّل على العدو الاستثمار في إفساد ذات البين، وإشعال المعارك الجانبية والبينية بين أصحاب الأهداف الواحدة، ومن جانب آخر محاولة لسحب الشرعية الجماهيرية والدينية عن هذه الحركات عن طريق رجال الدين الرسميين، وغير الرسميين التابعين للطغاة والبغاة، ليُكَّونوا البديل الديني عن الحركات الإسلامية.

وغفلة الحركة الإسلامية عن ذلك جعلها هدفاً سهلاً لكل عدو، يستغلها ويركبها ويستنفذ حاجته منها، ثم ينسفها نسفاً في النهاية ! **مما يؤدي إلى:**

- الإقدام على مغامرة غير محسوبة العواقب.
- أو انغماس الأفراد في الأمر الواقع، وبناء مصالح مشتركة مع العدو، وترك مشروع التغيير كله، وتبدل الفكر.
- أو الانكفاء على الذات، والانسحاب من دائرة التأثير والعمل.

فأصبح من السهل غوايتها، واستغلالها، وخداعها.. **فيعمد الطاغية** – مثلاً – إلى جماعة ما؛ فيَعدها ويُمنيها بالأوهام والأكاذيب، ثم يركبها لتُحقق له بعض الأغراض السياسية، ثم إذا رفعت يدها لتأخذ الجائزة.. قطع رأسها، بعد أن تكون كشفت كل أوراقها للعدو !.

ويعمد الطاغية إلى جماعة ما؛ ليستغل مكانتها العلمية والجماهيرية في استصدار الفتاوى المؤيدة لبغيه وظلمه وعدوانه وعمالته، حتى يظهر بمظهر المدافع عن الدين وحامي حمى الإسلام، وتظن الجماعة بالطغاة والفسدة خيراً، ثم إذا انتفت الحاجة إليهم اعتقلوهم وزجوا بهم في غياهب السجون.

ويعمد الطاغية إلى جماعة ما؛ ليستغل حميتها للجهاد، والثأر للإسلام، فيمولها علناً أو سراً؛ ليتخلص بها من خصومه، وأعدائه، أو ليساوم بهم في لعبة سياسية قذرة، حتى إذا انتهى دورهم.. تم القضاء عليهم جميعاً.

مما يوضح سهولة الاستجابة لدجل العدو، وأوهامه، وتوهم مصلحة شرعية أو سياسية لا تأتي أبداً.

* * *

وأما "**العمل من خلال خطة العدو**" فهو: أن يرسم العدو خطة محكمة من البداية، أو يرى بذورها في رحم الأمة، فيعمد إلى توجيهها وتوظيفها بما يخدم خطة العدو.. دون أن يشعر المخدوعون بذلك.

ولعل "الفكر التكفيري" هو من أفضل ما يجيد العدو استغلاله، فإنه يبارك هذا الفكر ويُشجع عليه، لما يُسببه من أزمات خطيرة في الأمة، ولما يُحدثه من إفساد الصفوف، ورفع السلاح على أبناء الأمة، وإخوة الدرب، فيجعل الأمة تنفر من أي محاولة للتغيير، وتُفضل وضعها الحالي عن هذا الصراع.

وهو يشعل المعارك بين طوائف الأمة المختلفة، ويجعلها لا تلتفت إلى العدو الحقيقي.. والعدو أجاد في الماضي اللعب بهذه الورقة، وترك للجهلاء مساحة كبيرة من العمل؛ لينفذوا له خططه – دون عمالة منهم – بل خدمة مجانية سببها الجهل والكِبْر، ثم يقضي عليهم في النهاية !.

* * *

كما يتم إضعاف وإفساد "الفعل الحركي" للعمل الإسلامي، والدعوة الإسلامية عن طريق "التحكم والسيطرة" على بعض القيادات التي يتم اختيارها وفرزها داخل المعتقلات، حيث تكون

المعتقلات محطة لـ "التحليل النفسي" و "الاختراق الفكري والأمني"، إضافة إلى العناصر الأمنية التي تصنعها الأنظمة الطاغية، وتُدخلها إلى الحركة الإسلامية، للتوجيه والتجسس !!

وتعمل القيادات التي يتم التحكم فيها - إما فكرياً أو مادياً - على توجيه الشباب والعمل الإسلامي بما يصب في مصلحة الأجهزة الأمنية - ومن ورائها الأنظمة الفاسدة - وبتوجيه مباشر منها، حتى من حيث اختيار القيادات، وإجابات الفتاوى، وتحديد الموضوعات الفكرية، وإطار الحركة؛ فيتحول "العمل للإسلام" إلى العمل "للطغاة والطواغيت" وباسم الإسلام ذاته !!.

ويتم إعداد "كوادر" - تحت عين الأجهزة الأمنية - على نمط معين، ونسق محدد.. واختيار نوعية من الشباب لديهم قابلية للطاعة العمياء، وتم السيطرة النفسية والمالية والاجتماعية والفكرية عليهم، وينجذب إلى ذلك الشباب الذي يعاني فراغاً عاطفياً وأسرياً أو ظروفاً مادية صعبة أو من لديه نهم للشهرة أو المال، ليكون "الشيخ أو القائد" بديلاً عن الأسرة، فيكون هو الشيخ والأب، وبذلك يتحول الولاء إلى "شخص" الشيخ والقائد، وكلامه فوق كل كلام، ورأيه هو الحق المطلق، ومن ثم يتم القضاء على القيم المعنوية، وطرد وتصفية الكفاءات المخلصة والمبدعة..

ومن الشباب من ينخدع بهذا الدجل، ومنهم من يعرف أنه دجل، ويمضي في طريق الدجل لأن مصير حياته المادية والأدبية ارتبط بشكل مباشر بهذه القيادة، والقيادة هي التي تملك "صك الغفران والحرمان" فيكون الاستسلام لها أشد، وتملقها ونفاقها أقرب طريق للوصول ووراثة القيادة؛ وبذلك يصبح هذا النوع من العمل صد عن سبيل الله، وطريق إلى جهنم والعياذ بالله.

* * *

والوعي بخطورة العدو، وأساليبه، وكيده، ومكره المحلي والعالمي، وفهم طبيعة المجرمين وسُبلهم، وفهم رسالة الإسلام، والتحديات الحضارية التي تواجهنا، وقبل هذا وذاك الإخلاص والتجرد الكلي لله جَلَّجَلَالُهُ، من شأنه أن يَحُول دون استغلال الأعداء، وتوظيفهم للحركة الإسلامية لتحقيق أغراضهم، وإلحاق الضرر بالإسلام ورسالته.

* * *



عندما تفشل الحركة الإسلامية – وأي حركة – في تحديد خريطة الأعداء، وخريطة الأصدقاء.. فقد تتخذ العدو صديقاً، والصديق عدواً، فيُؤتمن الخائن، ويُخون الأمين ! وقد وقع ذلك الأمر من بعض أطياف الحركة الإسلامية؛ لتُكوّن صورة مثالية من "الغفلة والرعونة".

إن أي حركة قامت من أجل إعادة هذا الدين إلى الحياة كشريعة ودولة وحضارة وثقافة وفكر وهوية جامعة لا شك أن لها أعداء في الداخل والخارج، والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يُفصل لنا الآيات لنَستبين سبل المجرمين: ﴿ **وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[الأنعام : 55]

والتسلسل التاريخي لواقع أمتنا المسلمة، وما أداه الاحتلال الغربي – ذو النزعة العنصرية الصليبية– من أدوار خبيثة في بلادنا على كافة المستويات، وما تركه لنا من عملاء وخدم يتبعون أمره، ويُفسدون علينا أمرنا.. يجعلنا أمام تحدياتٍ كبرى، وواقعٍ مُلغم من كل اتجاه !

وإن النظر بدقة في هذه الأحداث التاريخية والواقعية يكشف لنا عن مدى خطورة الحالة التي نحن فيها، وعن مدى شدة التحكم فينا، وتوجيه مسارات الحكم والحياة بما يخدم مصالح الأعداء في الخارج، ويحقق أطماع المجرمون المرتزقة في الداخل، ويُكبل الشعوب عن أي سيادة وتحرر.

والحركة الإسلامية الصادقة لا شك أنها تُمثل تهديداً وجودياً لكل الأنظمة الفاسدة والعميلة – هذا إذا صدقت الحركة، ولم تَفسد هي الأخرى بعدوى هذه الأنظمة – وهذه الحركة الإسلامية يتم التعامل معها بمنتهى الوحشية واللا إنسانية، باستخدام أحط الوسائل في استئصالها والقضاء عليها.

ونشأ في الحركة الإسلامية اتجاهات عدة في التعامل مع هذه الأنظمة:

- اتجاه يعطيها الشرعية كاملة، ويجعلهم ولاة أمور شرعيين.
- اتجاه ينازعها الشرعية، وينافسها على الهامش المتاح.
- اتجاه يُكفّر كل من يقترب من منظومة الحكم والحاكم أو يشارك فيها.
- اتجاه ينعزل تماماً، وينكفئ على نفسه، وينتظر الخوارق والمعجزات.

وجعل كل فريق يستدل لصحة موقفه من أخطاء غيره.

فمن يشاهد حالات الغلو في التكفير، يقول إن إعطاء الشرعية لهم هو الصواب. ومن يشاهد الظلم والفساد، يقول تكفيرهم هو الواجب، ومن يشاهد أخطاء هؤلاء وهؤلاء ينظر لنفسه على أنه الوسطي المعتدل !.

فأما الاتجاه الذي يعطي الشرعية كاملة للطغاة: فهو محض الباطل والدجل؛ فلا شرعية للبغي، ولا للظلم، ولا للفساد، ولا للتغلب الجبري، وهذا اتجاه "التوافق الكلي مع العدو"..

وأما الاتجاه الذي يُكفر الجميع: فالتكفير ليس طريق التغيير، بل هو باب للفرقة والاختلاف، والهدف ليس التكفير إنما البناء والجهاد.

وأما الفريق الذي ينازعها الشرعية: وهو من يحسب نفسه على وسطية واعتدال بين الموقفين السابقين، ولكنه يقع في "إحسان الظن بالعدو" لأنه يحسب أنه عندما يمتنع عن تكفيره، فإنه بالضرورة يكون مؤمناً يجب إحسان الظن به ! وتصديق وعوده، ومن ثم يتهاون في التعامل معه، ويجعل له حقاً في التوجيه والقيادة..

ومن ثم تنشأ حالة من "التراخي" الفكري والحركي.. وحالة من "الشعور بالأمن" عندما تُصدق وعود الظالمين، وعندما تنخدع في معسول كلامهم، أو سمتهم المزيف، كما تظن كذلك أنه يمكنها محاولة "الإصلاح من داخل النظام" وأن مجال عملها هو إصلاح النظام.. رغم فساده فساداً لا يُرجى معه صلاح، وأن بنيته العلمانية تَحول دون إصلاحه، ولا تفكر في إنشاء نظام جديد يقوم على

هوية إسلامية صافية، وشرعية ربانية حاكمة في كل المؤسسات، وحاضرة في الفكر والشعور، والتصور والسلوك، والتشريع والقيم، والنظام والثقافة.

وأما الاتجاه الذي ينعزل تماماً: فهو يأخذ "إجازة مفتوحة" لحين ظهور المهدي !.

❋ ❋ ❋

والعجيب في ذلك أن الأنظمة الظالمة الباغية ترسم بدقة خريطة أعدائها، وتضع على القائمة الحركة الإسلامية، ثم بعد ذلك تجيد التلاعب بها، وتحوير أهدافها، وخداعها، واستغلال تناقضاتها.. بعد دراستها دراسة علمية دقيقة، وفهم نفسية قيادات الحركة حتى تجيد التلاعب بها.

فرجال الاستخبارات الفكرية في هذه الأنظمة الفاسدة يَدّعون السمت والخلق الإسلامي، فمثلاً يتظاهرون بالصلاة والحج بل وصوم النوافل.. فأحياناً يَدْعون قيادة إسلامية للقاء ودي ثم يُضيفونها، ولا يتناول رجل الاستخبارات شيئاً من الشراب والطعام بزعم أنه صائم ! وعندما ترى القيادة الإسلامية هذا التدين والخلق يتهم نفسه، ويحسن الظن بالعدو، ويتخلى عن يقظته وحذره.. ويُسلّم له كل شيء !

وإحسان الظن هذا يأتي على كوادر الحركة الإسلامية، ويذهب بتضحياتها سدى، ويُغرقها في التيه، ويجعلها تبحث عن "النقاط المشتركة" مع العدو للتوافق حولها، ولا يكون هناك توافقاً من الأساس، بل هي حقول ألغام، وعمليات تمويه وخداع.

ثم بعد وقوع إحسان الظن بالعدو، يقوم هذا العدو بتوظيف المخدوع لضرب باقي أطياف الحركة الإسلامية، ويزرع في قلبه "**نفاق البراجماتية**"؛ فيشيد العدو بأهمية رجل الحركة الإسلامية، وعظيم أهدافه، ودوره.. ثم يتسلل إليه من جانب آخر ويقول له: ولكن الجماعة الأخرى من الحركة الإسلامية تُفسد عليكم عملكم، وتُمثل خطورة على الجميع، ويجب محاربتها فكرياً، وكله من أجل "مصلحة الدعوة" فيُحول المسلم سلاحه نحو أخيه، ويترك عدوه !!.

وإن معرفة الأعداء لسنا بحاجة فيها إلى إشهار "سلاح التكفير"، ولا "سلاح الشرعية".. بل معرفة سُبل المجرمين، ودراستهم دراسة واعية، حكيمة، دقيقة..

وليس معنى الحكم لعدو بظاهر الإسلام أنه يعطيه الحق في الظلم والبغي والعدوان، ولا يكون لحكمه أي شرعية حتى يقوم بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما أن الحكم للمنافق بظاهر الإسلام لا يعني أنه يحق له أن يكون في سدة الحكم،[1] وفي يده دفة التوجيه والقيادة؛ لأنه – في هذه الحالة – سيتحول بالمجتمع كله نحو النفاق والبغي والظلم والإفساد.. هذا إذا كان الحاكم ونظامه مستقلاً وسيد قراره، فما بالنا إذا كان الحاكم ونظامه مجرد عهدة وأداة استعمارية للعدو المحارب المحتل؟! فسُوء الظن هو المُقدم، والحذر يكون على أشد ما يكون، والاستعداد للمواجهة والصدام مرحلة لا مفر منها.

* * *

(1) بل جاء التحذير القرآني بعدم اتخاذهم بطانة أو أولياء: ﴿ **وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً** ﴾ [النساء : 89] راجع – إن شئت – "تفسير المنار" في سورة النساء، قوله تعالى: ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ** ﴾.



يكاد يكون أصعب شيء على الإنسان – في واقعنا المعاصر – أن يعرف "الحقيقة" كاملة كما هي ! فالحقيقة تختفي تحت المصالح السياسية، والعصبية المذهبية والحزبية، ثم إذا ظهر منها شيء يتم توظيفه بما يخدم مصالح الطائفة والجماعة.. والجميع يُقدِّم مِن الحقيقة ما يخدم فكره، أو يؤيد حركته، أو يؤكد مذهبه..

فلا نكاد نجد شهادة خالصة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، تتجرد لله وحده بعيداً عن أي مصلحة أو تعصب.. ولو قال كل إنسان شهادة الحق خالصة لله، ما احتجنا إلى كثير من الصراعات، والتنازعات، ولا غرقنا في التيه، وما احتجنا لأطنان من الكتب التي ترد على الخصوم، ويقوم الخصوم بدورهم بالرد عليها.

وعندما تصبح الحقيقة شهادة للذات لا لله.. تتمزق تلك الحقيقة بين الأطراف المتصارعة والمتعصبة، ويَشهد كل طرف لنفسه، ويُبرأ ساحته، ويُقدس حزبه.

والحركة الإسلامية يُفترض أنها ما قامت إلا من أجل إحقاق الحق، وبيان الحقيقة، ودعوة الناس.. ولكن وجدنا من سلوكها البراجماتي – النفعي – أنها تمارس ما يمارسه فسدة الساسة، من التلاعب بالحقيقة وتوظيفها بما يخدم مصالحهم الآنية، لا بما يخدم الحق والعدل، ولا بما يخدم عموم الناس.

ولا شك أن الشهادة للذات باستخدام الدين والعاطفة الدينية هي شهادة زور على دين الله، وشهادة بالباطل، وقد أخذ الله علينا العهد في أن نقول بالعدل ولو على أنفسنا: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[الأنعام : 152].

ومن الحيل الشيطانية المعروفة "تزيين العمل" فهو لا يُصور لمن يشهد للذات لا لله أنه يرتكب جريمة في حق دين الله، إنما يُصور له أن ما يفعله هو من أجل خدمة الإسلام، ومصلحة المسلمين؛ حتى يستريح من وخز الضمير، أو اليقظة في لحظة إشراق الروح، أو المراجعة عند وقوع الكوارث.

كما يتصور البعض أن في الشهادة للذات، وفي إخفاء الحقيقة.. مصلحة لجماعته، ودفاعاً عنها ! ولا يكون ذلك أبداً؛ بل إن هذه الشهادة الباطلة تضر أول ما تضر الجماعة، وتُبقي أمراضها لتنتشر وتتعقد، ثم تنهار فجأة، بينما الشهادة لله، من أجل الله، ابتغاء مرضاة الله وحده لا شريك له هي التي تحافظ على الحركة حيوية وصحية وصادقة وشجاعة؛ وتجذب إليها – ولو بعد حين – كل مخلص وأمين وكريم.

* * *

وإن الطريقة التي يتم بها إخفاء الحقيقة – أثناء الشهادة للذات وللجماعة – تُحير العقل، وتجعله يقع في التناقضات، ومن لا يصبر على البحث عن الحقيقة لن يصل إليها.. بل سيصل إلى أجزاء مبتورة منها، لم تظهر إلا لخدمة الجماعة أو الدفاع عنها؛ فنعرف جزءاً من حقيقة ما، دون الحقيقة الكاملة.. ولم يظهر هذا الجزء إلا من أجل إخفائها عن الناس أو توظيفها براجماتياً..

وإن تمزق الحقيقة، وإخفاءها، وضياعها – للدفاع عن الذات والجماعة – يُضيع علينا الاستفادة من تجارب الماضي والحاضر، ويجعلنا نكرر في المستقبل نفس الأخطاء دون أن نشعر، ويجعلنا نبذل جهوداً مضاعفة مضنية للبحث عن الحقيقة كاملة، واستخلاصها من بين الأهواء والصراعات والكتمان.

وإن الشهادة بالحق لا بد وأن تكون مستقيمة على صراط الله المستقيم، **وفيها يجب:**

- ذبح الذئبان الجائعان اللذان في القلب: [ذئب الشرف والعلو والرياسة على الآخرين، وذنب المال والغنى][1] فهما مدخل الهوى والضلالة.

(1) كما جاء في الحديث الشريف: "**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**" [جامع الترمذي/ 2376]

- القيام لله بالحق والشهادة بالقسط، والقيام بالقسط والشهادة لله جَلَّجَلَالُهُ.
- أن تكون الغاية هي "الرحمة والقسط"، فيتحقق الحق والعدل الرباني.
- استفراغ الوسع والجهد في إبصار الحق، والتحقيق في الأقوال عند جميع الأطراف.
- عدم استخدام الإرهاب الفكري والاغتيال المعنوي في الهجوم على الخصوم.
- عدم اعتقاد حكم مسبق أو بالجملة والعموم، وعدم البحث عن حجة لموافقة الهوى أو جعل الشرع في خدمة الهوى.
- عدم اعتقاد حق مطلق أو باطل مطلق في جماعة من المسلمين، فلا بغي على المخالف بغير وجه حق.
- عدم الطغيان في طلب الحق: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ** ﴾ [هود: 112].
- عدم التفريط في الحق بالركون إلى الظالمين: ﴿ **وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ [هود: 113]؛ فلا طغيان ولا ركون إلى الظالمين.. لا إفراط ولا تفريط.

* * *

إن الأديان الوضعية، والأديان السماوية المحرفة، والأحزاب السياسية، والتجمعات الفكرية والطائفية.. كل منها يَشهد لنفسه ولجماعته، ويدفع عنها - ولو بالباطل - أي نقيصه.. إلا أن الدين الإسلامي شعاره "العدل الصارم" و"الإنصاف المطلق" ولو على أنفسنا أو أقرب المقربين، وهذا هو سر بريق وعظمة ونور هذا الدين، فإن انتفى عن أتباعه هذا النور، فقد أصبحوا عبئاً على هذا الدين، وليسوا دعاة له.. بل يصدون ببغيهم عن دين الله الذي قال: ﴿ **وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ** ﴾ [الطلاق : 2] ﴿ **كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ** ﴾ [المائدة : 8] ﴿ **كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ** ﴾ [النساء: 135]

* * *



ولعل البعض – وأنا منهم – يتعجب من هذا الانحراف، فقد يُظن أن الانحرافات هي انحرافات خفية دقيقة في الفكر أو في النفوس، يُخفيها السمت الإسلامي، ولكن طفح على السطح حالة السباب والشتائم بأقبح الألفاظ في سلوك مُهين لمن يدعي التدين والعمل لهذا الدين !.

وللأسف تمت الشرعنة للسب والشتم، والبحث عن أدلة شرعية تؤيد صحة هذا المسلك !.

والإنسان المؤمن إنما علامته وشعاره هو حسن الخُلق، وهو كذلك رصيده بين الناس.. فإن نزل لمستوى الرعاع بسلوك مسلك السب والشتم، فلن يتبق له رصيد عند أحد.

وهذا السباب والشتائم لم يكن موجوداً في السابق، بل كان السمت الظاهر يغلب عليه طابع الاحترام والوقار، ومازال كذلك.. إلا أنه ظهرت حالات كثيرة تم فيها تعميم السب والشتم والسخرية والاستهزاء.

ولعل سبب ذلك هو الصدمة الهائلة عند الهزيمة، والإفلاس في أدوات المواجهة، وعدم وجود الوسائل المكافئة.. فلم يجد البعض غير الألسن ليطلقها بالسب على خصمه أو عدوه ! ومتى كانت الأعداء تسقط بالشتم والسب؟!

ولكنها حالة نفسية عاطفية حادة جعلت البعض يخرج عن أدبه ليمارس هذا الانحراف، حتى إن بعض النساء من أبناء الحركة الإسلامية وقعن في ذلك أيضاً !

ولا يصح التهاون في هذا السلوك المنحرف، بل يجب إنكاره حتى لا ينتشر ويتعمم، فالإنكار يمنع الانتشار، ويُبقي الانحرافات في أضيق مكان.

إن الصبر والحلم وعدم رد الإساءة بالإساءة، والتركيز على الهدف، وتعرية الحقائق مجردة بعيداً عن التشتت بعبث الآخرين، واستبانة سبل المجرمين، وتقديم الحق في أبهى حُلة، من شأنه أن يجذب قطاعات كبيرة من الأمة، ويجعلها لا تنشغل بالسب والسب المضاد، بل بالعمل الجاد على الطريق القويم، مدركة لهدفها، غير ملتفتة لصغائر الأمور.

* * *

وأما الفجور في الخصومة:

فنظراً لعدم وجود المنهج التربوي الراشد في الحركة الإسلامية، واعتماد منهجها التعليمي - عند البعض - على بعض كتب التراث للرد على الخصوم، وإفحام الآخر، ولدى البعض الآخر على الحشد الكمي لأكبر عدد من الأتباع، ونظراً للتربية السطحية البعيدة عن أغوار النفس، وأمراضها.. يحصل عند الخلاف الفجور في الخصومة، حتى على مستوى القيادات !.

ومن مظاهر هذا الفجور:

- تبليغ الأجهزة الأمنية المعادية عن المسلمين العاملين.
- فضح الأسرار، وكشف المخبوء منها على الملأ.
- إشاعة الشحناء والبغضاء والغل بين جميع الأطراف.
- ضياع الحقيقة تحت أقدام الخصومة.
- عند وقوع أي خلافات أسرية أو تجارية يُلوح كل طرف للآخر بتبليغ الأجهزة الأمنية عنه ولو بالباطل، كأن الكذب والخيانة مسألة سهلة، وسلاح مبسوط في يد الإخوة !!.
- عدم إعانة الأسر المسلمة المكلومة في أبنائها، إن وقعت الخصومات.

وهذا الفجور يؤدي إلى:

- فساد العلاقات الاجتماعية الأخوية سواء بين أطياف الحركة الإسلامية أو داخل الجماعة الواحدة.

- كشف عورات المسلمين للأعداء.
- دفع السيئة بعشرات السيئات.
- الإساءة إلى الدعوة الإسلامية، واستهلاك الأعمار في معارك تافهة.
- طرد الكفاءات وتبديد الطاقات، وتقريب الأكثر طاعة لا الأكثر علماً وفهماً.

وهذه الصورة من الأخلاق لا يريد العدو أكثر منها، فهذه كافية للتدمير الذاتي، وانفساخ العقدة، وتنفير الناس، عندما يرون أن أخلاق عموم المسلمين أفضل من أخلاق مسلمي الحركة الإسلامية، أو على أقل تقدير ليسوا أفضل حالاً من غيرهم.

ورصيد المسلم في دعوته وسياسته وجهاده هو: "**سلوكه الكريم وحسن خلقه**" ولا بد أن تأخذ التربية مجالها الكافي حتى يكون المسلم العامل لدينه مثالاً يُحترم من الجميع.

* * *



ينشأ "التدين المنحرف" من صور التربية الخاطئة، التي تعتمد صورة نمطية من قوالب، تقوم على التعصب، والغلو، ونبذ المخالف، وكبت الطاقات الإنسانية، ومن صور التربية التي لا تلتفت إلى "أمراض الاستبداد" التي يُنشئها طول القهر والطغيان، ومن التربية التي تغفل تزكية الإنسان، وتنشغل بحشو عقله، دون سمو روحه !

أو تُصور له التدين مجموعة من الأذكار والأدعية إذا قالها في جلسة فقد أتم مهمته.. والمؤاخذة على هذا الأمر، هو "الشعور" الذي يتسلل إلى البعض أنه بمجرد أن يجلس في دقيقة يقول بعض الأذكار، فإنه قد أدى الأمانة، وقام بما عليه، والأمر ليس كذلك، وتصوره على هذا النحو قد يؤدي - كما هو حاصل - إلى نوع من "الرهبنة الدينية" و"الدروشة الواقعية" واختزال مفهوم الذكر والاستغفار لأقصى درجة، وأقل معنى.

إن الذكر في التصور الإسلامي ليس هو معناه الجلوس دقيقة لتقول عدد معين من التسبيحات، إنما معناه "الاتصال الدائم" بالله سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّه قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [آل عمران: 191] فهذا الذكر الدائم، والاتصال الدائم، هو انشغال القلب وامتلاؤه بحب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو كذلك الفكر والتفكر والتأمل في ملكوت الله في السموات والأرض، وما خلق الله من شيء، هذا هو معنى الذكر.

وأما الاستغفار: فهو على المستوى الفردي التوبة الدائمة، والمراجعة المستمرة، وهو تطهير النية، وإصلاح السريرة، وكف الإنسان ظلمه وبغيه، أما على المستوى الجماعي وحياة الأمم: فهو إقامة الحق والعدل، وإقامة دينه وشرعه، وقول الحق لا نخشى في الله لومة لائم، والقيام بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر؛ فيكون في الذكر والاستغفار صلاح للإنسان من داخله، وصلاح للحياة من خارجه، ولذلك قال تعالى: ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً** ﴾ [نوح : 10، 11] فهذا هو المعنى الحقيقي.

* * *

وصورة التدين المنحرفة، تعمد إلى صورة جد مختزلة من "الشخصية الإسلامية الربانية، الشاملة والمتوازنة والإيجابية والفاعلة".. هذا الاختزال يحصر طاقات الإنسان كلها، ويبرز صورة واحدة هي صورة التدين وفق رؤية الشيخ، أو الحزب، أو الجماعة... إلخ.

وفي هذه الصورة من الانحراف.. يكون الإنسان متطرفاً في إبراز الصورة التي تربى عليها، والتي بها يشعر بـ "الانتماء" إلى الجماعة التي ينتسب إليها، ولكن تبقى باقي الطاقات المختزلة والمحصورة والحبيسة داخل النفس الإنسانية تثور كالبراكين، وتزلزل الإنسان في لحظة "ثورة الفطرة" !.

وفي صورة التدين المنحرفة: يَنشأ الإنسان على أن كل مخالف له هو إنسان ناقص جاهل منحرف ضال.. ينظر إليه بصورة فيها إساءة تقدير، وقلة احترام، وهذه الصورة من التدين لا تعتمد على "التفكر" بقدر ما تعتمد على إن ما نحن عليه هو "الحق المطلق"، وإن غيرنا إما على بدعة أو ضلالة أو كفر! وبهذا ينغلق عمل العقل تماماً في البحث والنظر والتفكر والتأمل، وتبقى "الحمية النفسية" هي الرابطة التي تجمع بين المتدينين من هذا النوع.

وعندما تتحرك هذه الصورة من التدين في المجتمع، والذي غالباً ما يكون في حالة من التفسخ والاغتراب، وفقدان التواصل الاجتماعي الطبيعي؛ تمارس هذه الشخصية المنحرفة نوعاً من "الإرهاب النفسي" لمن حولها.. فإنها شديدة القسوة، عنيفة الخطاب، حادة الأسلوب، وعندما تتفاعل الناس مع هذه الشخصية، منهم من يشعر بالتقصير وجلد الذات، ومنهم من يشعر بالخوف والخضوع للأقوى، ومنهم من يشعر بالنفور والإعراض، ومنهم من يعلن الحرب... إلخ من صور التفاعل الإنساني داخل المجتمعات المفككة، والفاقدة الهوية !

وبذلك تكون من معالم هذه الشخصية: اختزال الطاقات الإنسانية، وسجنها، والقسوة، وأحادية النظر، مما يؤدي إلى "الكبت"..

ولقد جعل علماء النفس تفسير الكبت هو: "الكبت الجنسي" وجعلوا يلمزون الجماعات الإسلامية، والمجتمعات المتدينة بـ "الهوس الجنسي" وهو تفسير خاطئ، لعل الغرض منه الطعن في كل ما يمت لـ "الدين" بصلة، وإلا ففي الصورة العلمانية التي يدعو إليها علماء النفس، ليس فيها هوس جنسي فحسب، بل فوضى وتطرف جنسي أقرب إلى عالم البهيمية !

إن الكبت المقصود هنا هو: ليس الكبت الجنسي فحسب، إنما المقصود هو الكبت الروحي، والكبت الفكري، والكبت الاجتماعي، والكبت النفسي..

فالكبت الروحي: الذي يُحرم فيه الإنسان من لحظات السمو الروحي، والتربية الروحية الراقية.. التي تؤدب الإنسان، وتهذب انفعالاته، وترتقي به خلقاً وسلوكاً، والتي تصرف كل غايته ونيته نحو وجه الله الكريم؛ هذا الكبت يعتبر طاقة حبيسة معطلة.. تركها بلا تصريف وعمل، يؤدي إلى صور منحرفة من "التصوف" !.

الكبت الفكري: الذي يحرم الإنسان من التفكر، والتأمل، والبحث، وجعله يعيش أسيراً لأقوال الرجال، وتقديس أفعالهم.. مما يُغلق العقل تماماً، ويفقده الثقة في قدرته على إبصار الحق، ورؤية الحقيقة، والشك في كل خاطرة أو لحظة تأمل؛ وهذا الكبت طاقة حبيسة معطلة.. تركها بلا تصريف وعمل، يؤدي إلى "الإلحاد" ورفض "الدين" كله أو "الجمود والانغلاق" والتخلف عن خلافة الأرض.

الكبت الاجتماعي: الذي يحرم الإنسان من التواصل الإنساني مع غيره، والتفاعل مع المخالف، وفقدان المهارة في التواصل، والقدرة على التعبير عن مكنونات النفس، وتكوين شبكة العلاقات الاجتماعية السوية التي تتلاقى فيها النفوس والأرواح بصورة طبيعية غير متكلفة ولا مصطنعة ولا مزيفة؛ وهذا الكبت يعتبر طاقة حبيسة معطلة.. تركها بلا تصريف وعمل، يؤدي إلى "التعصب" و"النزعة الفردية" و"الاغتراب".

الكبت النفسي: الذي يحرم الإنسان السلام الداخلي، والمهارة في قيادة النفس في لحظات ضعفها، وقوتها، فورتها، وسكونها، والذي يحرم الإنسان من "التوازن" بين عدم جلد الذات وتحقيرها، وبين

عدم تأليهها وتقديسها؛ وهذا الكبت طاقة حبيسة معطلة.. تركها بلا تصريف وعمل، يؤدي إلى "أمراض نفسية" متنوعة حسب الخريطة النفسية لكل إنسان.

الكبت الجنسي: الذي يحرم الإنسان من تصريف طاقته الجنسية بصورة فطرية طبيعية، ليس فيها تأنيب للضمير، ولا تعارض مع الدين، ولا لوم من المجتمع.. والطاقة الجنسية من الطاقات العنيفة التي قد تنفجر فجأة دون أن ينتبه لها الإنسان، وتبدو الحكمة من قوة هذه الطاقة لدفع الإنسان للسعي والتزاوج واستمرار الحياة على الأرض - والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لطيف لما يشاء - والمجتمعات غالباً ما تفشل في إدارة هذه الطاقة، فإما الحرمان الذي يجعل دون الزواج صعاب وأهوال ورحلة عذاب، وإما الانحلال الذي يفتح كل قنوات الحرام، ويغلق سبل التعفف الحلال، ويمنع التعدد، ويبيح الحرية الجنسية !

وظن الغرب أن "الحرية الجنسية" هي علاج للكبت.. ولكن المدقق في ذلك يجد أن "الحرية الجنسية" أنتجت نوعاً آخر من الحرمان.. وهو الحرمان من الاستقرار، والظمأ المستمر الذي لا يشبع، فكأن الإنسان كلما شرب من هذه الحرية كلما شعر بالظمأ !

وهذا الكبت طاقة حبيسة معطلة.. تركها بلا تصريف وعمل يؤدي إلى "الانحراف الجنسي" سواء بالحرمان أو بالانحلال.. ثم يتبعه "القسوة" القاتلة لعمل الروح، إذ أن الطاقة الجنسية ليست هي مجرد لحظة متعة للجسد فحسب.. إنما لها مقصد روحي، يتأتى بعد تفريغ تلك الطاقة، وهي لحظة تحرير الإنسان من وطأة وثقل الطاقة الجنسية، بعدها يُفترض أن تنطلق الروح نحو السمو الإنساني المتمثل في: الخير والرحمة وحب المساكين، وحب العطاء، والحنو على الضعفاء والأبناء...إلخ، وعندما يحدث الحرمان أو الانحلال، يُحرم الإنسان من لحظات المتعة الروحية.. التي ترتقي بإنسانيته. وكلها - في النهاية - طاقات إما أن تأخذ مجراها الفطري الطبيعي، وإما أن تظل حبيسة في داخل الإنسان، فتنفجر في داخله مُحدثة تشوهات وعاهات مؤقتة ومستديمة، تؤذي الحياة والإنسانية!

* * *

وعندما تغفل التربية الدينية هذه الصور المتنوعة من الطاقات، وتربي على أساس قاعدة من "التعصب والأحادية" وعبادة القوالب، والنمطية.. تخرج صور مختلفة من الانحراف.

صور التدين المنحرفة تُصور للمتدين أنه وحده - وجماعته - هم الصورة الصحيحة الوحيدة، وعليه فإنه ينظر إلى نفسه نظرة تقديس، بل ربما يحسب أن الله جَلَّجَلَالُهُ لن يرحم أحداً غيره ! وينظر إلى المجتمع - وغيره - نظرة احتقار، والمشكلة هنا ليست في هذه الصورة المنحرفة من تقدير الأمور، المشكلة أيضاً أنها جعلت المتدين في "صورة نموذجية" لا بد وأن يكون نموذجياً في كل شيء، ليس بإنسان طبيعي يمارس الحياة بصورة طبيعية، إنما أخذ لقب "متدين" وأصبح له هالة ولقب وهيئة عند الناس، ويجب أن تظل هذه الهالة من القدسية، ومن المسافة بينه وبين الناس ! إنه لا يخطئ ! وبالتالي فالاعتذار عن الخطأ والتراجع عن الرأي مسألة أثقل من حمل الجبال، ويغلب على الخطاب الذي يحمله الكِبْر والتنطع وسوء الأدب عند المخالفة، والتأييد المطلق، والدفاع المستميت، والتبرير عند الموافقة !

إذاً.. أصبح الآن هذا المتدين أمام: طاقات مكبوتة حبيسة - السابق شرحها - ، وبين صورة "تدين" اجتماعية اتخذها لنفسه، وأحاطت نفسها بهالة من القدسية، ومن الحيل النفسية في الهرب من تقديس الذات هي: تقديس الآخر المتطابق نفسياً - القالب النفسي - فيُقدس الآخر في صورة نفسه!

هذا التباين بين داخل الإنسان، وخارجه.. لا بد وأن يُحدث تصادمات كثيرة، إضافة إلى مأساة أخرى، وهي محاربة المد الإسلامي بصورة وحشية من خلال الاعتقالات والتعذيب لفترات طويلة، هذه المسألة من أعنف الصور التي تُحدث اختلالاً في طاقات الإنسان، وسلوكه.. والمشكلة الأخرى أنها لا تقع فقط على الشخص الذي وقع عليه التعذيب، بل إنها تقع على الآخرين الذي يعيشون هاجس الخوف من الاعتقال والتعذيب.. كل هذه العوامل تؤثر في بنية الإنسان الداخلية، وسلوكه، والعدو يتعمد التلاعب بها وإفسادها من خلال الدراسات النفسية التي تهدف إلى تحطيم وهدم الإنسان وتكوينه النفسي السوي، وسبحان الذي يعصم عباده المؤمنين من هذا المكر الشديد !.

* * *

وبالعودة إلى موضوع "الطاقات الحبيسة" وصورة التدين المنحرفة.. فالحل لهذه الطاقات هو: تصريفها في الأعمال الصالحة التي جاء الإسلام يحث عليها..

وإنني أستطيع أن أقول: إن من علامات التدين الصحيحة أن لا يأكل الإنسان الخبز بدينه، ويكون على الحقيقة – لا التصنع – غاية في التواضع، والأدب، والرحمة، وحب الخير لكل إنسان، وأن يكون مقراً بذنبه، معترفاً بخطئه.. راجياً عفو ربه، فلا تقديس ولا جلد للذات، لا يغتر بطاعة، ولا ييأس من توبة، المتدين الذي يحب العطاء، ويبذل الخير، أحسن الناس أخلاقاً، وأطهرهم قلباً من الغل، والبغضاء، والحسد، والكِبْر.. شديد الحساسية من أن يَظلم الناس، يحب الضعفاء والمساكين ويحنو عليهم، ذلك الإنسان الذي:"يَألف ويُؤلف، الهين اللين القريب السهل، يَسلم الناس من لسانه ويده، يُزين عمله بالرفق، والتواصي بالمرحمة"، والذي حَدّث عنه رسول الله ﷺ في جملة من الأحاديث: "**الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلا يُؤْلَفُ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**"(1) "**حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ**"(2) "**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**"(3) "**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ**"(4)

وإن كل إنسان منا يقع له مثل هذه الاضطرابات النفسية وكبت الطاقات – بصورة أو بأخرى – ولكن الصور الشديدة من ذلك، هي التي تُحدث أزمات خطيرة، وإن العلاج الناجع لذلك هو: ترقرق حب الله جَلَّجَلَالُهُ في القلوب، وإشراق الصدور بنور الله.. فيُعاد ترتيب ذرات الإنسان، وانتظام طاقاته، وانضباط توازنه، فيمضي إلى "حياة طيبة" في الدنيا والآخرة.

* * *

(1) [المعجم الأوسط للطبراني/ 5787]

(2) [مسند أحمد/ 3928]

(3) [صحيح البخاري/ 10]

(4) [صحيح البخاري/ 6024]



الناظر في واقعنا يراه يعاني حالة شديدة من الفصام والانقسام، نتيجة اختلاط الهويات، وسلخ الهوية الإسلامية، وترسيخ هويات أجنبية، وتعدد المشارب، واضطراب سبل الإصلاح، وشدة الضغط على أعصاب الناس؛ مما أدى بهم إلى حالة من الفصام، صحبتها حالة من المرونة والتكيف بين كافة المتناقضات الأخلاقية والسلوكية.

وانتقل هذا المرض إلى الحركة الإسلامية، فنجد مظاهر هذا الفصام واضحة بين ما نقوله، وما نفعله، فنجد من يلقي الخطب عن الصدق والأمانة أو يؤلف الكتب في ذلك، ثم هو في واقع الحال لا يَصدق ولا يُؤتمن !.

ونلحظ سوء هذه الأخلاق خاصة في التعاملات المالية والتجارية أو في حالات الزواج والمصاهرة.. نجد أن الداخل في الحركة الإسلامية لا يختلف سوءاً عن غيره سوى الخداع بلحية طويلة، وسمت إسلامي، وطلاء ديني لأمراض نفسية؛ فتحدث الكثير من المشكلات التي تُفسد ذات البين، ومن ثم العمل والحركة لهذا الدين.

فنجد أن الأخلاق هي أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه، ولم تُغير التربية في الحركة الإسلامية شيئاً من ذلك، وإن النماذج الطيبة الكريمة التي نجدها في الحركة الإسلامية إنما هي ناتج "البيت الأصيل" والمعدن الطيب الذي جاءت منه هذه النماذج، دون أن يكون هناك كبير دور للحركة الإسلامية في ذلك.

وعندما يصطدم عموم المسلمين بهذه السلوكيات المشينة، لا شك أن ذلك سيُحدث لهم صدمة كبيرة، فالناس تنظر إلى الشخص المتكلم بالدين – أو المتدين – نظرة مثالية، فإن وجدت مثل هذه

الأخلاق، حدث لها نفور كبير، وإعراض عن الاستجابة.. بل والتعميم على الجميع. وهذا لا شك من مظاهر الصد عن سبيل الله.

فنجد لبعض المنتسبين للحركة الإسلامية شخصيتين أو أكثر، فشخصية للمسجد واللقاءات وهذه هي التي يغلب عليه الشكل الإسلامي، وشخصية للواقع والحياة وهذه هي التي يغلب عليها طابع المجتمع بكل انحرافاته السلوكية والفكرية ! وقد حذر سول الله من هذا السلوك أشد التحذير فقال ﷺ: "**مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**"(1)

وأما قلة المروءة، وهي الوسيلة التي يستخدمها الأعداء في إفساد ذات البين بين المسلمين العاملين للدين، فالعدو يحاول اختراق الحركة الإسلامية ليس فقط عن طريق التجسس، والحروب الأمنية، والقهر.. وإنما كذلك عن طريق الاختراق الفكري، وتحويل اختلافات وتناقضات الحركة الإسلامية إلى وسيلة لضرب بعضهم بعضاً، ولإشغال بعضهم ببعض..

فنجد من يُبلغ الأجهزة الأمنية المعادية للدين ولدعوته عن إخوانه من المسلمين، لأنهم مخالفين له في الفكر والعمل، بل حتى في أحلك الظروف والبيوت الإسلامية تتعرض لفتن شتى، نجد من يمنع عنهم الإعانة بحجة أنهم مخالفين له !

بل نجد حتى في داخل السجون هذا الانهيار الأخلاقي بين الأطياف المختلفة من الحركة الإسلامية، واستبشار العدو بهذه الاختلافات، التي تجعل هذه الأطياف تتقاتل داخل السجون، حتى يتدخل عدوهم لفض النزاع وحل المشكلات !.

فالشخصية التي تعاني "الانفصام" لا يمكن أن تنجح في حركتها، وأما التي تعاني "سوء الخلق" فلا يمكن أن تكون يوماً قدوة لأحد، وسينكشف أمرها.. ولو بعد حين؛ لذا فالمناهج التربوية للحركة الإسلامية بحاجة إلى "ثورة كبرى" لتصحيح المسار نحو فاعلية التربية وقدرتها على إخراج جيل قادر على حمل رسالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

* * *

(1) [صحيح البخاري/ 6058]



أدت التربية الحزبية، والتعصب الجاهلي، والتعصب للأيديولوجيات.. إلى اختزال الأمة في الجماعة، واختزال الإسلام في أقوال الجماعة - أياً كانت هذه الجماعة أو نشاطها - وغاب عن منتسبيها استشعار آلام وآمال الأمة بصورة عامة وجامعة، مما حوّل بعض جماعات الحركة الإسلامية إلى مجرد "طوائف وأحزاب" معزولة عن الأمة، ومتميزة عنها، لها بيئتها الخاصة، ومحاضنها المعزولة.. وأشكالها الاجتماعية المختلفة، حتى في الزي، وشكل اللحية، وطريقة الكلام، بل وحتى أمور الزواج أصبحت تتم بصورة حزبية انتمائية !.

فالآلام هي آلام الجماعة وحدها، والآمال هي آمال الجماعة، والنصر هو النصر للجماعة، والهزيمة هي الهزيمة للجماعة.. والأمة بخير إذا كانت الجماعة والشيخ بخير، والأمة في شر إذا كان الشيخ والجماعة بشر!.

هذه الحالة يلحظها بشدة من عافاه الله من آفة التعصب الجاهلي، ويلحظ أن استجابة بعض أبناء الحركة الإسلامية إنما هو في الأساس استجابة لـ "التعصب" والتعصب وحده، فلا يعنيهم أي شأن خارج عن شأن الجماعة أو ما تؤيده الجماعة ! مما عزل قطاعات كبيرة من الأمة عن الحركة الإسلامية التي من المفترض أنها ما خرجت أساساً إلا من أجل أمتها، ولا عملت إلا من أجل رفعتها، فضاع الهدف الأولي، وتحولت الوسائل والأهداف الفرعية إلى غايات.. على الأمة أن تجري وراء الجماعة لتُشبع رغباتها وليس العكس !

هذه الحالة المقلوبة جعلت بعض قطاعات الحركة الإسلامية تنصب العداء تجاه بعضها البعض، فاعتبر كل فريق أن الآخر عقبة في طريقه، وفي دعوته، وفي مشروعه - إن كان ثمة مشروعات! - كل فريق يتهم الآخر بأسباب الفشل، ولا يفتش أحد عن أسباب الفشل في داخل نفسه.. احترف كل

فريق الهجوم الشرس على الآخر، ولم ينجح أحد بعد في عملية "النقد الذاتي" وتصحيح المسار.. بل الغرق في التيه البعيد !.

ومن ثم البلادة عن الشعور الحقيقي الحي بالرغبة في إنقاذ هذه الأمة، والشعور بالحسد والغل تجاه من ينجح من غير الجماعة، والتقليل من شأنه ومن نجاحه، بل واتهامه – وما أسهل عليهم إلقاء التهم – ومحاربته، فأي نجاح أو خير فلا بد أن يمر من خلال الجماعة، ومن خلال منظومة الفكر التي يقول بها الشيخ والقائد، وإلا فلا نجاح !!

فنجد – مثلاً – عندما يتعرض أحد إلى الآلام التي تغرق فيها الأمة، أو الآمال التي تطمح إليها، ويتحدث عن حجم التحديات، والعقبات، فيكتب في ذلك ثلاث صفحات – مثلاً – ثم يتعرض بنقد بناء في سطر واحد لشيخ أو جماعة أفسدت بحركتها أو فكرها فرصة أو ضيعت وسيلة ما، فإن المتعصب لا تعنيه هذه الآلام ولا يستشعرها ولا يهتم لها، فسينسى كل شيء، ليُخرج أسلحته دفاعاً عن شيخه أو جماعته.. ظناً منه أنه دفاع عن الأمة التي اختزلها في شيخه وجماعته !

فلا يمكن أن يقبل أي نقد ولو كان بالأساس يستهدف الخير لجماعته أو شيخه، فالنقد جريمة، والاعتراف بالخطأ تحطيم لصنم التقديس، والتغيير للأفضل كارثة تفتح علينا طرق الانشقاق، فليبقى الوضع على ما هو عليه، ونحن بخير إنما هو ابتلاء كابتلاء الأنبياء !.

وتصحيح مسار الحركة الإسلامية يبدأ من الخروج من الذات إلى الأمة، وتصحيح معاني الولاء والبراء، وتصحيح العلاقة بين "إطار العمل" الذي قد يتطلب جماعة أو تنظيم، وبين "الولاء" الذي يجب أن يظل خالصاً لله جَلَّجَلَالُهُ ورسوله ﷺ، وخدمة لأمته.

❋ ❋ ❋



القضايا المصيرية: هي القضايا التي تكلّف الأمة الكثير من الدماء والأرواح والأموال والأعمار والأجيال، ويترتب عليها مصير الأمة ومستقبل البشرية، فهو حديث جلل وعظيم، وإن أي خلل في النظر في هذه القضايا.. سينتج عنه خلل فكري ثم إرادة خاطئة، وفعل خطأ؛ وسُيؤدي لكوراث قد تستمر لأجيال؛ لذا لا يمكن بحال الحديث عنها بشكل جزئي، أو عفوي، أو ارتجالي، أو عشوائي، بل لابد من اتباع المنهج الإسلامي: (بربانيته، وشموله، وثباته، ومثاليته، وواقعيته، وإيجابيته، وتوازنه).. والذي يحمل منظومة عقيدية متكاملة هي: (التوحيد – الشريعة – الهوية – السيادة – الحكم الراشد – الحضارة – المساواة – الحرية الكاملة – الحق الرباني – العدل الرباني – الثورة على الظلم – الجهاد).

ولهذه الأمة قضايا مصيرية تحدد وجودها وفاعليتها، ومن هذه القضايا:

- التحرر من هيمنة المحتل الأجنبي عليها، سواء أكانت هذه الهيمنة بشكل مباشر عن طريق التواجد العسكري، أو بشكل غير مباشر عن طريق التحكم في النظم السياسية والاقتصادية والثقافية... إلخ.
- التحرر من الطغاة والطواغيت المسلطة على رقاب الأمة تسرق ثرواتها، وتذل إنسانيتها، وتسحق كرامتها، وتُفسد دينها وأخلاقها.
- علاج أمراض الاستبداد التي سببها طول فترة الاستبداد، حتى فسدت الخامة البشرية.
- استرداد الهوية الإسلامية كاملة.. إنساناً ومجتمعاً ودولة وحضارة.
- بناء الإنسان الرسالي الذي يقدر أن يحمل رسالة الله إلى العالمين.

- إعادة بناء الواقع الإسلامي من جديد على أساس من الريادة العالمية، وتجريد الهوية الإسلامية.
- حمل رسالة الله إلى العالمين، والدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، والتبشير برسالة الرحمة التي أتى بها رسول الله ﷺ.
- إعادة بناء الفكر السياسي الإسلامي الراشد، وبلورة الصور الصحيحة للفكر الإسلامي عموماً، ليكون هو النموذج الراشد الذي يُنقذ البشرية، ويعيد للإنسانية كرامتها ورشدها وسلامها العالمي.
- تحصيل القوة اللازمة لحماية الأمة، ووجودها، ودعوتها، وما يرهب أعداءها، حتى لا يُفكر أحد أن يمسها بسوء.
- تحرير المقدسات الإسلامية، ونصرة المستضعفين في كل مكان.
- إقامة الشريعة الربانية، وإزالة الآثار الفكرية والمادية للمذاهب الوضعية.

هذه بعض الأمثلة من قضايا الأمة المصيرية، لم نجد على مستوى الفكر والحركة ما يُشير إلى العمل على هذه المحاور بصورة جدية ومعد لها الإعداد الصحيح، والفهم الدقيق، والتخطيط البعيد.. بل مجرد ردود أفعال، وحركات ارتجالية تُعبر عن بعض حالات الغضب، وتفريغ الشحنة العاطفية.

* * *

ولقد تم إشغال أبناء الحركة الإسلامية بمسائل بعيدة كل البعد عن قضايا الأمة المصيرية، فقوم شغلوا شباب الحركة بحكم النزول على الركب أم على الأيدي في السجود، وبأحكام الموسيقى والغناء، والإسبال، واللحية، والنقاب... إلخ، وملؤوا الدنيا ضجيجاً وصراخاً، واستهلكوا أنفسهم وكثير من أبناء الحركة الإسلامية في مثل ذلك؛ ورسخوا للعلمانية بفصل قضايا الأمة عن الدين !

وقوم شغلوا شباب الحركة بالعمل الحزبي – في لعبة مكشوفة معلومة النتائج – وصوروا لهم أنهم على طريق التمكين يفصله عنهم خطوات صغيرة، فإذا هذه الخطوات هي الطريق إلى السجن !

وقوم شغلوا الشباب بالتكفير والتفجير وقدّموا أقصر صور التخلص من الحياة، وأسهل صور التخلص من المشكلات عن طريق تفجير نفسك، فهو أقصر طريق إلى الجنة !

ولا نشكك في النوايا، وإنما نشكك في الفكر والسلوك الذي وصل إليه بعض فئات في الحركة الإسلامية، حتى انعزلت عن واقعها، أو اصطدمت بجهلها بهذا الواقع، أو أساءت التعامل معه، فأضافت مشكلات إلى مشكلاته.

وإذا تناولنا مسألة من قضايا الأمة نناقشها بطريقة: عاطفية بلا عقل.. همجية بلا نظام.. عبثية بلا غاية.. تائهة بلا دليل.. ضائعة بلا طريق.. ارتجالية بلا خطة.. هوجائية بلا استراتيجية.. رعونة بلا عزيمة.. تخبط بلا منهاج؟!

فعلينا أولاً التوبة من ذنب العبث بقضايا الأمة المصيرية وإهمالها.

وإن التركيز على القضايا المصيرية، والعمل على إيجاد كيفية لحلها، وعدم التعامل معها بطريقة مزاجية وقتية؛ أظن أن من شأنه أن يُوحد جهود الدعوة والسياسة والجهاد، ويرفع من مستوى الوعي، والاستعداد، والتخطيط، وعدم استعجال النصر، أو الشهوة في رؤية الثمرة، وهذه الأمور تحتاج إلى نوع راقٍ من التربية، وأسلوب جديد في الحركة، لا يظهر ولا يتكون إلا عندما نعيش بحق قضايا الأمة المصيرية.[1]

* * *

(1) راجع – إن شئت – : **آلية قراءة قضايا الأمة المصيرية** – مراحل الواقع الإسلامي.



تتطور العلوم الإنسانية والاجتماعية من حولنا تطوراً يأخذ العقول، حتى وصل الغرب إلى تحويلها إلى علوم رقمية يمكن قياسها ! كما قاموا بتوظيف تلك العلوم لهندسة الشعوب والمجتمعات، والتحكم فيها، والسيطرة عليها..

بينما نحن نعيش حالة من "الفجوة المعرفية" تكاد تكون بعشرات - وربما مئات السنين - وقد قسمنا العلوم إلى علوم شرعية تبحث في كتب التراث، وعلوم أكاديمية تلوك بقايا إنتاج الغرب العلمي !

فحتى على مستوى العلوم الشرعية عجزنا - إلا من رحم ربي - عن رأب الفجوة الواقعية والحضارية، فصار البعض يعيش في الماضي، ويريد أن يستحضر الماضي بكل صوره ومشكلاته، حتى إن بعض الشباب ممن يغرق في كتب التراث يتخيل ويستحضر معارك القرن الثالث العقائدية أو الفكرية، ويتصور نفسه أحد أبطالها ! في حالة عجيبة من الفصام الفكري، فأقام البعض "عتبة مقدسة" عند نهاية المائة الثالثة من الهجرة، واعتقد أن السلف لم يترك شيء يفكر فيه الخلف من بعدهم! فقد فكروا لهم في كل شيء.. وإنَّ فتح الله ونوره لعباده مرحلة قد انتهت ! ومن ذلك نشأت فكرة تقديس الرجال، وتقديس كتبهم، ولست أبالغ إن قلت: لقد تحولت المسألة إلى "كهنوتية".

ولا نقلل أبداً من الخطوات التي يقوم بها القلة الباقية التي تحاول وتجتهد؛ بل نبارك عملهم ونشد على أيديهم.

وأما على مستوى العلوم الدنيوية: ونظراً لانحطاط نظم التعليم لدينا عن عمد؛ حتى لا تقوم لنا قائمة.. فإنه يحصل هجرة للكفاءات العلمية لدينا، إضافة إلى عدم وجود المحاضن الحضارية لها.

ولكن الفجوة المعرفية لدينا أعمق من ذلك بكثير، ولسنا نتحدث عن المجال الشرعي أو التقني.. بل نتحدث عن مستوى علوم الاجتماع، والنفس، والإدارة، والفكر، والاستراتيجية، والإعلام، والتجسس، والمستقبل، وعلوم دراسة الغرب، والسنن، وعلوم القوة... إلخ والغرب يتحكم في أمتنا من خلال هذه العلوم الإنسانية المتطورة، إضافة إلى التحكم السياسي والعسكري !

ولا نجد من يُشجع على مثل هذه العلوم، فضلاً عن تطبيقاتها في حركتنا الواقعية، ومكافأة الواقع بتحدياته القائمة، بل يكاد لا نجد سوى نموذج "الشيخ" أو "السياسي" صاحب الدراسة الطبية أو الهندسية أو غيرهما، ثم من ورائهم الأتباع.

أما من حيث التخطيط، وإدارة مشروعات الحركة الإسلامية إدارة علمية تعتمد على "التطبيقات الحديثة" سواء أكانت هذه المشروعات "دعوية أو سياسية أو جهادية" وأما من حيث فهم التطورات الحاصلة في علوم الاجتماع والنفس وهندسة المجتمعات، وصناعة عقولها... إلخ، وأما من حيث تطوير وسائل المواجهة بما يتناسب مع قدراتنا ومع المرحلة الراهنة والتخطيط لتطويرها... إلخ، فإنا نكاد نجد حالة من سقوط الذهن حول هذه الأمور..

ونجد أنفسنا نتلقى الضربات تلو الضربات، ثم نعجز حتى عن تحليل الأسباب التي أدت لذلك، حتى أصبح العمل الإسلامي كعمل الهواة كيفما اتفق، وحسب الأمزجة، لا عن احترافية علمية مدروسة، رغم وجود الإمكانيات البشرية والمادية الكافية لأخذ خطوات جادة، وراسخة في سبيل المشروع الإسلامي للتغيير.

كما تؤدي الفجوة المعرفية إلى ضعف المنهجية العلمية، والتخبط والعشوائية الإدارية، وإلى خلق المشروعات الوهمية؛ والارتجالية الحركية، التي تستنزف الطاقات، والأعمار، فليس لدينا بعدُ صرامة منهجية وعلمية في النظر في أمورنا وأحوالنا ومشروعاتنا؛ مما يجعلها تفشل أو تفقد فاعليتها.

* * *



يغلب على فهم بعض شباب الحركة الإسلامية القراءة المتشنجة المتعجلة في إطلاق الأحكام، ويظن البعض أنه كلما كانت الأحكام شديدة قاسية، كلما كان أكثر تديناً، وإيماناً، ولعل سبب ذلك هو:

- هيمنة الحالة العاطفية على فكر الشباب.
- وغياب المنهجية العقلية في كيفية النظر والحكم على الأشياء.
- وكسله الذهني عن استفراغ الجهد في القراءة المتأنية البحثية.

إنه فقط يبحث عن كلمة تؤكد حالته العاطفية، أو حكمه المسبق.. فيقول: قال العلاّمة فلان كذا، وهذا الذي عليه جمهور العلماء !.

وفي ذات مرة، كنتُ أعتقد في مسألة قولاً ظننت - كما سمعت - أن هذا قول الجمهور، حتى حدث أمر ما جعلني أبحث في المسألة من جديد للنظر في أقوال المذاهب الفقهية المختلفة من أمهات الكتب، ومصادرها الجامعة، وقد استغرق البحث في هذه المسألة وحدها حوالي ستون ساعة - مستخدماً أحدث وسائل البحث - وكانت النتيجة هي العكس ! إن قول جمهور المذاهب الفقهية كان عكس ما هو شائع، وقد استفدت من هذه التجربة عدم التعجل بإطلاق الأحكام، والتأني في البحث والنظر، وعدم الاعتماد على الأقوال الشائعة.. وإن كان هناك حالة من الكسل - أو ضيق الوقت - فلا أقل من التوقف على إطلاق الأحكام، فهذا منزلق خطير.

وأخطر ما في القراءة المتشنجة والعاطفية هو أن إطلاق الأحكام يكون من نوعية: (التكفير والتفسيق والتبديع والتخوين... إلخ)، اعتماداً على قول قائل هنا أو هناك، ونجد أقوالاً من أمثلة:

(قولاً واحداً، إجماع العلماء، قول الجمهور، إجماع المذاهب، من يخالف ذلك فهو متهم في دينه... إلخ).

وهذه الطريقة تربي عقولاً عاطفية تستجيب بسهولة لداعي التهيّج، وتَمل من القراءة الدقيقة التحليلية المقارنة المنهجية التي تتطلب جهداً طويلاً، وتمحيصاً مستمراً، ورؤية متكاملة، ودقة في الفهم والملاحظة، وصدق في الاستنباط، وربط الأمور ببعضها.. وقد يستغرق هذا الأمر وقتاً طويلاً ثم لا يمكن الخروج بحكم قاطع جامع في النهاية، بل لتوازن الأدلة قد لا تُرجح أي من الأقوال.

وهذه القراءة المتشنجة، وردود الأفعال العاطفية.. يَسهل توظيفها والتحكم فيها وتحريكها من قِبل الأعداء - أو غيرهم - لأنها استجابة لتفريغ شحنة عاطفية، وبعكس القراءة المنهجية العلمية التي لا تعرف التشنج في الأحكام، ولا التعجل في النظر، فهذه يصعب على العدو اختراقها أو توجيهها؛ لأنها تسير في مسارات البحث عن الحق، والوفاء للحقيقة مهما كلّف ذلك من جهد.

وقد لا يجد المسلم الوقت الكافي لمثل هذا الجهد، وفي هذه الحالة لا يستسهل إطلاق الأحكام، بل ينأى بنفسه عن ذلك، وليدرك أنه ليس بمجرد قراءة كتاب أو فتوى ما، تجعله مؤهلاً ليطلق الأحكام على الملايين من أهل القبلة - على سبيل المثال - بالبدعة والضلال والكفر !.

ولا تجعله كذلك يتصدر مشهد التوجيه والإرشاد بقراءة متشنجة متعجلة، تنقل للجماهير مجرد "حالة عاطفية" لا حالة فكرية دقيقة الفهم، وواضحة المنهج.

والحالة الفكرية الصارمة والدقيقة لا تعني أنه يجب أن تخلو من العاطفة، كلا.. بل العاطفة مطلوبة؛ فهي وقود لازم لتحريك الجماهير، والخطاب العاطفي لا شك له دور كبير في تثوير الأمة، ولكنه يجب أن لا يكون خطاباً في الهواء.. بل الخطاب العاطفي يجب أن يكون قائماً على قاعدة فكرية صارمة، وقراءة عميقة متأنية، ومنهجية منضبطة تتبع سنن البحث العلمي في النظر والتحليل والتشخيص والعلاج.[1]

❋ ❋ ❋

---

(1) راجع - إن شئت - مقالات: التفكير وتميز الإنسان، الفكر والالتصاق بالذات، معالم في الفكر الإسلامي.



لا شك أن السيرة الحميدة للرموز الإسلامية تترك آثارها الطيبة في القلوب، ولا شك أننا بحاجة إلى استلهام تجاربهم عبر العصور لتكون زاداً لنا، ولكن حصل لكثير من شباب الحركة الإسلامية التعلق النفسي والعاطفي بالرموز مع الجمود على ذلك !.

هذا التعلق يجعل الشباب يتعصب للرمز من جانب، ويقتات على ذكراه وعلمه من جانب آخر، دون أن يكون له نفس روح الرمز أو عزيمته، ودون أن يكون له نفس روح الفكر والفضاء المعرفي لذلك الرمز، وخطورة هذا الأمر تتمثل في:

أولاً: من الناحية النفسية

وهو انكفاء طاقة الروح خلف روح الرمز فقط، واحتباسها أو كسلها عن الانطلاق، فقط لأنها تحمل صورة الرمز، أو تكتفي بحالة الحب تجاهه أو الدعوة إلى فكره، وفي ذلك كبت للطاقة الإنسانية، وقعودها عن الانطلاق، فقد يكون وهبها الله من الطاقات والاستعدادات ما تتفوق به على مَن تحبه مِن رموز.

وثانياً: من الناحية الفكرية

وهو تحنيط عمل العقل عن التفكر والبحث والفهم، فيتعطل عمل العقل، على اعتبار أن الرمز الذي يحبه قد قام بكل شيء، وفكر في كل شيء، وانجز كل شيء، وفهم كل شيء، ولا شك أن كل عقل بشري قاصر عن إدراك الحقيقة كاملة أو الإلمام بكل شيء، وفي ذلك حكمة تتمثل في تكامل جهد البشر.. حتى تتكامل صورة الحياة الإنسانية، وانطلاق حالة التجديد المستمرة نحو التحسين

والإحسان والوصول إلى الكمال الإنساني.. اللازم لاستمرار رقي الحياة والخلافة عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها بما يحبه ويرضاه.

والمشكلة الأخطر في تحنيط عمل العقل، هو تقديس أخطاء الرموز.. فقد يقع الرمز في أخطاء فكرية أو حركية نتيجة لـ: قصور علمه، أو قلة فهمه، أو قلة إلمامه، أو انخداعه، أو لعدم اكتمال كل أجزاء الصورة له، أو لقصر عمره عن رؤية المخفي من الحقيقة، أو لطبيعة مرحلة نمو الفكرة عنده من: (نشأة، وصبى، وعنفوان وفتوة، ثم رشد ونضوج)، أو استجابته التاريخية لمرحلة معينة في ظروفها الخاصة... إلخ، وفي ذلك يكون معذوراً لأنه استفرغ غاية الوسع، وتمام الجهد في الوصول إلى الحقيقة..

ولكن ليس معذوراً من أتى بعده – وتراكمت التجارب – وظهرت له الحقيقة تطل برأسها، ثم يُنكر ذلك لأن الرمز الذي يحبه ويثق فيه لم يقل بها، أو لم يراها، أو انخدع في بعض مظاهرها.

ومن جانب آخر من الناحية المعاكسة: تدنيس الرموز لوقوعهم في بعض الأخطاء، وهدم كافة أعمالهم وجهدهم.. وإغفال التراكم المعرفي وسنوات الخبرة، والقياس الخاطئ بالنسبة لواقعهم وتحدياتهم، ومقارنة جهدهم أو مواقفهم بحالتنا المعرفية المعاصرة، وعمل مقارنة غير عادلة لم تراع ظروف الزمن، وتطور المعرفة، وطبيعة الظروف.

* * *

فعلى الشباب عدم التعلق بأشخاص الرموز، ولا حتى مجرد التعصب لفكرهم، فالتعصب مرض خطير يُفسد الدين والأخلاق، ويغتال الحق والحقيقة.

إنما ما نريده هو: تغيير ما بأنفسنا من أفكار وتصورات ليست صحيحة، وأن نخوض بشجاعة معركة التغيير الجذري الشامل في نفوسنا أولاً ثم في واقعنا ثانياً؛ حتى نتأهل لحمل رسالة الله جَلَّجَلَالُهُ من جديد، وحتى نمضي لبعث جديد لهذا الدين.

وإننا بحاجة إلى أن نحمل مشاعل الراية التي حملها الرموز عبر تاريخ الإسلام.. مدركين لواقعنا، ولمشروعنا، ولما نريده، وأن ننأى بأنفسنا عن توافه الأمور، وعن ضيق الصراعات الصغيرة إلى

الولوج إلى قضايا الأمة المصيرية، وأن نعيد ترتيب أنفسنا بعد هذا الحجم الهائل من التضحيات، وهذا الكم الكثيف من التجارب؛ لنعيد تنظيم حركتنا بوسائل مكافئة للواقع الذي نعيشه، وبإخلاص وتجرد تام لله جَلَّجَلَالُهُ بعيداً عن المصالح الحزبية، وعن التعصب للكيانات والأفراد، حتى يأتي وعد الله أو نموت ونحن على الطريق.. على صراط الله المستقيم.

إن التعلق النفسي والفكري بالرموز يحبس الطاقات الروحية والفكرية لدى الشباب، والصحيح هو استلهام تجاربهم؛ ليكن في تخطيط الشباب أن يكونوا أفضل من تلك الرموز التي يحبونها، وأن يمضوا في طريق الرواد يحملون شعلة النور، لا صورة الرمز.

* * *



إفساد التصور عن العقيدة الإسلامية (حقائق الإيمان) لم يكن المُتسبب فيه الحركة الإسلامية المعاصرة، ولكن هذا الإفساد حصل قديماً في خضم الصراعات الفلسفية، عندما تأثر الفكر الإسلامي بالمنطق الإغريقي، ولربما كان هناك من فائدة في ذلك قديماً للرد على خصوم الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى، فرحوا يتعلمون المنطق والفلسفة اليونانية للرد على ادعاءات الخصوم.

إلا أنه بمرور الوقت – وبالغلو في أساليب اليونان – تسربت الخصومة الشديدة التي وصلت حد التكفير بين المسلمين أنفسهم، وبدأت العقيدة الإسلامية تأخذ شكلاً آخر غير ما جاء به القرآن الكريم، فرُجحت أساليب اليونان على أساليب القرآن !

ونشأت الفرق الاعتقادية التي يُكفر بعضها بعضاً، ويُبدع بعضها بعضاً، وضاعت الأمة بين هؤلاء وهؤلاء، وراح كل فريق يتهم الآخر، ويزعم لنفسه أنه "السنة الصحيحة والطائفة المنصورة".

فخرجت مئات الكتب التي تتحدث عن المعتقد الصحيح، فنسبوا للسنة ما ليس منها ! وأدخلوا العقل فيما ليس من مجال عمله ! والخوض في كيفيات أفعال الله، واستُهلكت الأمة في "معركة فارغة" ليس هناك أي طائل من ورائها سوى البغي والبغضاء والتدابر والشحناء والحسد !.

وأصبحت العقيدة الإسلامية تحتاج إلى عشرات الكتب والشروحات والحواشي والمختصرات، وأدخلوا في العقيدة الإسلامية ما ليس منها، حتى صار المسح على الخفين من العقيدة ! هذا التشويه والمعارك الفارغة انتقل إلينا – دون نقد أو تمحيص أو رؤية حالته التاريخية وظروفها – فراح فريق من الحركة الإسلامية يقعد بالشباب ليناقش هذه الخصومات، ويُعيد إنتاج هذه المعارك من جديد،

فتنتفخ العقول بهذه الأطنان من الكتب، وتقسو القلوب فلا تكاد تجد فيها حلاوة الإيمان وبشاشة الإسلام، وبساطة الفطرة.

ومن يقرأ القرآن الكريم بروحه التي نزل بها، سيجد مدى بَعُد هؤلاء عن القرآن دون أن يشعروا، فكلما ازدادت المعارك، ازدادت الخصومات، وازدادت الغفلة عن الكتاب وهجره.. ومن يتأمل القرآن سيجد فيه الكفاية والبيان، ولكن أبى البعض إلا أساليب اليونان، ومعارك سالف الأزمان، والتعقيد والتعقير لما ليس من الإيمان، ولا من سنة سيد الأنام ﷺ.

فحضرت الخصومات والمعارك حول أساليب اليونان في العقيدة، وغابت قضايا الأمة المصيرية.. وما يتهددها من كوارث ومشكلات.

* * *

وإننا عندما نرى الإسلام من خلال معالم القرآن الكريم ومشكاة النبوة.. نجده سهلاً يسيراً بسيطاً لا يحتاج إلى "منهج أكاديمي مُعقد"(1) بالنسبة للمسلم الذي يبحث عن رضى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نرى يُسره إعجازاً في حد ذاته !.

وإننا نرتكب جُرماً عندما نُعَقد على الناس معرفة "الدين"؛ فإنما هو جاء ليُخاطب الفطرة، فهو دين الفطرة، وفي دعوة النبي ﷺ له تتجلى هذه البساطة واليسر، ويتجلى معها العمق الذي يلمس جنبات الوجود كله، وتتجلى أعمال القلوب، والنبي ﷺ يقول: "**التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا**"(2) ويشير إلى صدره، وتتجلى طهارة النفوس، وتزكية الأرواح، وخلاصة الإنسان لربه خالقه ورازقه..

إن العقيدة في الإسلام ليست كتباً تُدرس، ولا هي إثبات "صفات الله" أم تأويلها وتفويضها !! ولا هي الصراع المذهبي بين المدارس الفقهية..

(1) هذا غير الباحثين والمحققين.

(2) [صحيح مسلم/ 2565]

إنما هي ضبط علاقة الإنسان بـ "الله" و"الحياة" و"الوجود" من حوله، وتضع الإنسان على صراط الله المستقيم، ليمضِ في طريق الحياة من خلافة للأرض راشدة، تصل به – في النهاية – نحو السماء لجنة عرضها السموات والأرض، وذلك هو الفوز العظيم.

وليس صحيحاً أن دراسة العقيدة هي الغرق فيما غرق فيه السابقون ممن جادلوا في ذات الله – وهو شديد المِحال – وليس صحيحاً أنها هي التنازع والتقاتل الفقهي بين المدارس الفقهية.. إنما العقيدة الإسلامية شديدة البساطة، عميقة الواقعية، عظيمة الأثر، يُنشأها الإسلام في القلوب أولاً ويزرع فيها التقوى والوجل، والإخلاص والحب لله جَلَّجَلَالُهُ، ثم يُتابع آثارها في الحياة ثانياً من خلافة في الأرض، وجهاد للباطل والظلم.. وقطع الطريق على حبائل الشيطان وحزبه، ودفع الكفر، والفساد.. وتعريف الإنسانية بربها، وتطهيرها مما لحق بها من وساوس الشيطان، لتنجح في رحلة الحياة.. وتعبر إلى رضوان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وجنته.[1]

* * *

(1) راجع – إن شئت – مقال: العقيدة الإسلامية – ألغام في الفكر الإسلامي – الإيمان وجفاف القلوب.



اعتِقَادُ الحَقُ المُطلَق

هو: الاعتقاد في "الرأي الفقهي" أو "المذهب الفقهي" أو "الرأي السياسي" الحق الخالص المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن كل ما سواه يعتبر باطلاً، وهذا الاعتقاد هو الذي يُنشأ حالة الاحتراب داخل الملة الواحدة، ويُطلق أوصاف التبديع والتفسيق والتكفير – عندما يشتد الصراع – ورغم أن جميع الأئمة حذروا أتباعهم من هذه المسألة.. وأمروهم بعدم التطرف في التعصب للمذهب أو أقوال الرجال، والتواضع للعلم، والأدب مع المسلمين، حتى في آدب إنكار المنكر، ونهوهم أن ينكروا منكراً لا يعتبر منكراً في مذاهب غيرهم، وشددوا على أن يكون إنكار المنكر فيما فيه اتفاق عام، منعاً للتعصب لمذهب معين، وتجنباً للتضييق على المسلمين.

ولو أن الأتباع التزموا نصائح الأئمة في عدم اعتقاد الحق المطلق في مسائل "الاجتهاد"، والنظر برحمة وأدب وسعة صدر للمخالف، أحسب أن ذلك كان سيرفع حالة الغل، والتحاسد، والبغضاء بين المسلمين؛ وكان سيوجههم إلى ما هو أنفع من الصراعات البينية أو الخلافات على قضايا تافهة، وهو قبل هذا وذاك التزام بالأدب النبوي في قوله ﷺ: "**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا**[1]**، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا.. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ، حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**"[2]

---

(1) أي: الإثارة، واللغط، والبيع المكذوب، والأمور المفعتلة.

(2) [صحيح مسلم/ 2565]

ويؤدي اعتقاد الحق المطلق في الأراء الفقهية والسياسية إلى:

(1) **إفساد العقل**: فعندما يعتقد العقل الحق المطلق في الأراء والاجتهادات، فإنه يتوقف عن عمله في: النقد والتحليل، والرصد والتفكير، والتسديد والتقريب، والتصحيح والتقويم؛ وبالتالي يفقد مهمته، ولياقته، وقدراته، وتضمر عضلة العقل، وإن فشى هذا المرض في أمة، تتحول إلى "أمة من المغفلين".

(2) **تدنيس النفس**: اعتقاد الحق المطلق في الرأي، يجعل النفس ملتصقة بهذا الحق، وأي محاولة للمساس به ولو فقط لـ "النصح" – فضلا عن النقد والتحليل وبيان الخطأ – يجعل النفس تنتفض لـ "تدافع" عن هذا الحق – وفي الباطن تدافع عن ذاتها – وتسحق في طريقها كل من يعترض أو ينتقد.. ولا تتصور إلا: الخيانة أو العمالة أو الانحراف أو الشك أو الظن القبيح، وعندما يحدث الاصطدام بآخر يعتقد حق مطلق مختلف، تنشأ حالة شديدة من العداوة والبغضاء.. تجعل أصحابها يُفضلون قتال بعضهم البعض، على قتال عدوهم الأصلي ! وهذه العداوة والبغضاء لا تحلق الشعر إنما تحلق الدين.[1]

(3) **الكهنوتية**: وهي تنشأ من خلال تقديس الأراء، وأصحابها.. ومعاملة كلامهم معاملة "نصوص الوحي" والكهنوت يجذب إليه الرعاع، ومرضى القلوب، ويضربون بكل رأي مخالف عرض الحائط، فهم يعتبرون نظر العقل إلى الأقوال عيب ونقيصة يجب على صاحبها الإسراع بالتوبة منها؛ وهم يصنعون حالة من الاحتقان الدائم، والتفرقة حتى على أتفه الأسباب.. وهذه الكهنوتية تُنشأ حالة من "الود" فيما بين الأتباع، وحالة من "الحقد" فيما بين المخالفين، مهما كانت درجة الاختلاف بسيطة؛ فتتسع الفجوة، وتتباعد القلوب بين جسد الأمة الواحد.

(4) **تدني الأخلاق**: عندما يطعن أحد في رأي يعتقده صاحبه حق مطلق، فإن صاحبه ينبري ليدافع عن هذا الحق، معتقداً أنه يُقدّم خدمة جليلة له، وأنه يدور مع الحق، وأن غيره إنما هو مأجور أو

---

(1) كما جاء في الحديث الشريف: "**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**" [جامع الترمذي/ 2510]

فاسق أو عميل أو منافق أو جبان ! وبالتالي "يستبيح" عرضه - وربما دمه ! - فيسبه بكل نقيصة، ويتهمه بكل جريمة، ولا يظن به إلا السوء ! فليس له كرامة ولا عِرض.. فتضيع المروءة، وتتسافل النفوس؛ مما يجعل البأس بين الأمة الواحدة شديد، والتنفير فيما بينها عنيف.. بينما لا يُوجد حق على وجه الأرض يحتاج إلى تدني الأخلاق للدفاع عنه !.

(5) **غياب روح التسامح**: حتى لم يعد يكاد لهذه الكلمة وجود في قاموسنا.. وحل محلها "البغضاء والغل" تجاه كل مخالف، حتى ولو على خلاف بسيط لا يُأبه له ! مما يمنع أي وحدة بين الأمة، أو حتى داخل المذهب والطائفة الواحدة !.

وهذا الحال من فساد العقل والنفس والأخلاق، لا يحتاج صاحبه إلى البحث عن "الدليل أو الحجة" بقدر ما يحتاج إلى "تربية" من جديد، و"علاج" لهذه الأمراض؛ حتى يكون ابتداء لبنة صالحة في جسد هذه الأمة، التي يُفترض لها أن تحمل رسالة الله إلى العالمين.. فلا تقوم الأمم إلا عند شعور أفرادها أنهم جسد واحد، يحترم بعضه بعضاً، ويُقوي بعضه بعضاً، ويحفظ بعضه بعضاً.

❊ ❊ ❊



أدى غياب المشروع الواحد للحركة الإسلامية إلى ترسيخ عوامل الفرقة المختلفة، وتضخيم الخلافات؛ فخرج خطاب طائفي حزبي بامتياز، وغاب الخطاب الجامع الذي يستطيع أن يحتوي الأمة بما فيها من العصاة والمبتدعة وغيرهم، فنجد – مثلاً – من يخطب في محاضرة أو لقاء يضرب بعشرات الملايين من الأمة ويصمهم بالبدعة والشر، ويستسهل إطلاق الأحكام بالجملة وعلى العموم، وللأسف هذه التربية ناتجة من تراث كانت فيه خصومات شديدة، وكَتب مَن كتب في هذه الحالة من الكراهية والتحيز والغلو والطعن في المخالف، وعندما ورث قوم هذا التراث، نقلوا حالة الغلو والغل والكراهية إلينا، وغاب عنها روح التسامح والاحتواء والقول الحسن، والرحمة بحال الناس.

وعندما يسمع الآخرون هذا الخطاب الحاد العنيف الذي يضع عليهم كل أخطاء الماضي والحاضر والمستقبل، فإنهم يعلنون من جانبهم الحرب على الطاعنين فيهم ! ويَتكوّن لدى أتباع الشيخ نفس هذه الحالة من الكراهية، فيتحول بعض أبناء الحركة الإسلامية إلى مجرد سيوف مسلطة تضرب بسيف الفرقة والغل في كل مكان.. ظناً منها أنها تدافع عن الدين والسنة والمعتقد الصحيح !.

وإنه بالفعل يكون هناك أخطاء فكرية وحركية وبدع.. ولكن ما ذنب ملايين من الناس التي لم تقع في ذلك، إنما أحسنت الظن أو رأت بالفعل من الخير ما جعلها تحب هؤلاء أو هؤلاء وتُقلدهم؟!

وعندما تشاهد القطاعات المختلفة من الأمة حالة الشجار والخصام هذه، وإطلاق الأحكام بالجملة، وعلى ملايين من الناس.. لا شك أنها ستزهد في الجميع، ولن تجد في الحركة الإسلامية ما يجعلها تؤيد أو تنصر أو تستجيب لدعوتها.

لقد ظن البعض أنه كلما زادت جرعات الغلو والغل والشدة.. كلما صح المنهج ! وكلما كان هناك من التسامح والتراحم والقول الحسن.. كلما ضعف المنهج أو ظن أصحابه من أهل "البدع والإرجاء"! فتنافس البعض في الغلو حتى الفظاظة والقسوة التي تجعل الحليم ينفض عن هؤلاء !.

كما لعبت النظم السياسية دورها في ترسيخ حالة الخصومة والغل، وإشغال الناس بالمعارك الجانبية، والانتصار لفريق على حساب آخر، والحط على المخالف، ثم يدور الزمان دورته.. فتنتصر النظم السياسية للفريق الذي ظُلم، وتَظلم الفريق الذي ظَلم أول مرة، وهكذا في دورة تتحكم فيها النظم السياسية لتحقيق مصالحها الخاصة.. سواء أكانت هذه المصلحة إشغال الناس عن مراقبة ومحاسبة الحكومات الظالمة، وعدم الالتفات للقضايا المصيرية، أو استخدام الخطاب الديني والأيديولوجي للحط على المخالفين سياسياً... إلخ من حالات "الدجل السياسي" التي يُلعب فيها بالدين وبالحق وبالحقيقة.

ولا بد للغل والحسد أن يؤدي إلى البغي والظلم.. وهو أمر ليس بالهين فإن وجود الغل والحسد في القلوب لا شك يُفسدها، ووقوع البغي والظلم في السلوك لا شك أنه يُفسد الحياة، ويجلب العقاب الإلهي[1]، ويُسمم المجتمع، ويهدر الكرامة الإنسانية.. عندما يؤدي هذا الأمر إلى رسوخ الاستبداد، وخروج أجيال وُلدت من رحم الاستبداد وتغذت بدجله، وتسممت من ثماره الخبيثة التي تطرحها كل حين الشجرة الملعونة للاستبداد الذي لا ينتهي؛ فتَفسد القلوب والعقول، وتُسلط السيوف ليس لمواجهة أعداء الأمة، وإنما ليضرب بعضها رقاب بعض !.

* * *

[1] جاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**" [جامع الترمذي/ 2168]



الاختلاف عموماً فتنة أراد الله جَلَّجَلَالُهُ بها أن يمتحن الإنسان في حال استضعافه وفي حال تمكينه. وقد وقع الخلاف بين الأمة من قديم.. اختلاف من كل الأنواع فهناك: خلاف سياسي، وخلاف مذهبي، وخلاف فكري، وخلاف عقائدي، وخلاف فقهي... إلخ.

وقد يكون هذا الخلاف تافهاً لا يستحق حتى النظر والاهتمام، وقد يكون الخلاف عميقاً يصل إلى أصول الدين، وأنا أعتقد أن القرآن الكريم قادر على توحيد الأمة، ونزع الخلاف عنها في العموم.

إلا أنني كنت أتساءل – في نفسي – هل يمكن أن نزيل كل هذه الاختلافات ونتوحد؟

قلت فلنجرب: فأنا أعتقد في مسألة ما قولاً، نظراً لتوافر الأدلة الشرعية والعقلية فيه بصورة تجعلني أطمئن كل الاطمئنان أن هذا هو الصواب، وهذا ما يجب الدعوة إليه.. ثم نظرت فيما عند الآخر، فوجدت أن رفض ما اعتقده في هذه المسألة هو قضية حياة أو موت بالنسبة له، وأنه يعتبر أي خلاف فيها هو بدعة قد تصل إلى درجة الكفر !.

فقلت لنفسي: كيف سنتفق إذاً ؟!

فوجدت أن الحكمة من هذا الاختلاف هي "الابتلاء" وأن المسألة ليست في الاتفاق والتطابق المطلق، إنما هي في كيفية إدارة هذه الاختلافات.

وهذا يعني: أنه إذا كان لي السلطان في الأرض والتمكين، ووجدت هذا المخالف لي، فلا يحق لي أن أبغي عليه بقول أو فعل، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَكّن لي لينظر كيف سأعمل مع المخالف لي والمستضعَف.

والعكس صحيح لو كنت أنا المستضعَف، والآخر هو المُتمكن، فهو المُبتلى بي.. فإن ظلمني وبغى عليّ فـ﴿ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴾[طه : 111]

وإن المطلوب في حالة الاختلاف هو: التسامح، والتراحم، والمودة، وشعور الأمة الواحدة، وإصلاح ذات البين، والأدب الجميل، واللين، والرفق، وعدم تفرقة الأمة، ولا السعي في البغي فيها، ولا شهادة الزور على دين الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا الغلو في شيء سواء بالإفراط أو التفريط.

❋ ❋ ❋

إلا أنه للأسف لم تنجح الحركة الإسلامية – في كثير من الأحيان – في إدارة الخلافات، بل غاب عن قاموسنا كلمة "التسامح" وصرنا نقيم المعارك الضارية على أتفه الخلافات، وصرنا في حالة مثالية من: الغل، والبغضاء، والحسد، والبغي، وإفساد ذات البين.. الذي يحلق الدين كله.

هذا على مستوى الفكر.. أما على مستوى الحركة فقد وجدنا من بعض أطياف الحركة الإسلامية عندما تشم رائحة التمكين، وتحمل سلاحها لمقاتلة العدو الصائل الباغي المعتدي، فإذا بها تُدير خلافاتها فيما بينها عن طريق السلاح ! فيقتل بعضها بعضاً رغم توحش وتوحد العدو عليها، فإذا بها تتركه، وتلتفت لأنفسها لتجعل البأس فيما بينها ! وهذه حالة جد خطيرة استُحلت فيها الدماء باسم الدين والشرع، وأتت على تضحيات المسلمين، ومكنت للعدو في النهاية، وأفسدت ثمرة الجهاد كله، والعجب أن يكون عدوها رغم اختلافاته الأيديولوجية، وأطماعه الدنيوية نجده صفاً واحداً متحداً ضد أي حركة تقوم من أجل الإسلام وتحرير الأمة !!

وعندما تشاهد جموع الأمة هذا المشهد المحزن أن يقتل المجاهد أخاه المجاهد ولا يتوحد مع أخيه ضد عدوه الذي يريد الفتك بالجميع.. فإنها تزهد فيهم، وتيأس منهم، ولا ترى فيهم خيراً، ولا كبير فرق بينهم وبين البغاة والطواغيت !.

❋ ❋ ❋

والحركة الإسلامية – في العموم – عجزت عن أداء أدوارٍ تكاملية وتكوين جسد حركي متفاعل ومتكامل الأفعال، نتيجة لـ:

- عدم قدرتها على التحليل النفسي والاجتماعي لها وللمجتمع حولها.
- عدم معالجة التشوهات النفسية والفكرية التي تسببت فيها التربية العقلية، بل ساهمت بمزيد من النتوءات.
- زعمت كل طائفة من الحركة الإسلامية لنفسها أنها صاحبة "الحق المطلق" والآخر لا شيء، بل عقبة في الطريق !
- انزلاق الحركة الإسلامية من حمل "**الرسالة**" إلى تبني "الأيديولوجيا" وهذا تطور طبيعي لانهيار البنية النفسية والجسد الاجتماعي، إذ أن الرسالة لا يحملها إلى بنيان يشد بعضه بعضاً، وجسد اجتماعي روحه الرسالة يؤدي أدوراً تكاملية. أما في حالة "**الأيديولوجيا**" فهي عامل جذب لأصحاب الصور النفسية المتكررة، بمعنى انجذاب ذوي التطابق النفسي، فلابد أن يرى كل فرد في التكوين الجماعي للأيديولوجيا نفسه في الآخر، وإذ لم يُعبر الفرد عن الصورة العامة للتطابق النفسي يتم طرده، لأن الكيان الأيديولوجي لا يسمح بوجود نفوس مختلفة، بل لا بد من التطابق حتى يستمر "التجمع الأيديولوجي"..

هذا التجمع الأيديولوجي يعمل لصالح الأيديولوجيا التي يحملها، ويعمل لصالح التكوين الأيديولوجي، ولا يمكن تسمية هذا الكيان الأيديولوجي سواء كان حزباً أو جماعة ببنيان يشد بعضه بعضاً، أو يؤدي أدوراً تكاملية.. لأن البنيان الذي يشد بضعه بعضاً يحمل اللبنات النفسية المتفرّدة في طاقاتها واستعداداتها ويسد كل منها الآخر؛ فيشد بذلك البنيان بعضه بعضاً. أم التجمع الأيديولوجي فهو تجمع فكري ونفسي للنفوس المتشابهة، والمتطابقة.. أي أنه التقاء حاجة، وليس التقاء تكامل، وهذا بالضبط ما حدث للحركة الإسلامية !

* * *

وإن وضع آلية لإدارة الاختلافات، والاعتراف بها أولاً، وعدم اعتقاد الحق المطلق فيها، وتوظيفها ليس في جعل البأس بيننا، ولكن في تنويع سبل المواجهة - إذا توحدت الأهداف والغايات - والابتعاد عن أي صدام مادي أو معنوي، كل هذا من شأنه أن يؤدي إلى إصلاح ذات البين، والوقوف كالبنيان المرصوص تجاه العدو.

وإنَّ أخطر ما تواجهه هذه الأمة هو: التفرق في الدين، وأن يكون البأس والتناحر والتقاتل فيما بينها، ويذيق بعضها بأس بعض، وهو أشد ابتلاء على هذه الأمة؛ يجب أن تخطط جيداً لتجنب وقوعه، والتخفيف من حدته، وتجفيف منابعه، وعلى الأمة أن تُقدّم من العمل الصالح، والتقوى، وحسن الخلق ما يرفع عنها هذا العذاب، ويُعينها على هذا الابتلاء؛ ويجلب لها معية الله جَلَّجَلَالُهُ ورضاه وعفوه.[1]

وإنَّ فشلنا في التسامح والتراحم، جَعل الخشونة والغلظة حاضرة ومستقرة فيما بيننا؛ فسَهّلت على كل عدو الاحتكاك بنا، وإفساد ذات بيننا،[2] وتدمير كل إنجازات يمكن الوصول إليها.

إننا إن عجزنا عن روح التسامح والألفة والمحبة بين أمة الإسلام، فليس أقل من الامتناع عن "**البغي**" الذي يُفرق الأمة، ويفسد عليها أمرها، ولا نجعل من الخصومات أو الاختلافات الفكرية.. غذاءً ومدداً لروح البغضاء والتعصب والحقد والحسد والغل الذي يحلق الدين كله.

وإن النجاح في "إدارة الاختلافات" وتوظيفها التوظيف الأمثل لتكون عاملاً إيجابياً، وليس سلبياً هو شأن العقلاء في كل أمة، وفي كل جيل.[3]

❊ ❊ ❊

(1) جاء في الحديث الشريف: "قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطَلْتَ الْجُلُوسَ فِي صَلاتِكَ، قَالَ: "**إِنَّهَا صَلاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ سَأَلْتُ اللَّهَ فِيهَا ثَلاثَ خِصَالٍ فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ، وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لا يُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَى بَيْضَتِكُمْ عَدُوًّا فَيَجْتَاحَهَا، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَمَنَعَنِيهَا**" [المعجم الكبير للطبراني / 4112]

(2) جاء في الحديث الشريف: "**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟** " **قَالُوا: بَلَى، قَالَ:** "**صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ** " وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "**هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**" [جامع الترمذي/ 2509]

(3) راجع - إن شئت - بحث: ألغام في الفكر الإسلامي.



تشعر كل جماعة في الحركة الإسلامية بنوع من الاكتفاء الذاتي، وتُكَوّن لنفسها قالباً لنسخ الأتباع فيه.. فيكون لها: الكتب المعتمدة، والأفكار المحددة الثابتة، ومجموعة القضايا التي لا تخرج عن الحديث فيها أو العمل في مجالها، وما على المنتمي للجماعة سوى الالتزام بهذا الإطار، والطاعة العمياء للقيادة.

ويؤدي ذلك إلى عملية "قولبة" لكل أتباع الجماعة، مما يمنع أي نمو فكري، أو نقد ذاتي، أو الاتحاد والتعاون مع أحد.. اللّهم إلا أصحاب نفس نموذج القالب الذي يحمل شروط ومواصفات "التطابق الكلي" وأي اختلاف في نوع القالب وشكله وحجمه وفكره وحركته.. فهو مردود، ودخيل.

وتؤدي عملية القولبة بالتبع إلى العزلة الروحية والفكرية، والعيش في فضاء متوهم – أو حقيقي – من الجماعة ومريديها، ويقطعهم عن الأمة بهمومها وقضاياها، إضافة إلى تغذية روح التعصب الجاهلي، والتشكيك في أي جهد للآخرين مهما بلغ، وإن حصل تعاون مع غيرها لمصلحة ما، فإن روح الشك والترقب والحذر هي التي تسود.. لا روح الإخاء والمودة والغاية الواحدة !

إضافة إلى ذلك يصبح القالب غاية في ذاته يجب الحفاظ عليه؛ مما يؤدي إلى الجمود والتصلب، وأي تغيير أو تصحيح يعني "كسر" القالب وانهيار الجماعة، وبالتالي فقدان عملية المرونة اللازمة لأي حركة، ومواجهة.

ومن أخطر ما تؤديه القولبة: إقامة الحواجز مع المصلحين والمفكرين المستقلين من علماء المسلمين – أو من الجماعات الأخرى – فكل عالمٍ مسلم لا يتبع الجماعة، فهو بحاجة إلى إذن وتصريح، وصك

أمان، وغفران ليمر فكره أو كتبه في داخل الجماعة، ويتم تصنيفه وتقييمه أولاً بميزان الجماعة، فإن رأت فيه أي اختلاف عن مبادئها، أو طريقتها حذرت منه، وشككت فيه، ولا مانع لديها من "اغتياله معنوياً" إن لزم الأمر، حتى ولو كان هذا المصلح شديد الحرص على أمته، عظيم الشأن في مجاله.

ولا شك أن هذه الطريقة تؤدي إلى "العقم والاستبداد والإرهاب الفكري" وتحرم أي جماعة تمارس هذه الطريقة من التغير للأفضل، أو الاستفادة من جهد وعمل ونصح المخلصين – سواء من أبنائها أو من غيرهم – فالقولبة تحطم القدرات الشخصية، وتقضي على التنوع اللازم لحيوية أي جماعة، وتسحق الإبداعات، وتهدر الطاقات المتنوعة – فضلاً عن وضع البرامج المناسبة لها – ولا تراعي الفوارق الإنسانية، واستثمارها، وتوظيفها التوظيف الأمثل؛ فتعطي الضعيف أكبر من حجمه، وتضع القوي في مكانة أقل من قدراته.. وتُوصل إلى حالة من "اللافاعلية الاجتماعية" وتجعل الشباب في حالة من الأسر والارتهان للجماعة وللقالب، وأي تحرر منه يصبح في نظر الشباب خيانة للمبدأ، وربما للدين كله..

ويجعلها تدور في حلقة مفرغة، تمر عليها عشرات السنين بلا تطوير في حركتها، ولا نمو في فكرها، وتُقدّم هذا العقم باسم "الثبات على المبدأ" بينما هو في الحقيقة الثبات على الجمود، وتحنيط الشباب في قوالب ميتة، وتصل الجماعة نفسها إلى درجة الجمود والتصلب التي تجعلها تنقسم على نفسها، ومع كبت الطاقات يتولد الانفجار.

كما تؤدي هذه القولبة إلى حالة من الكِبْر والاستعلاء بالذات على الناس، ومن ثَم رد الحق الذي عند الآخرين، وإهدار قيمتهم واحتقارهم ! وقد حذر رسول الله ﷺ من الكبْر أشد التحذير فقال: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** "، **قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ** "(1)

والكبر يؤدي إلى البغي: "**الْبَغْيَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ أَوْ بَطِرَ الْحَقَّ، وَغَمَطَ النَّاسَ** "(2)

(1) [صحيح مسلم/ 92]

(2) [مسند أحمد/ 4048]

والكِبْر يؤدي كذلك إلى التولي عن سبيل الرشد، واتخاذ سبيل الغي، فقال تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً** ﴾[الأعراف : 146]

* * *

ومن معالم الشخصية المُتقولبة:

(1) احتقار المخالف: فعندما يُقَدم فكر جديد أو مختلف عن القالب الفكري المُعلب للشخصية الحزبية المتطرفة، تبدأ في محاولة البحث عن "قولبة فكرية " لهذا العمل، لتسرد له "مجموعة تهم جاهزة" فإن عجزت، سألت عن صاحب هذا الفكر، فإن كان غير مشهور، اتهمته: من أنت؟ ما حجمك؟ من شيخوك؟ في محاولة لتحقير الشخص ومن ثم تحقير ما يقدمه، فإن كان مشهوراً.. بحثت له عن زلات، لتواجه بها الفكرة. والخلاصة: أن كل آخر عدو، وكل ما خارج قالبها شر.

(2) الدفاع المستمر، والهجوم المستمر: الدفاع عن قالبها وحزبها مهما عظمت أخطاؤه وتكررت، ومحاولة التبرير المستمرة، ولا تستطيع أن تُفرق بين تحليل الحدث وتبريره، والهجوم المستمر على من خارج قالبها وحزبها، مهما كان صواباً ومهما كانت الحُجة.

(3) أحادية التفكير، ومحدودية الرؤية: فلا تستطيع أن تفكر أو ترى إلا في حدود القالب الحزبي أو في حدود "تطرفها" ولا يمكنها الرؤية فيما بعد ذلك، مهما كان الأمر مهماً أو عظيماً. فلا تستطيع الرؤية المتكاملة أو الشمولية للحدث، فهي مقيدة بقالبها لا تنظر خارجه، ولا تنفعل بما يحدث خارج إطاره.

(4) ضيق النفس، وانغلاق العقل: فلا تجد حباً ولا حرصاً ولا بشاشة للإيمان ولا إطمئناناً للقلوب، ولا تفتحاً للعقول لقبول الخير، أو رفض الشر! شيء "جامد صلب" لا تجد في رسالته أو فكرته تلك الروح التي تحرص على إفهام الآخرين، وتحمل رسالة نجاة ورحمة، فتقدم صورة جافة، قاسية، جامدة.

(5) عدم القدرة على النمو: فتظل حبيسة "قالبها" مهما طال بها الزمان، عاجزة عن الإبداع والحركة والحيوية، ترى في الإبداع ابتداع، وفي الحركة تهور، وفي الحيوية ضياع.. تظل جامدة في قالبها حتى تنكسر هي أو ينكسر قالبها.

(6) شديد الخصومة: على من خالفها، فلا مجال للاتفاق حتى فيما تتفق مع الآخر فيه، فإما أن يقبل كل ما عندهم في قالبهم أو حزبهم، وإما أن يرفضه كله، وإذا انكسرت الشخصية المتطرفة أو انكسر قالبها الفكري.. صارت شديدة الخصومة والهجوم على قالبها الفكري وعلى نفسها، وهاجمت نفسها وقالبها بنفس الضراوة والعداوة التي تمارسها على مخالفها !.

(7) التقلب بين المتناقضات: لا تجد الشخصية الحزبية أو المتطرفة أدنى حرج أو غضاضة في التقلب بين المتناقضات، فهي قادرة على تبني الشيء وعكسه في نفس الوقت، وأي محاولة للتنبيه على هذا التناقض تُقابل بهجوم شرس وتسفيه وتحقير، واستعلاء بعدم قدرة الآخر على فهم الحكمة من ذلك.

(8) عدم الاتساق: غير متسقة مع نفسها، ولا في ردود أفعالها.. فهناك نتوءات نفسية وفكرية كثيرة داخل تلك الشخصية، معاييرها وموازينها مضطربة وغير محايدة، فقد تنفعل وتثور لحدث ما في مكان ما، وعندما يتكرر نفس الحدث لكن في مكان آخر مع تساوي نفس المعطيات، فلا تجد لها أي رد فعل، ولا تملك الشجاعة لتقف وتسأل: ما الفرق؟!

(9) الجمود أو السيولة: الشخصية الحزبية أو المتطرفة، تظل في حالة دائمة من الجمود على قالبها مهما تغير الواقع من حولها، فإذا أرادت أن تُحدث تغييراً.. تتحول إلى الحالة السائلة فلا تستطيع أن تضبط أفكارها، وتنهار حدودها، بمعنى أنها تجهل فكرتها؛ ولا تستطيع أن تكون مرنة فتنطلق في واقعها دون أن تتخطى حدودها وثوابتها ومبادئها، فتجهل ما هو ثابت لا يمكن التنازل عنه، وما هو متغير يمكن التعاطي معه، لأنها تتبنى قالبها الفكري كوحدة واحدة غير قابلة للتمييز، فإما قبوله كله أو رفضه كله.

(10) الاستبداد: لا تستطيع الشخصية الحزبية أو المتطرفة أن تتحرر من آصارها وأغلالها، تظل قاهرة ومُتسلطة على من هو دونها أو مخالف لها، ومتماهية ومُستذَلة لمن هو أعلى منها.

(11) عاطفية: فهي تتعاطى عاطفيا لا فكرياً مع الأحداث، ويكون انفعالها العاطفي مؤقت ومحدود التأثير، فلا يلبث إلا أن يهبط ويهوي الثوران العاطفي، دون أن يُحدث عبرة وتفكر وتأمل من الحدث.

(12) اهمال التاريخ والمستقبل: ذاكرتها التاريخية ضعيفة فلا تمسك بسنن التاريخ وعبره، ولا هي تتطلع إلى رؤية مستقبلية لاستشراف ما يحدث، فهي دوماً تشعر بالأمن والراحة داخل محضنها وقالبها، فهي محصنة داخله وبالتالي فلا يهمها عبر التاريخ ودروسه، ولا ما سيكون عليه المستقبل، كما أنها تفشل في القدرة على النظر إلى مآلات الأمور.

(13) تورم الذات: فكلما زاد الحجم المادي للقالب الفكري، كلما انتفخت معه الذات، وتتجمد أكثر، وتستمد حقها وقوتها من ضخامة القالب، وتنظر إلى الآخرين حسب أحجامهم المادية لا الفكرية أو الروحية.

(14) تبني الأشخاص لا الأفكار: الشخصية الحزبية أو المتطرفة شديدة التعلق بالأشخاص، شديدة التماهي فيهم، شديدة التأثر بهم.. لا تستطيع النظر المجرد للأفكار، ولا تستطيع النقد التحليلي للمعلومات.

(15) الافتراق: تعجز الشخصية الحزبية أو المتطرفة عن الاجتماع على فكرة جامعة أو قضية عامة، وتظل نظرتها أحادية إلى داخل قالبها، وتستعصي على الوحدة مع غيرها، فتظل مهزوزة الثقة في كل آخر، وإن اجتمعت لخطب ما مع آخر.. تشعر بالوحدة والضياع، ثم تهرب إلى داخل قالبها مرة أخرى.

❋ ❋ ❋

ومن خطورة التفكير بصورة مُتقولبة:

- أن "العقل والتفكير" يتوقفان أمام "القالب الفكري" واعتباره قانوناً مقدساً؛ ومن ثم تتوقف عملية الإبداع، وإنشاء واقع جديد مختلف تماماً عن هذا النمط، لأن العقل ينظر

إليه على أنه "قانون مقدس" نتيجته حتمية لا يمكن تغييرها أو تعديها أو تحويرها أو الصدام معها.

- أن العقل لا يقبل النصيحة المبذولة له من خارجه، بل لا يستجيب لليد الممدودة له تريد تحريره من سجنه.
- أن الأخطاء والكوارث التي تقع بسبب هذا الفكر، لا تحطم أسوار السجن، بل تجعله فقط في حالة هياج عاطفي رومانسي؛ يُعلي من قيمة التضحية والفداء.. ولكن بلا مقابل، لأن العقل مسجون داخل أسوار قوانين مقدسة، ونمطية جامدة !

والكثير منا في واقع حياته اليومية قد يقع أسيراً للفكر النمطي المتقولب في اختيارته وممارساته، استناداً لنتائج تجارب آخرين، فيصبح أسيراً لها.. وهنا يدخل العقل أقصى وأشد سجن يمكن أن يتصوره.

❊ ❊ ❊

كما تُسهل القولبة عملية "الاختراق الفكري" من قِبل الأعداء، وسهولة توظيف العدو للقوالب الفكرية والنفسية الجامدة لكل جماعة، فمع الدراسة الدقيقة لقالب الجماعة، ومعرفة تكوينه - وجموده عن أي تغيير أو تطوير - يجعل العدو يصنع رجاله على نفس قالب الجماعة، ثم يخترقها - لأنه يحمل نفس المواصفات الفنية للقالب - ويوجهها الوجهة التي يريد.

بينما التنوع والمرونة واليقظة، ودوام التطوير الحركي، والانفتاح على كافة الأفكار، والاتجاهات، والتربية الراسخة الرسالية - لا الحزبية - تُصعِب على العدو أي محاولة للاختراق، لأنه لا قالب يمكن نسخه وتزويره.. ويجعلنا نتفهم بعضنا البعض في جو من العلم والتسامح، ويجعلنا نبلغ الغاية القصوى من الاستفادة من جهود بعضنا البعض، ويضمن الحد الأدنى من التنسيق والتعاون وعدم تضارب المشروعات، لضمان المرونة، واليقظة المستمرة.. دون محاولة هدم هذه الجهود، أو تشويهها، فتكون الحكمة والعلم النافع والعمل الصالح محوراً رئيسياً من محاور حركتنا وتربيتنا.

❊ ❊ ❊



فُقدَانُ الرُوح الدَافِعة

أخطر ما يواجه أي عمل هو "فقدان الروح الدافعة" فيتحول العمل إلى صورة رتيبة مُملة، صورة بلا حقيقة، والروح الدافعة تعني العواطف والمشاعر الدافعة للعمل، والأفكار الحاملة لموضوع العمل.

فنجد في الغرب – على سبيل المثال – لديهم من الروح الدافعة للتفوق المادي والعلمي والتقني، والسيادة العالمية.. وتجد هذه الروح سارية في كافة المؤسسات التعليمية والثقافية والسياسية والعسكرية، ونجد هذه الروح يتم غرسها في الأطفال منذ نعومة أظفارهم؛ مما يؤدي إلى حالة التناغم والتكامل بين مكونات المجتمع، وضمان فاعليته، وإنتاجه.

وحتى في لحظات الهزيمة والانهيار لا يفقدون تلك الروح، لأنهم يعرفون أنها أساس وجودهم، فإذا انهارت.. انهار معها كل شيء وانفرط العقد.

في العمل الإسلامي كان المؤسسون الأوائل لديهم من الروح التي تحمل مشروع الأمة كله، وتنظر إلى المستقبل بروح التحدي والرغبة في التفوق الحضاري، ولكن للأسف خلف من بعدهم خلف عاشوا على تكرار أقوال الرجال الأوائل بلا تلك الروح، وبلا رغبة حقيقية في أن يكونوا مثلهم أو أفضل منهم، بل هي نظرية الشيخ ومريديه، والسياسي وأتباعه !.

وإننا بالفعل نواجه تحديات حضارية خطيرة، لا سيما بعد عولمة الفكر العلماني، وحمايته بالقوة العسكرية.. وموقفنا المتذبذب والمتناقض والمتحير منه، ومن كيفية مواجهته، والتعاطي معه، مما يؤدي كل ذلك إلى حالة "الانهزامية" و"الانسحاق" أمام الأقوياء، والاستجابة لعوامل الترهيب،

دون حساب ما نملكه من قوة فيما نحمله من حق، وما يفيض الله جَلَّجَلَالُهُ به علينا من عزيمة عند الإخلاص.

فنجد التراخي والترهل الفكري والخوار تجاه هذه التحديات، بينما نجد الغرب رغم تفوقه المادي الهائل، في حالة مفعمة بالنشاط والحركة والتقدم كأنه يسابق الحياة والزمن !.

وإننا نفقد هذه الروح عندما يضطرب لدينا مفهوم "الهوية"، ونفقد معالم مشروعنا الإسلامي، ونستهلك أنفسنا في الاحتراب الداخلي، والاستسلام للأمر الواقع، والتخلّف الفكري والعلمي عن معرفة ماذا نريد؟ وكيف نحقق ما نريد؟

رغم أن لدينا مخزون لا ينضب من "الروح الدافعة" إنه "القرآن الكريم والإيمان باليوم الآخر".. فليس هناك من روح دافعة أكثر من الإيمان باليوم الآخر، وابتغاء مرضاة الله، ورجاء ما عند الله جَلَّجَلَالُهُ.

ولكن للأسف تم استخدام هذا المخزون بشكل منحرف، لقد أصبح بعض الشباب يتمنى الموت لعجزه عن مواجهة الحياة، وأصبح مشروعه هو مشروع الموت والتخلص السريع من الحياة؛ وبالتالي نفقد الروح الدافعة لاستكمال المشروعات الإسلامية بعيدة المدى، أو التي تحتاج إلى نَفس طويل، وعمل دؤوب متكامل، وبذلك نفقد كوادر نحن في أمسِ الحاجة إليها ! ونفقد قبلها الروح الدافعة التي تستشرف المستقبل، والتي تتطلع إلى بناء حضارة إسلامية راشدة.

ومع فقدان الروح الدافعة، نفقد معها "عقيدة التغيير الشامل" ونقنع بسفاسف الأمور، والتغيير الوهمي، أو المكتسبات الضعيفة والهشة، ونشعر أنه لا طاقة لنا بمواجهة الحياة، فنعيش على هامشها، منتهجين منهج "الرضى بالأمر الواقع"، لا منهج "**التحدي والإصرار**"، وتقديم وجه جديد للحياة يُعبر عن ديننا وهويتنا وحضارتنا.

❋ ❋ ❋



وقعت الحركة الإسلامية بين اتجاهين متضادين حول الموقف من مسألة الجهاد.. الاتجاه الأول: الغلو في السلمية. والاتجاه الثاني: الغلو في العنف.

أما الاتجاه المغرق في السلمية: فإنه ينظر إلى كل عمل جهادي على أنه "عنف وإرهاب" مذموم، مصيره الفشل حتماً، وأن أصحابه عملاء خونة ! فيسارعون إلى التبرأ فكرياً من كل فكر وعمل جهادي، ويتفاخرون بالسلمية، ولا يرون طريقاً للتغيير إلا من خلال "العمل السلمي" وتصورهم عن العمل السلمي أو طريق التغيير هو "الديمقراطية"، ويعتبرون الجهاد هو "جهاد صناديق الانتخابات" والمقاومة هي وحدها المقاومة السياسية !.

وفي أحيان يشاركون الغرب في محاربة الاتجاه المسلح، ويتهمونه - مع الغرب - بالإرهاب والوحشية! كأن هذا الاتجاه يغزو العالم كل يوم، وله من الحروب العالمية صولات وجولات ! بينما تقوم حرب استئصال في بلاد المسلمين، في أفظع صور "الإرهاب الدولي" وفي تأييد صريح لما يسمى "الأمم المتحدة".. حرب إبادة تقوم بها الدول العظمى ضد المسلمين، والمسلمين وحدهم، والإرهاب الحقيقي وحروب الإبادة هي ما تقوم به أمريكا وروسيا وفرنسا وإنجلترا في حروبهم الصليبية العالمية المعاصرة، وتستبيح كل شيء من أجل إعادة تقسيم بلاد المسلمين على أساس طائفي وعرقي؛ لتحقيق مزيد من الهيمنة والاحتلال، وتعتبر آلاف القتلى وملايين المشردين مجرد "أضرار جانبية" - كما صرّحوا بذلك نصاً !! - وإن جميع الحركات الجهادية - أو الإرهابية - منذ سقوط الدولة العثمانية حتى الآن لم تُحدث قتلاً ولا دماراً يمثل عُشر معشار العشر من جرائم أهل الإرهاب الحقيقي والهيمنة العالمية، فهل يحق لأحد أن يتحدث عن إرهاب مسلمين دون الحديث عن فظائع ملل الكفر ضد الإسلام وأهله؟!!

وأما الاتجاه المغرق في العنف: فإنه يتصور أنه لا حل ولا طريق إلا طريق "العنف" وهو جهاد مبارك، وإن أصحاب المناهج السلمية المنبطحة، يسيرون في طريق الوهن والضعف والوهم، وإنه لا حل إلا من خلال "العمل المسلح"، ويعتبرون أنفسهم وحدهم هم الطائفة المنصورة التي لا يضرها من خذلها.

والفرق بين العنف والجهاد: أن يكون العنف سمة نفسية وحركية عامة، وهو سلوك مرفوض كما جاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ**"(1)

أما الجهاد: ففي أصله وحركته "رحمة وخير وسلام" لأنه يواجه المفسدين في الأرض، وأكابر المجرمين، والمحاديين لله ورسوله ﷺ، والمحاربين للحق والخير والسلام، وهو ليس محصوراً في مجال القتال فحسب، بل جهاد في ميدان النفس والمجتمع وساحة المعارك.

ثم – ومن خلال التجارب الواقعية – فشل اتجاه الغلو في السلمية، وفشل اتجاه الغلو في العنف، وألقى كل فريق باللائمة على الآخر، وأنه عطل عمله، وأفسد حركته !.

فالاتجاه المغالي في السلمية:

- طلب العمل السلمي، بلا امتلاك للقوة، ولا حتى مجرد التلويح بها.
- عجز عن حماية المكتسبات، وعدم القدرة على حماية الإصلاحات.
- العجز عن بناء "مؤسسات الحكم" التي تحمل الهوية والشريعة الإسلامية.
- الاغترار بالمكتسبات الهشة، التي يسهل القضاء عليها.
- الخضوع في النهاية للأقوى، وانتصار القوة على الحق.
- المسارعة للتوافق والتنازل مع أصحاب القوى الحقيقية.
- حصر المشروع الإسلامي في "صناديق الاقتراع".

---

(1) [صحيح مسلم/ 2596]

- المسارعة في الغرب لتجميل الصورة، ولو على حساب إخوانهم من المسلمين.
- الاغترار ببعض الكُتاب الغربيين، واعتماد كتبهم، وفكرهم في التغيير السلمي، دون الدراسة العلمية الحقيقية لهذا الفكر، ومدى توافقه مع الفكر الإسلامي، وضروريات النهوض الإسلامي.
- التأصيل والعيش في "**مرحلة الاستضعاف**" والركون إليها وعدم الرغبة في الخروج منها، والرضى بـ "الذلة والمسكنة" دون الخروج إلى "**مرحلة التدافع والتمكين**" الحقيقي، بل و"التخذيل" عن أي مقاومة، وهذا بالضبط ما يوده العدو الأصلي للمسلمين.. الغفلة عن القوة، والعيش في الأوهام والاستضعاف، كما قال تعالى: ﴿ **وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ** ﴾[النساء : 102]

والاتجاه المغالي في العنف:

- الغلو في التكفير (وهو السلاح النووي الذي يحطم العمل الجهادي والدعوي).
- العمل من خلال خطة العدو.
- الجهاد النخبوي بلا حاضنة شعبية.
- الانعزال عن الأمة، وشعور الاغتراب.
- العنف المفرط، والتفجيرات العشوائية التي قد تقتل الأبرياء.
- إثارة القلاقل مع عدو محايد.
- التهاون في إعداد القوة.
- تحوّل القادة إلى أمراء حرب غرّهم المنصب والمال.
- الاقتتال الداخلي بين الفصائل المسلحة.
- اضطراب مفهوم الشريعة.
- الإعلان عن حرب عالمية نحن أضعف طرف فيها.

- سهولة الاختراق الفكري والأمني.
- عدم كفاية الحماية الجوية ومضاداتها، والأسلحة النوعية المناسبة للمواجهة.
- عدم القدرة على استنفار واستغلال طاقات الأمة وعقولها.
- عدم استكمال أدوات القوة.
- الخطاب الإعلامي السيء والمتعالي.
- قتال أهل القبلة – وإن كانوا بغاة طغاة – كقتال الكفار الأصليين المعتدين.
- القتال بلا مشروع سياسي.
- سرقة ثمرة الجهاد إن أفلح.
- الارتهان تسليحاً وقراراً وتمويلياً لقوى خارجية، تسعى لمصالحها البراجماتية، ويصبح المجاهد تحت إمرة الممول ومنفذاً لقرارته.
- التهديد الفارغ بدون قوة نمتلكها، فضلاً عن تصنيعها.

* * *

وحالات الجهاد المعاصرة التي ستواجهها الحركة الإسلامية، هي إحدى أمرين:

الأول: قتال العدو المحتل

وقتال العدو المحتل لا إشكالية على مشروعيته، وتوافق الجميع عليه[1]، وكل أمة تقاوم المحتل تنتصر عليه عسكرياً – كما يخبرنا التاريخ – لكنها كثيراً ما تفشل في مقاومته فكرياً وسياسياً، فالمحتل لا يحاربها عسكرياً فقط.. بل يعمد إلى إفساد الفكر والمشروع السياسي للمجاهدين.

---

(1) باستثناء الحكومات العميلة، والمنتفعون من الاحتلال، ومن لديهم الاستعداد والقابلية للدجل وتشرّبه، وأصحاب الفكري الغاندي وأشباهه.

ففي قتال العدو المحتل يجب أن يكون الهدف واضحاً:

(1) وهو ليس مجرد إخراج العدو المحتل - فهو سيرحل في النهاية - ولكن الهدف الأصيل الرئيس هو منع تولي من ينوب عنه، وينفذ مصالحه، ويكون وكيل عنه من بني جلدتنا.. ويتكلم بلساننا؛ كالحكومات العميلة له، والمتواطئة معه.

(2) منع أي محاولة لإثارة الفتن بين أبناء الأمة الواحدة، أو بين الفصائل المجاهدة، أو بين المخالفين في المذهب أو الدين، لأن العدو سيكون حريصاً على ذلك أشد الحرص، حتى يُقسم الصفوف الداخلية.

(3) إدارة الخلافات الداخلية بالحوار لا بالسلاح، وتحكيم العقل لا القوة، والحق والعدل لا البغي والظلم بين أصحاب القضية الواحدة.

(4) الانتقال من مرحلة إلى مرحلة بعد إتمام التحرير، وحماية المكتسبات - دون حرق المراحل - منعاً للفرقة، أو الاختلاف على شكل المستقبل السياسي قبل أن يقع.

(5) عدم الانخداع بالدعوات المغرضة التي هدفها كسر الإرادة والإفشال، والإرجاف، والخضوع للأقوى، واليأس والتخذيل من جدوى القتال.

(6) الحفاظ على الصورة المحلية والعالمية لمشروعية الجهاد والقتال، ودفع كل شبهة أو تشويه.

(7) الالتصاق بالأمة في معركة التحرير، والرحمة بها دعوة وسلوكاً.

(8) عدم إكراه الأمة على أيديولوجيات وقناعات تحت رهبة القوة، فالقوة فقط ضد العدو المحتل، وعدم استغلال القوة في تصفية الحسابات مع خصوم الداخل.

(9) المشروع السياسي - بعد القتال - يجب أن يكون نابعاً من الأمة لا من رغبة المحتل الأجنبي، وعدم الدخول في حرب بالوكالة لصالح أطراف خارجية تستغل الحدث لفرض هيمنتها وسياستها.

(10) إجادة الخطاب الإعلامي الحاشد للأمة، الذي يبث فيها روح الجهاد، والعزة، والقوة.

* * *

الثاني: قتال البغاة الطغاة

وهذا فيه إشكاليات كبرى، وليس عليه توافق.. ومن أبرز هذه الإشكاليات:

- قضية التكفير، ومدى اللغط الدائر حولها.
- قضية الديمقراطية، ومدى الأوهام المتعلقة بها.
- كيفية مواجهة البغي والاستبداد.
- قضية محاولة الإصلاح من الداخل، والفكر التوافقي.[1]
- قضية التوازنات الإقليمية، والهيمنة، والإرتهان للخارج.
- قضية إعداد القوة، وسُبل تحقيق النصر....إلخ.

وبالعموم هؤلاء البغاة الطغاة قصتهم طويلة مع الأمة المسلمة، فهم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويُصلّون إلى قبلتنا. وفي نفس الوقت هم تحت إرادة العدو المحتل يأتمرون بأمره، ويتولونه، ويحمون مصالحه، ويذلون شعوبهم، والحديث عنهم ليس هذا مقامه، وإن كان يمكن اختصار تعريفهم بأنهم: "الجريمة المنظمة – تزعم لأنفسها شرعية وطاعة – ولها علم ونشيد"[2] وهم أدوات استعمارية للملك الجبري.

ويجب أن لا نغتر بخطاب هؤلاء البغاة الطغاة، أو تتشرب قلوبنا دجلهم، أو تستجيب عقولنا لكذب كهنتهم، وهؤلاء الطغاة – رغم جرائمهم وفسادهم المستمر – يعتقدون أنهم "أمناء، صالحون، طيبون" ولا يتصورون لحظة أنهم "قتلة، خونة، مجرمون" فالنفس الإنسانية لا تستطيع – أو تُقر – أن ترى نفسها وذاتها بهذه الصورة أبداً، فإذا حصل لها ذلك فإنها تنتفض وتثور وتنقلب على كل شيء، إنها تستريح من وخز الضمير عن طريق: "الخداع الذاتي، والتخدير، والأمنية الكاذبة"

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: خطورة الفكر التوافقي.

(2) وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾[الأنعام : 123]

الخداع: عن طريق تشرّب الدجل. والتخدير: عن طريق إماتة الضمير باعتقاد ضرورة الجريمة للمصلحة العامة !. والأمنية الكاذبة: بوضع لافتات كاذبة على الخيانة والتآمر.

ولقد صَوّر القرآن الكريم الحالة النفسية لهؤلاء الطغاة والطواغيت وهم يهربون من أنفسهم فقال عن فرعون: ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾ [غافر : 26] فظهر فرعون لنفسه وقومه أنه الحريص على الدين، المانع للفساد في الأرض؛ والوسيلة لذلك هي: "قتل رسول الله" ! فزُين له سوء عمله: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [فاطر : 8]

كما يُصور حال الإنسان الذي يُخدر نفسه بوعد الحسنى دون إيمان وعمل، فيقول تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ [فصلت : 50] وكذلك كان حال صاحب الجنة الذي ظن أن له منزلة خاصة عند الله رغم كفره وتكذيبه!!: ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً** ﴾ [الكهف : 36]

والأمنية الكاذبة وسيلة الشيطان - ﴿ **وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾ [النساء: 119] - لإضلال الإنسان، وتخديره عن صحوة الضمير، أو سماع الموعظة، أو خوف العقاب والآخرة.

وكذلك تصور اليهود والنصارى فقالوا: ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ [المائدة : 18] والقرآن الكريم يقرر الحقيقة الكلية للجميع: ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً** ﴾ [النساء : 123]

فهؤلاء الطغاة وأعوانهم يعيشون حالة الاستكبار عن الخضوع للحق، والعلو في الأرض بغير الحق، وإتباع المنهج الإبليسي، والهرب من مواجهة النفس بحقيقة "حقارتها وتسافلها وقذارتها وفجورها وضلالها"، فتلبس لبوس "القيم والمبادئ والطهر والدين والأخلاق"؛ لتخدع نفسها.. قبل أن تخدع الآخرين.

* * *

وباختصار نقول: إن "الثورة" على هؤلاء الطغاة البغاة ضرورة لا مفر منها، فإذا نجحت الثورة السلمية عليهم فنِعِما هِي، وإن لم تنجح - وهذا هو الغالب - فلا مفر من استخدام القوة، حيث إن الثورة لن تكون على هؤلاء البغاة فحسب، بل إنها ستكون على أولياء أمورهم في الخارج الذين وضعوهم على رقابنا، فالثورة ستكون أيضاً تحرراً من هيمنة المحتل، ووكلائه، وخدمه، وعبيده.. ولأنهم لن يتورعوا عن سحق شعوبهم، فلن يرقبوا فيها إلاً ولا ذمة ولا عهداً ولا أمانة.. فالتسلح بالقوة ضرورة لا مفر منها، فصلاح الفرد لا يحتاج إلى قوة، وصلاح المجتمع لا بد له من قوة تحميه.. فالقوة أحد شروط الإصلاح الاجتماعي خاصة في حالتنا نحن.

وإنني لم أرَ في التجارب الثورية والجهادية هزيمة عسكرية، بل أجد صمود الأبطال، وانهيار للآلة الوحشية العسكرية أمام عزيمة الرجال، ولكن هؤلاء الرجال لا ينهزمون بسبب القوة العسكرية الجهنمية للعدو، إنما ينهزمون بسبب "**أمراض القلوب والعقول**" فالعدو لم يهزمنا، وإنما نحن من نهزم أنفسنا بأنفسنا. فنحن ننتصر في "**ساحة المعارك**" وننهزم في "**ساحة النفوس**"، ولا نعترف بالذنوب فضلاً عن أن نتوب منها، ومن هذه الذنوب: (**البغي، والغل، والحسد، والفرقة، وإفساد ذات البين، والاقتتال الداخلي، والاستعلاء على الناس، وتكفير المسلمين** [عند البعض]**، والكبْر، والتدابر، والشحناء، وولاية الظالمين، والعمل من خلال خطة العدو، والعصبية الجاهلية، والغفلة عن سبل المجرمين، والافتتان بالمال والسلطة**... إلخ) والتوبة من هذه الذنوب يجلب لنا معية الله ونصره ورضاه وعفوه.

وهذا تصوري عن جهاد هؤلاء:[(1)]

إن جهاد هؤلاء سيكون في جميع المجالات، بكل الوسائل "جهاد باليد واللسان والقلب" - كما جاء في الحديث الشريف - :

---

(1) حاولت في هذه السطور العصف الذهني لما يمكن عمله، وأفكار التغيير تحتاج دوماً إلى التنقيح والتطوير والتصحيح وملائمة ظروف كل مرحلة، ومنها ما يكون ممكناً سهلاً في مرحلة ما، ومنها ما يحتاج إلى تمهيد وخطوات سابقة وبناء جسور للعبور للمرحلة التالية، وجميع الخيارات مفتوحة لاستنقاذ الأمة.. لكن من المهم أن يكون التصور العام والأهداف الكلية واضحة تماماً أمام أعيننا، حتى ولو كنا ما نزال في الخطوة الأولى.

"سَيَكُونُ أُمَرَاءُ مِنْ بَعْدِي يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يَأْمُرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لا إِيمَانَ بَعْدَهُ "[(1)]

دون الانشغال بقضية التكفير، والتحذير من الوقوع فيه..

وجهادهم: هو جهاد أهل البغي، فكل من نطق الشهادتين وانتسب لأمة محمد ﷺ، فله كرامة وحقوق[(2)] - وإن كان من أكابر المنافقين،[(3)] ومصيره في الآخرة في الدرك الأسفل من النار - وعليه فلا يمكن جهادهم كقتال الكافر الأصلي - إلا في حال الدخول تحت رايته - وإنما يدخلون - فيما أرى - في أحكام أهل البغي، وبذلك - إن شاء الله - نغلق باب التكفير وفتنته، والاختلاف عليه، ونسد ثغرة خطيرة يدخل منها العدو.

وجهاد القلب: هو إنكار القلب للظلم والبغي والعدوان، وعدم "الرضى والمتابعة" على باطل مهما كان صغيراً، وعدم ولاية الظالمين، أو الإقرار لهم بما هم عليه.

وجهاد اللسان: هو قول كلمة الحق عند سلطان جائر، وعدم إعطاء الشرعية لنظمهم أبداً، والأمر بالمعروف في الأمور السياسية والاقتصادية والشأن العام، والنهي عن المنكر كذلك فيه.

وجهاد اليد: إعداد القوة اللازمة لمقاومتهم.

والبداية هي:

- إسقاط شرعية البغي.

---

(1) [صحيح ابن حبان/ 177، صحيح مسلم/ 52]

(2) ونستلهم هذا المعنى من الحديث الشريف: عن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، يُحَدِّثُ، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا، وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِينَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيَّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِي: **يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟** قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: فَقَالَ: " **أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟**" قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ" [صحيح مسلم/ 99]

(3) قال النبي ﷺ في كبير المنافقين ابن سلول - لما أراد ابنه أن يقتله بسبب جرائمه في حق النبي ﷺ والأمة -: "**بَلْ نُحْسِنُ صُحْبَتَهُ وَنَتَرَفَّقُ بِهِ مَا صَحِبَنَا**" [دلائل النبوة للبيهقي / (4 : 62)]

- إسقاط شرعية أكابر المجرمين، والمحاديين لله ورسوله ﷺ، والمحاربين للأمة أو وكلاء عن المحتل.
- انتقال شرعية السلطة إلى الأمة.
- الشرعية هي شرعية الرشد لا البغي، فلا انتقال من طاغية إلى طاغية آخر.
- بناء مؤسسات الرشد، والتشبع بالفكر السياسي الراشدي.
- الثورة.[1]

ومكونات الثورة هي:[2]

- الثورة الفكرية والنفسية (الثورة الاجتماعية بمعنى تغيير ما بالنفوس من تصورات ومفاهيم وقيم وموازين باطلة، وتغيير ما بالعقول من أوهام وأخطاء).
- تكَون القاعدة الصلبة.
- اكتمال الكتلة الحرجة في المجتمع، وصولاً إلى مرحلة "التشبع الاجتماعي"[3] القادر على إحداث التغيير المنشود.[4]
- الإجماع على الثورة، واكتمال التصور عنها.
- تنقية الهوية الإسلامية الجامعة من لوثات العلمانية.

---

(1) جميع الخيارات مفتوحة أمام أي تغيير إيجابي في واقع الأمة.

(2) راجع – إن شئت – : معالم في الثورة، كبسولات ثورية، الثورة الإسلامية.

(3) راجع – إن شئت – مقال: التشبع الاجتماعي.

(4) الكتلة الحرجة للحركة الإسلامية حوالي (5٪) من مجموع الشعب، وروادها وكوادرها هم "القاعدة الصلبة". والكتلة الحرجة للمجتمع حوالي (5٪) من مجموعه، مع اعتبار خاص لفئة الشباب ودورها في أي مجتمع وأمة، ويمكن اعتبارها "الكتلة الفاعلة" نظراً لقوتها وحيويتها، وهي "الذُرية" التي تحمل جينات التغيير، وهم التربة الخصبة لأي مشروع تغييري.

- علاج أمراض الاستبداد.
- وضوح الأهداف، وفهم طبيعة المعركة وحقيقة الصراع.
- القدرة على بيان أننا أصحاب قضية عادلة، والدفاع عن مظهرها الإعلامي والسياسي.

ويساعد على الرغبة في الثورة:

- ظهور طغيان النظام الحاكم وبغيه وعدوانه.
- معرفة منظومة الفساد الحاكمة في كل المجالات.
- حدوث الانهيار الاقتصادي، والتضخم، وارتفاع الأسعار.
- تردي الخدمات، وترهل الجهاز الإداري للدولة.
- تغير معادلات القوى في النظام الدولي.
- القهر والاستبداد.
- معاداة الإسلام، ومحاربة الشرع.
- شيخوخة النظام.
- الإرهاصات الخاصة بالإضرابات والتظاهرات الحاشدة.

قيادة مكونات الثورة:

من خلال قيادة ثورية تعرف ماذا تريد؟ وكيف تحقق ما تريده؟ فلا ثورة من دون قيادة، وإن كان ثورة الفكر لا تحتاج إلى قيادة في بداية الأمر، فلا بد من قيادة لثورة الأمة في النهاية، منعاً لسرقتها. ولا بد للقيادة أن تكون واعية مخلصة، ومقبولة اجتماعياً.

مخاطر تهدد الثورة: [1]

- الحركات المضادة للثورة "الدولة العميقة – الجريمة المنظمة".
- تحول الثورة إلى مجرد انفجار وغضب عفوي غير مدروس، وغير محدد أهدافه وأدواته.
- عدم إدراك حجم التضحية المطلوبة، والتكلفة الحقيقية لضريبة الحرية والتحرر من الطغاة.
- عدم إدراك رد فعل الأنظمة على الثورات، وعدم استيعاب مدى وحشيتها في مواجهة الثورة.
- التعويل على المنظمات الدولية كالأمم المتحدة ومجلس الأمن، وتصديق دجلهم.
- تململ الشعوب من التضحيات.
- تآكل شرعية الثورة والرصيد الشعبي.
- تكوين المليشيات الشعبية المسلحة – "الصحوات" – لتكون عوناً للأنظمة الطاغية، ويداً تُفسد في العمل الجهادي.
- عدم تكوين "الحرس الثوري" اللازم لحماية الثورة.
- الاختراق الخارجي باسم الأخوة والدعم، بينما يكون هدفه: التجسس، والفتنة، وإفساد ذات البين، وبث الفرقة، وتحوير الأهداف، والاقتتال الداخلي بدلاً عن العدو الأصلي.[2]
- عدم إدراك خارطة النفوذ وعلاقات القوى بصورة صحيحة وجيدة.
- الخطأ في تقدير المواقف (قلة المعلومات، وبطء آلية اتخاذ القرار).

---

(1) هذه المخاطر تهدد الثورة في مرحلتها الأولى، وهناك مخاطر أخرى للمرحلة الثانية، والثالثة.

(2) وهذا لا يعني تقديم الولاء القطري أو القومي على ولاء الدين، وإنما نقصد الحذر من هذه الثغرة، والاحتياط لها.

- الاستجابة والانجرار للمعارك الوهمية، والقضايا التي قد تبدو هامة ظاهرياً إلا أن غرضها هو الانشغال عن المعركة الأصلية.
- اضطراب الهويات واختلاف الرايات.
- الانقسامات الداخلية.
- الأطماع الشخصية.
- الافتتان بالملك.
- تغير النفوس عند الشعور بالقوة.
- أفخاخ التفاوض، والحلول الوسط.
- إجهاض المقاومة عن طريق التراخي والتنفيس والوعود والآمال الكاذبة.
- الاختراق الفكري والأمني.
- الصراعات الأيديولوجية.
- عدم وحدة الأهداف والغايات.
- عزل الثورة عن الأمة وجماهيرها.
- حضور المحتل الأجنبي بصورة عسكرية مباشرة.
- ضعف الشعوب عن تحمل الضريبة.
- الإعلام الخارجي المضاد.
- سرقة الثورة وتحوير أهدافها.
- هدم الخير القائم، والتحول إلى الأسوأ.
- القفز فوق المراحل لتحقيق التغيير والمشروعات الكبرى بلا تمهيد أو أرضية قوية ثابتة.

- الانشغال بعمل الاستفتاءات، والقضايا الغير هامة.. بدلاً عن بناء مؤسسات الثورة، وترسيخ هويتها.
- الفتاوى المضللة.
- الصراع البيني بين أصحاب الأهداف الواحدة.
- بطء التغيير، والحصار الدولي.
- عدم ضبط الحالة الأمنية والمعيشية، وتنظيم الحاجات اليومية.
- انقلاب الأقليات، واستقواؤها بالخارج.
- تغير الأهداف والقناعات.
- فراغ القيادة.
- العنف المفرط.
- تحول العمليات العسكرية الجراحية والنوعية إلى عمليات تدمير عشوائي وشامل.
- توظيف العنف لصالح العدو، والاقتتال الداخلي.
- الاختلاف على شكل الدولة الإسلامية، والديمقراطية والبيعة والشورى والمحاكم.
- الرغبة في التغيير الكلي من أول خطوة، دون اعتبار للظروف، وسوء تقدير المواقف.

❊ ❊ ❊

مظاهر القوة التي تحمي الثورة: [1]

(1) قوة الرسالة:

(بناء الإنسان السوي – تربية الإخلاص والوعي والقيادة – تربية منظومة القيم والأخلاق – علاج الانحرافات التي أصابت مسيرة الحركة والعمل الإسلامي – علاج الانحرافات النفسية والفكرية والتربوية الناجمة عن بيئة الاستبداد – وضوح أهداف الرسالة الإسلامية – وضوح التحديات والغايات – تربية التدين الصادق والزهد، والتربية الروحية العميقة – تربية العقل التربية المنهجية الدقيقة والمنضبطة – تربية القيادة والاستراتيجية والحكمة – علاج الانتكاسات).

(2) القوة الفاعلة:

قوة الشعبية الجماهيرية "الحاضنة الشعبية": وهذه لا يمكن اعتبارها وحدها كفاية لاعتقاد امتلاك القوة، أو الاغترار بها للسعي للوصول إلى السلطة، ولكن دورها المساندة في اللحظات الفارقة، وتبني المشروع الإسلامي بصورة عامة.

(3) قوة القلة صناعة القرار، أو المُوجِهة لصناعة القرار:

القوة الاقتصادية والأمنية والسياسية، ومراكز القوى، ومعادلات هذا التوازن. فلا يمكن الاعتماد على الحاضنة الشعبية – ولو أغلبية – وحدها، **فالقوة الفاعلة** هي: نقطة الالتقاء بين الدعم الجماهيري، وامتلاك جزء من مراكز القوى داخل الدولة.

---

(1) هدف هذا الكتاب الرئيس هو الإشارة إلى الانحرافات والأمراض التي أصابت الحركة الإسلامية، والتحذير منها، والمسارعة في علاجها.. ولا مانع أن نشير هنا إلى هذه القوى إشارة عابرة بما يتسع به المقام، ولا يستهولن أحد منها شيء – أو يظنه مستحيلاً – فقد استطاع أن يحققها من هو أضعف منا، ومن هم على باطل.. والأمة زاخرة بالطاقات، والضعف ليس في الإمكانيات.. إنما الضعف في الروح التي تستسلم للاستضعاف، ولا تفكر في كيفية امتلاك القوة، وامتلاك القوة ليس سبيله الوصول إلى كرسي الحكم – فهذه آخر خطوة وثمرة الجهد – إنما يعني القدرة على صناعة القرار ، والتأثير فيه، وحماية الإصلاح، والأهداف، والكوادر، والأمثلة المذكورة فيما يلي على سبيل المثال لا الحصر.

ملاحظة: في حالة القلة (الاستضعاف) يكون الحل: تكوين اللوبي الفعّال، ومحاولة التأثير في صنع القرار، دون السعي للوصول إلى السلطة، أو الحكومة، فالمهم هو توجيه صناعة القرار بما يخدم المشروع الإسلامي وأهدافه - ولو على المدى البعيد - لا التنازع على رئاسة السلطة.

وفي حالة الأغلبية (التمكين) يكون الحل: هو بناء "مؤسسات الهوية الإسلامية" حيث لا يكون الهدف وصول رئيس إسلامي، بل الهدف بناء المؤسسات الإسلامية التي تفرز الرئيس المسلم الراشد، فلا قيمة كبرى لوصول رئيس مسلم في مؤسسات علمانية، إنما الهدف بناء الدولة المسلمة، وطالما هناك أغلبية فيكون الاتجاه نحو البناء المؤسسي.[1]

(4) القوة الخشنة:

الاستثمار في صناعة وتقنيات وتجارة السلاح بدلاً عن الاستثمار في مشروعات المقاولات والأغذية، وبناء شبكات العلاقات التي تسمح بالتسليح وقت الحاجة، وامتلاك القدرة على التسليح المناسب في صورة معلنة - دون الحاجة لتنظيمات سرية - كنوع من الاستثمار المشروع حسب قوانين الدول التي تسمح بذلك، ودون الظهور بأي مظهر إسلامي أو علاقة مع المشاهير من الدعاة والشيوخ، واستغلال "الهامش" المسموح به حسب طبيعة كل دولة، وتفادي عمليات الاستدراج والأفخاخ.

(5) القوة الذكية:

(تطوير وسائل التجسس الإلكتروني - والأسلحة الإلكترونية "الهاكرز - الحرب الإلكترونية" - والاستخبارات - بناء شبكة التحالفات والأصدقاء على مستوى عالمي - الاختراق المؤسسي - أساليب التنكر والتمويه - بناء الكيانات الموازية - تكوين اللوبي الفعّال - الشركات الأمنية).

(6) القوة الناعمة:

(الاستقلال الإعلامي وصناعته - تطوير الخطاب الإعلامي - مراكز الأبحاث - المؤسسات التعليمية - حرب الأفكار - العلاقات الدولية - الأحزاب السياسية [وهدفها: الرقابة وفهم بنية النظام الداخلي وليس شرطاً أن تعلن عن توجهها الإسلامي، أو يكون لها برنامجاً سياسياً، أو تسعى

---

(1) راجع - إن شئت - مقال: البناء في الدولة المسلمة.

للأغلبية أو الوصول إلى السلطة] – الدراسات المستقبلية [ومبادئها وتحديد: الفرص المُتاحة، القيود المفروضة أو التهديدات والمخاطر الناجمة، بهدف تحديد صورة مستقبلية، ووضع خطط لعقدين أو ثلاثة عقود، لتحدد بالتفصيل الأهداف والمصالح، وذلك باستخدام النماذج الرياضية الحديثة] – علم إدارة الأزمات).

(7) **القوة الداعمة:**

(بناء الإنسان الواعي المخلص الحر – اللياقة البدنية – الرماية – مهارات القيادة – تطوير تخصصات الدراسات السياسية والعسكرية – هيكلة المشروعات الإسلامية – حماية الكوادر – الرعاية الاجتماعية – الاستثمار في العقول المتميزة).

(8) **القوة المُنظِمة:**

(التكامل الإداري – بناء شبكة العلاقات العامة).

* * *

والوحدة والتماسك بين هذه القوى يكون من خلال:

(1) نزع كل فكرة، وسد كل مسلك يؤدي إلى "البأس والتنازع بين الأمة المسلمة الواحدة" وتقديم معاني وسلوكيات "الأخوة والتناصر والولاء" التي تمنع الاقتتال البيني بين الأمة الواحدة، والإيمان بالكتاب كله، وعدم مُظاهرة العدو – سواء الخارجي أو الداخلي – على قطاعات في الأمة مهما كان الخلاف معها.

(2) إطار العمل لا إطار الانتماء الحزبي.. فالانتماء للأمة المسلمة فلا تحزّب ولا تعصب، وذلك من خلال أن يحمل المسلم هَم هذا الدين وهذه الأمة – دون ضرورة الانتساب لجماعة بعينها – ويمضي مع المقربين منه والصادقين العارفين.. يحقق ما يستطيعه مستفرغاً في ذلك الوسع والطاقة، وشارحاً الصدر لعمل غيره من المسلمين في صورة من التكامل جزءاً جزءاً في مرونة تامة، وتكيف وفق الظروف والتحديات؛ إلى أن تلتئم أجزاء الصورة كاملة.. حتى الوصول إلى درجة "التشبع الاجتماعي"، وإتمام معادلة التغيير الصحيحة.

(3) وضوح معالم المشروع الإسلامي بدقة متناهية، والصبغة الداخلية النفسية بالهوية الإسلامية الخالصة، والإخلاص لدين الله، وللأمة المسلمة، والوعي بحقيقة الصراع وطبيعة المعركة، واستحقاقات سنن التغيير.

(4) التجانس في الهدف، والغاية.

(5) استقلال القرار الحركي، وحرية وتنوع مجالات العمل دون هدر للطاقات، ودون الضغط فوق احتمال النفس.

(6) التوظيف الأمثل لطاقات الأمة، وجميع المهتمين بالعمل لهذا الدين أياً كان اتجاههم.

(7) إدارة الاختلافات بعلم وتسامح.

(8) الخطاب الواضح والصادق للأمة بلا خداع لها، أو ازدواجية.

(9) توظيف السلبيات في أعمال إيجابية، وحصرها ضمن منظومة عمل تسمح بالاستفادة منها.

(10) الاستعداد والإجماع على قتال:(**المحاربين** لدين الله وشرعه.. المعتدين على دماء وأعراض وأموال المسلمين، **والمحاديين** لله ورسوله ﷺ، **وأكابر المجرمين** المفسدين في الأرض)[1] دون الدخول في مهاترات "التكفير"، وتوحيد الأمة نحو معركة التحرير الكبرى من "المحتل ووكلائه". أو كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً** ﴾[النساء : 75]

فلا بد من "**إعداد القوة**" لخوض المعركة، ولا بد من "**التكامل والوحدة**" بين هذه القوى حتى لا نُفشل أنفسنا بأنفسنا..

(1) كما قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة : 193] ففتنة الأمة المسلمة هي: ترك قتال المحاديين، وأكابر المجرمين الذين يريدون إفساد دين الأمة، وحياتها، ويسعون في الأرض فساداً وبغياً وعدواناً.

ولنكن على يقين أن الباطل سيتحرش بالحق مهما كان ضعيفاً، منزوياً، بعيداً.. يطلب السلم، والحياة، هذه طبيعة الباطل أنه يكره الحق، ويريد الاصطدام به، حتى ولو لم يرغب أهل الحق في الصدام! والباطل لا يعرف التوافق والتعايش مع الحق.. فهذا ضد طبيعة الأشياء، بل أحياناً عندما يُفلس الباطل من وسائل الحرب والمكر والخداع، يعيب على الحق تمسكه بالفضائل والطهر ! والباطل في هذه المواجهة يتسلح بكل قوة، ويستبيح كل وسيلة، فليس لأهل الحق من مفر من المواجهة، ولا مفر من إعداد ما استطاعوا من قوة.

* * *

إننا في حقيقة الأمر وجذوره نواجه العلو الكبير لبني إسرائيل، ونواجه إفسادهم في الأرض، ولابد - وفق سنن الله - أن نواجه هذا الأمر بالوسائل المكافئة له - دون انتظار معجزة من السماء - فانتظار المعجزات والخوارق معصية خطيرة، وذنب عظيم علينا التوبة منه.

وحتى يزول إفسادهم وعلوهم في الأرض بغير الحق - وحتماً سيزول كما هو وعد الله جَلَّجَلَالُهُ - علينا أولاً أن نتأهل كأمة بديلة تستحق الإمامة والوراثة والخلافة عن الله في الأرض بالحق والعدل؛ **أي**: عودة الأمة إلى رشدها، وأول خطوات الرشد هو: عدم اتباع سنن بني إسرائيل.. حيث إننا اتبعناها حذو النعل بالنعل؛[1] فتسلطوا علينا أسوأ تسلط، ولكنه أمر لن يدوم.. فلكل أمة أجل وكتاب، ولكن المشكلة ليست في زوالهم بقدر ما هي فينا نحن.

* * *

(1) وصدق فينا قول رسول الله ﷺ: "**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جُحْرَ ضَبٍّ، لَتَبِعْتُمُوهُمْ فِيهِ**" [مسند أحمد/ 11487]



إقامة الشريعة يعتبر هدف أولي للحركة الإسلامية، ويعتبر أحد أهم الشعارات التي تجمع بها الأتباع، وهذا لا شك هدف في حد ذاته، إلا أنه لم يتم التحديد بصورة واضحة ما هي الشريعة؟ وكيفية تطبيق هذه الشريعة؟ وما هي الشبهات والتحديات التي يجب الانتباه إليها حول هذه الشريعة؟ وما هي منزلة هذه الشريعة في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

فجاء الخطاب – كما هي العادة – عاطفياً شعبوياً، وفي أحيان تُتخذ الشريعة مجرد شعاراً للاستهلاك الحزبي أو الدعائي وللتوظيف السياسي، ولا نقلل من جهد المخلصين ومن المؤلفات في هذا الجانب، ولكن نتحدث عن المشاريع التطبيقية الحقيقية.

فاضطرب مفهوم الشريعة لدى البعض، فخلطوا بينها وبين الفقه، واعتبروا أن الفقه هو الشريعة،[1] وصدّروا للناس أن الشرع هو: "ارتداء السواد، وإطلاق اللحى، وجلد الناس في الشوارع، وإنشاء جهاز الحسبة، وهدم القباب"، وفرض الاجتهادات الفقهية قصراً على الناس، حتى ولو كانت مذاهبهم مختلفة ! وهذا التصور يحمل مشروع الاستبداد والقهر ولكن بصورة دينية.

وتصور البعض أن الشريعة هي مجرد تحقيق العدالة الاجتماعية، والديمقراطية على اعتبار أنها أحد صور الشورى![2] وحماية الحريات، في صورة موهمة ومختلة حول طبيعة "مشروع الشريعة" أو "مشروع التغيير" بالعموم، وهؤلاء ينادون الأتباع بضرورة وهدف تطبيق الشريعة، وينادون غير

---

(1) راجع – إن شئت – مقال: الشرع والفقه والعلمانية.

(2) راجع – إن شئت – مقال: ثوابت الشورى.. وثوابت الديمقراطية، الشورى وآلياتها ومعالم الدولة المسلمة.

الأتباع بالديمقراطية والعلمانية، فيقعون في التناقض والتيه؛ كما ينشأ لدى الأتباع الاضطراب بين تكوينه الفكري، وحماسته العاطفية.

وتصور البعض أن الشريعة بالفعل قائمة، وكل الأمور على ما يرام.. ولا حاجة لنا بالحديث عن تطبيق الشريعة؛ فالدستور والدولة والقانون يتبع الشريعة، في مغالطة كبيرة للحقيقة، وفي اختزال مفهوم الشريعة إلى بعض القوانين.

ونُوجز القول حول تعريف الشريعة في أنها: (**كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية**.. وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، وأصول المعرفة أيضًا.

يتمثل في الاعتقاد والتصور . بكل مقومات هذا التصور . تصور حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، غيبه وشهوده، وحقيقة الحياة، غيبها وشهودها، وحقيقة الإنسان، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها، وتعامل الإنسان معها.

ويتمثل في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والأصول التي تقوم عليها، لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده.

ويتمثل في التشريعات القانونية، التي تنظم هذه الأوضاع. وهو ما يطلق عليه اسم "الشريعة" غالباً بمعناها الضيق الذي لا يمثل حقيقة مدلوها في التصور الإسلامي.

ويتمثل في قواعد الأخلاق والسلوك، في القيم والموازين التي تسود المجتمع، ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث في الحياة الاجتماعية.

ثم.. يتمثل في "المعرفة" بكل جوانبها، وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة.. باعتبار أن النشاط الفني تعبير إنساني عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته، وعن صورة الوجود والحياة في نفس إنسانية، وهذه كلها يحكمها – بل ينشئها – في النفس المسلمة تصورها الإسلامي بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة، وعلاقتها ببارئ الكون والنفس والحياة! وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الإنسان، ومركزه في الكون، وغاية وجوده، ووظيفته، وقيم حياته.. وليس هذا مجرد تصور فكري. إنما هو تصور اعتقادي حي مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث في الكيان الإنساني.

وفي هذا كله لا بد من التلقي عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ). [1]

وكَونها من عند الله فلها السيادة فوق الحاكم والمحكوم.. فهي المرجعية العليا، وهي بذلك تُناقض المذهب "العلماني الدنيوي المدني والديمقراطي الليبرالي" الذي يجعل السيادة للإنسان، بينما في الإسلام: السيادة للشرع (أي: الربوبية لله جَلَّجَلَالُهُ وحده)، والسلطة للأمة. ونبذ هذا الشرع وتركه إلى المذاهب الوضعية هو شِرك في الربوبية؛ كما قال تعالى: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى : 21] فكما لله الخلق، فله الأمر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف : 54] [2]

* * *

ولقد انفصلت الأمة قديماً عن شرع الله، حتى وصلت إلى ما نحن عليه الآن.. بدأ نقض عُرى الإسلام – كما جاء في الحديث الشريف[3] – في أمر "السياسة والحكم" منذ تبديل بنو أمية "الخلافة الراشدة" على سنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[4] إلى "الملك العضوض" على سنة فارس والروم.. فقال أحد ملوك بني أمية: "مَا قَاتَلْتُكُمْ لِتُصَلُّوا، وَلَا لِتَصُومُوا، وَلَا لِتَحُجُّوا، وَلَا لِتُزَكُّوا، وَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّكُمْ تَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا قَاتَلْتُكُمْ لِأَتَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ، وَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ لَهُ كَارِهُونَ"[5] فتم اغتصاب الشورى والحق والعدل، وأكل أموال الناس بالباطل.. فاتخذوا دين الله دخلاً، وماله دُولة بينهم، وعباد الله خولاً.. أي: عبيداً للملوك.[6]

* * *

(1) التعريف للعلاّمة سيد قطب رَحِمَهُٱللَّهُ.

(2) راجع – إن شئت – مقال: مفهوم الحاكمية.

(3) "**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ**" [مسند أحمد/ 21655]

(4) السنة كانت تعني طريقة الحكم، راجع – إن شئت – مقال: مصطلح السنة.

(5) [مصنف ابن أبي شيبة/ 31074، البداية والنهاية لابن كثير/ ج8، ص 131]

(6) جاء في الحديث الشريف: "**إِذَا بَلَغَتْ بَنُو أُمَيَّةَ أَرْبَعِينَ، اتَّخَذُوا عِبَادَ اللَّهِ خَوَلا، وَمَالَ اللَّهِ نِحَلا، وَكِتَابَ اللَّهِ دَغَلا**" [المستدرك على الصحيحين [4 : 473]، مسند أحمد/ 11349]

فأول ما جاء به الإسلام هو تحرير الإنسان من العبودية للملوك، كما قال العرب: "هذا دين تكرهه الملوك" لأنه يحرر الناس من عبوديتهم إلى عبودية الله وحده، وهو يسوس الناس بالشورى والعدل والقسط والحق، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وهو يُقسم المال كما أمر الله، فالمال مال الله، وهو حق للأمة كلها، ليس للحُكام فيه نصيب زائد عن أدنى أحد في هذه الأمة.

فجاءت الضربة الأولى للشريعة، ونقض عرى الإسلام من جهة أمر الحكم والمال، فلم يقوموا بأمر الشرع فيها، ومن هنا خرجت الشرور والآثام، وانقضاض باقي عرى الإسلام. ومُنع الفقهاء وأئمة الدين من الحديث في أمر "السياسة والمال والخلافة" وتركوا لهم حرية القول في أمور العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج... إلخ، ومجرد التلميح بالاعتراض على أمر سياسي.. يُؤخذ صاحبه بشدة مهما كانت قامته العلمية كمثل الإمام مالك وأبي حنيفة - رحمهما الله - فأُخذ وضُرب الإمام مالك لمجرد فتوى "بطلان طلاق المُكره" لما فيها من إشارة لبطلان بيعة المكره أيام العباسيين!

ومن هنا بدأ الانفصال بين أمور السياسة والمال والخلافة وبين الدين، ولكن القضاء حينها كان يحكم في الجنايات والمعاملات الشخصية بأحكام الفقه المستنبطة من الشريعة، وكان الحُكام - في الملك العضوض بالعموم - يملكون قرارهم السياسي الدولي، وفي استقلالية تامة، ويَرهبهم الأعداء، ولهم سيادة في أمورهم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ويدافعون عن الأمة الإسلامية كلها من أي غزو يتهددها، بل ويستبقون في طلب العدو، وكان لهم هوية إسلامية واضحة.. لا تسمح بتدخل أجنبي عنها، وليس لهم عداء مع الدين بل يتخذونه شعاراً - إلا فيما يخص أمور الحكم والمال - والأمة ذات هوية ووحدة واحدة جامعة.

ولما سقطت الدولة العثمانية وجاء الاحتلال الغربي بثقافة جديدة.. أراد سلخ الأمة عن كل ما يمت لدينها بصلة، فضرب أهم مبادئ الشريعة.. وهو: عدم الخضوع للمحتل الكافر - في أي صورة من صور الخضوع - وعدم تمكينه من أي قرار يخص المسلمين في أي شأن من الشؤون؛ فسقطت الأمة في قبضته، ووقعت تحت هيمنته في كل شيء، فحوّل القضاء الإسلامي إلى القضاء الوضعي العلماني، وسيادة الشريعة إلى سيادة القانون الوضعي.. وحاول سلخ الأمة عن هويتها

وعن أصول دينها، ولكنه أبقى على الشر الذي كان فيها والانحراف الذي وصل بها إلى الهزيمة وهو "الاستبداد والقهر" واستعباد الناس، وأكل أموالهم بالباطل.

هذه الصورة المتكاملة عن الشرع، ورحلة الانحراف عنه.. تضعنا على بداية الطريق، وتُسهل علينا معرفة البداية، وتصوغ لنا - بإذن الله - مشروع التغيير.

إن الشريعة ليست هي مجرد الحدود.. فالحدود جزء من النظام الجنائي في القضاء الإسلامي، بل الشريعة تشتمل أيضاً على: النظام، والحكم، والقضاء، ورعاية شؤون الأمة، والهوية الجامعة...إلخ. والشريعة شيء والفقه شيء آخر.

فالشريعة هي: نصوص الوحي التي أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، وما أمر به من الحلال، وما حرّمه سبحانه من الحرام، ونحن نؤمن بها ونقيمها لأنها جاءت من عند الله، فالإسلام هو قاعدة التشريع والتوجيه. كما هو العقيدة والخلق.

وأما **الفقه** فهو: الأحكام المستنبطة من هذه النصوص، وفيه مدارس مختلفة يَسع المسلم أن يتبع أي منها..

وقد حصل انفصال بين معنى "أصول الفقه" بمفهوم الاستنباط، و"أصول الفقه" بالمفهوم القرآني. فأصول الفقه بمفهوم الاستنباط تعني "أدوات الاجتهاد" مثل أن نقول: أصول الفقه في القرآن معرفة: العام والخاص، والمقيد والمطلق، وأسباب النزول، ولغة العرب... إلخ، وفي الحديث: الصحيح والضعيف، والمتواتر والآحاد، قطعي وظني الدلالة، تعارض الأدلة... إلخ، وفي الإجماع: حجية الإجماع، أنواع الإجماع...إلخ، وفي القياس: أدوات القياس، طرقه، ...إلخ.

وأما المفهوم القرآني لـ "أصول الفقه" فهو: يعني المقاصد والغايات التي يريدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل أن نقول: أصول الصلاة وغايتها: النهي عن الفحشاء والمنكر، ذكر الله، الإخلاص، إطعام الطعام، رعاية اليتيم، والمساكين - كما جاء في سورة الماعون - وقد جعل الله جَلَّجَلَالُهُ منع الطعام سواء بالاحتكار أو البخل أو الربا أو الفساد أو بالإسراف أو بأكل أموال الناس بالباطل هو "تكذيب بالدين".

ولذلك لما سُئل رسول الله ﷺ عن هذا الدين وما الذي جاء به تلا قوله تعالى: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾** ﴾[الأنعام: 151، 153]

ثم تلا ﷺ قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[النحل : 90]

وقال ﷺ: "**وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ**"(1)

وأدى الخلط بين الشريعة والفقه.. إلى تضخم الفقه، والانشغال والاختلاف على أبسط الجزئيات فيه من جانب، وأدى إلى وجود صور العبادات دون مقاصدها وغايتها، فوجدنا ملايين من المصلين، ولكن نظامهم الاقتصادي "يمنع الماعون"، ووجدنا ملايين من الحجيج لكن نظامهم السياسي يقوم على "الظلم والبغي والقهر" ولا يلتفت إلى قضايا الأمة المصيرية.

وإقامة الشرع في أمر الصلاة – مثلاً – لن يفرض على الناس الجهر بالبسملة في الصلاة أو عدم الجهر بها، أو رفع الأيدي أو عدم رفعها، فأيها اختار المسلم فيها اجتهاداً فهو له،(2) ولكن إقامة مقاصد الشرع في أمر الصلاة سيتجه إلى منع الفحشاء والمنكر والبغي، وعدم ترك الناس جوعى،

---

(1) راجع – إن شئت – القصة بتمامها في [دلائل النبوة للبيهقي: (2 : 422)].

(2) والأخذ باليسر هو منهج الإسلام، ونرضى بالتيسير في كل شيء – في أمور العبادات والمعاملات – كما جاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ الْيُسْرَ، وَكَرِهَ لَهَا الْعُسْرَ " قَالَهَا ثَلاثًا**" [المعجم الكبير للطبراني/ 707]

فهذه هي مقاصد الشريعة في هذا الأمر. والأمور في الشريعة كلها متصلة، ويشد بعضها بعضاً في بنيان واحد، وفي جسد واحد.. هو جسد هذه الأمة.

* * *

وأما مسألة إعادة الأمور إلى نصابها أو إقامة الشرع أو تطبيق الشريعة.. فيجب أن يأخذ كل ذلك في الحسبان، ولا يتصور أحد أن نموذج الشريعة المتكامل سيهبط علينا من السماء، أو لا يمكن العمل على تحقيقه حسب الوسع والطاقة، وإلا سيكون في ذلك رداً لبعض الشرع !

وأرى إن تطبيق الشريعة يبدأ من نقطة الانحراف التي حدثت أول مرة وهي: إعادة أمور الحكم والمال إلى عهد الرشد لا الملك العضوض.. وإلى سنة رسول الله ﷺ لا سنة الملوك أو سنة فارس والروم، والقضاء على الفساد، ورد أموال الأمة وثرواتها إليها، ومعالجة الأوضاع المنحرفة إدارياً وقانونياً، وحل مشكلات الناس بما يوفر لهم حياة إنسانية تليق بالإنسان المُكرم من خالقه..

وإنه باستقامة أمور الحكم؛ وتحرير الناس من الملوك والطغاة والطواغيت، وبإعادة حقوقهم المالية والإنسانية ورد كرامتهم من شأنه أن يُنشأ الناس نشأة أخرى، ويُحيي الإيمان في قلوبهم حياة جديدة.

ثم بعد ذلك يقوم النظام السياسي والاقتصادي على أسس الإسلام ومبادئ الشرع الحنيف، وتحقيق المقاصد والغايات أولاً، ثم إصلاح النظام القضائي، وإلغاء القوانين المتعارضة مع الشرع، وصياغة القوانين صياغة إسلامية صحيحة، تراعي الحدود التي أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها.

* * *

كما يجب الانتباه إلى عملية "التطبيق الوهمي" للشريعة، لخداع الناس، أو للتعمية على المشروع الحقيقي المتكامل للشريعة، فيخدعون الناس بـ "الكلام" عن الشريعة دون "خطة" لإقامتها، أو يخدعون الناس بافتتاح مسجد هنا أو هناك، أو بتحريم بعض محرمات الشريعة؛ إقناعاً للناس أن الشريعة حاكمة في كل شيء، ولا يكون ذلك إلا مجرد مظاهر خادعة، أو لافتة لاستمالة عواطف الجماهير.

فمعايير الحكم الراشد الصالح في الشريعة، قائمة على: "العدل الصارم" و"المساواة الكاملة" و"رد المظالم" و"استفراغ الوسع في خدمة الأمة من كل طريق" و"استقامة الأوضاع السياسية والإدارية"...إلخ، فمن الممكن أن يكون دستور الدولة إسلامياً، والقوانين إسلامية، لكن الأوضاع السياسية والنظامية رديئة باطلة رخوة، وبذلك لا ينطبق عليها معايير الحكم الإسلامي الراشد، حتى ولو كانت القوانين إسلامية.

* * *

ونجد من هذا التصور إن الأمر قد يحتاج إلى أجيال أو قد تُستهلك أعمارنا ونحن في الخطوة الأولى منه، أو قد لا يستطيع جيل من الأجيال إلا تحقيق جزئية واحدة من أمر إعادة الأمور إلى نصابها، ومن هنا يجب أن نعرف حدود طاقاتنا وقدراتنا حتى لا نخدع الناس، أو نصور لهم أموراً غير الحقيقة.

كما يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن النظام الدولي الذي أسقط وحدتنا السياسية[1] - بسقوط الدولة العثمانية - وسرق ثرواتنا، واحتل بلادنا، ووضعها تحت حكمه وتصرفه لا يقبل بأي حال من الأحوال أي صورة حقيقية لتطبيق الشريعة، لأنه سيكون فيها: (إعادة وحدة المسلمين، وإعادة الهوية الإسلامية الجامعة، ويعني إدارة الثروة وفق مصلحة الأمة - لا لمصلحة حفنة من المرابين واللصوص - ولأن من أول معاني ومقتضيات الشريعة الإسلامية هو: التحرر من هيمنة المحتل، وإعادة إنسانية المسلم وكرامته للوجود، واسترداد ثروات المسلمين من أيدي اللصوص والعملاء، واستقلال القرار السياسي للمسلمين، وإعادة منهج "إعداد القوة" للحياة مرة أخرى)، مما يعني تجميع طاقات المسلمين لبناء القوة الحقيقية في كل المجالات؛ مما يؤدي إلى السيادة الدولية، وبناء

---

(1) الاحتلال - الاستعمار - ليس هو السبب الرئيسي في هذا السقوط ، بل هي عوامل الانحلال في الدولة العثمانية، فهي إحدى - وربما آخر - مخرجات "الملك العضوض"، فوجد المحتل فرصة في الإجهاز عليها فتدعى لأكلها، ولكن بسقوطها دخلنا مرحلة "الملك الجبري" تحت هيمنة المحتل الذي يريد سلخنا تماماً عن كل مقومات الإسلام، وكل مقومات القوة، لنكون مجرد توابع له، وسوقاً لمنتجاته.

حضارة إنسانية جديدة، فالمحتل يعرف أن الشريعة هي السلاح الفعّال لمواجهته، والتحرر من رقّه.. لذا يعمل على محاربتها بكل وسيلة.

ولهذا فإن من أول الخطوات على طريق الشريعة هو: التحرر والعتق من العبودية والذلة والخنوع لهذا النظام الدولي، الذي يعني بالضرورة التحرر من وكلائه وعملائه وخدمه وعبيده في بلادنا.

* * *

ولا يمكن أن نعد الناس – مثلاً – بنظام اقتصادي إسلامي متكامل بينما العالم بأسره واقع تحت الهيمنة الأمريكية الاقتصادية، وتحت رحمة صندوق النقد، والبنك الدولي، وتحت سطوة الدولار، وإن العملة التي في أيدينا مجرد أوراق قد تصبح في اليوم التالي أرخص من أوراق الجرائد ! ولكن نستطيع أن نعد الناس برد الحقوق إليهم، وتوزيع المال بالسوية، وعدم الاستئثار بشيء للحاكم أو لبطانته، والعمل قدر الوسع والطاقة واستفراغ الجهد على تحرير الأمة اقتصادياً وسياسياً.

وإنه يسعنا أن نقول للناس: سنعمل على تحقيق الخطوة الأولى – أو جزء منها[1] – وليُكمل غيرنا باقي الخطوات، حتى يتم الأمر كله لله؛ فنكون بذلك صدقنا مع الله جَلَّجَلَالُهُ، ومع أنفسنا، ومع الناس.

وإن فهم الشرع على صورته الشاملة، وفهم طريق البداية، وإدراك القدرات والتحديات، وبيان حقيقة الشرع للناس.. من شأنه أن يحقق خطوات حقيقية جادة وراسخة على طريق إقامة الشرع.[2]

* * *

(1) دون إغفال أو إنكار أو محاربة لباقي الخطوات.

(2) راجع – إن شئت – كتاب: شرع الله "فصل: كيفية تطبيق الشريعة".



خَاتِمَةُ

هذه بعض الأمراض البارزة في الحركة الإسلامية نذكرها من أجل تصحيح المسار، وعلاج الأخطاء، وليس من أجل اللمز ولا الطعن في أحد، فليس لنا من غاية إلا إقامة هذا الدين، ونصرة هذه الأمة. .

وهذه السطور كانت محاولة للكشف عن الأمراض التي في نفوسنا وعقولنا، فإذا أصبتُ في بيان هذا الأمر.. فمن الله الفضل، وعنده الجزاء، وما بكم من نعمة فمن الله. وإن أخطأت فمن نفسي، فاللهم غفرانك ورحمتك، وهدايتك.. وعسى ربنا أن يهدينا لأقرب من هذا رشدا.

ولا شك أن مناقشة هذه الأمراض يحتاج إلى جهد كبير، وتفصيلات كثيرة، وتحليلات أدق للوقوف على مدى عمق هذه الأمراض، ومدى انتشارها، وكيفية مواجهتها، وهذا يتطلب الكثير من جهد المخلصين.

وما ذُكر من انحرافات وأمراض في هذا الكتاب إنما هي – في الغالب – ما يقع عن حسن قصد وصفاء نية، وهناك انحرافات وأمراض أخرى تكون عن فساد قصد، وخيانة، ونفاق.. والمشكلة الكبرى أن تكون بيئة العمل الإسلامي بيئة غير مُحصنة؛ تسمح بانحراف المنحرف، بل ويمكن للمنحرف القاصد الإفساد أن يصل فيها إلى مراكز التوجيه والقيادة !! ومن يقصد الإفساد يُزين له الشيطان عمله أنه ينفع الناس، ويُصلح.. حتى يموت الشعور بالجريمة، وألم وخز الضمير !.

* * *

ونلحظ من هذه الأمراض مدى خطورتها، وتسلسلها، وتشابكها، وترابط بعضها البعض، فكلما تجتمع هذه الأمراض كلما يصعب علاجها، وإذ لم يتم علاجها أو تأخر علاجها.. فإنها تُفرّخ أمراضاً

أخرى.. وإن هذه الانحرافات بالعموم هي ناتج طبيعي، وثمرة ما نحمله من أفكار وتصورات ومفاهيم وقيم وموازين.

ونجد من هذه الانحرافات أيضاً أنها قد جعلت البعض – في أحيان – يظن أن الحركة الإسلامية – في صورتها المعاصرة الآن – كأنها تتآمر على نفسها، أو يتآمر بعضها على بعض، أو تتآمر هي على الإسلام وعموم المسلمين بعد الآثار السلبية الناتجة عن هذه الأمراض !.

وإن المضي في علاج هذه الأمراض، والشفاء منها بإذن الله.. سيكشف لنا عن معالم طريق التمكين والهداية، وإنه لن يتغير ما بواقعنا من آلام وعذابات واستضعاف، حتى نُغير ما بأنفسنا نحن من أمراض وانحرافات وجهالات كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد : 11]، وكي تتحقق سنة التغيير لا بد أن يكون العمل على المستوى الاجتماعي كما توحي كلمة "قوم" وليس مجرد صلاح الفرد الذاتي – وإن كان هو المقدمة لكل تغيير اجتماعي – وإنه لم يغب عنا التمكين والريادة والكرامة إلا عندما تغير ما بأنفسنا من صلاح وأمانة وصدق وإخلاص ووعي، فما غابت هذه النعمة إلا باختلال موازين الحق والعدل في نفوسنا، كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال : 53]، وإن المشكلة الحقيقية ليست في قوة العدو، وليست في الحصار الداخلي والخارجي علينا.. إنما هي فينا نحن، وما توحش العدو علينا إلا أحد مظاهر أمراضنا نحن، والمطلوب منا علاج هذه الأمراض والانحرافات حتى نتأهل لأن نكون أمناء على حمل هذه الرسالة.

لقد وعَدَ اللهُ الذين آمنوا "وعملوا الصالحات" بالتمكين، فقال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور : 55] أما الذين آمنوا "وعملوا السيئات" فقد توعدهم جَلَّجَلَالُهُ بالعقوبة؛ لعلهم يرجعون..

و"**العمل الصالح**" الذي هو شرط التمكين – بعد الإيمان – ليس المقصود به صلاح الفرد الذاتي فحسب، بل هو "العمل الصالح" اللازم لسنن وشروط التمكين، فمن العمل الصالح: تغيير ما

بالنفوس من أفكار وقيم وتصورات وموازين وأخلاق، وعلاج الانحرافات والأمراض الذاتية، وعدم التنازع والتشيع أحزاباً في الدين، وعدم الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض.. بل الإيمان بالكتاب كله، ولأن التمكين يكون في مجتمع بشري، وليس أمراً فردياً خاصاً.. فيجب "**الدعوة**" إلى العمل الصالح، ويجب "**الاجتماع**" على هذا العمل الصالح، ويجب "**الجهاد**" من أجل هذا العمل الصالح، حتى يتحقق شرطي التمكين: **الإيمان والعمل الصالح**.

* * *

وتشير هذا الأمراض والانحرافات بكل وضوح إلى أن الحركة الإسلامية بحاجة إلى دماء وقيادات جديدة، وفكر راشد يستفيد من دروس الماضي، ويُعد العدة للمستقبل بأسلوب علمي وحركي يكافئ الواقع المعاصر، ويتفوق عليه..

لأن هذه الأمراض ستُفسد كل فرصة سانحة، وستحطم أي نصر نُوفق إليه، فهي من الخطورة والكارثية بمكان، فلا يمكن أن نغفل عنها، أو نتهاون في شأنها، أو نؤجل النظر فيها، أو نبخل عن تكاليف علاجها، أو نجبن عن مواجهتها.

وقد وجد البعض أن عموم المسلمين – الغير مؤدلجين ومن غير الحركة الإسلامية – أكثر استجابة للتغيير ولدعوة الإيمان، بعد ما تكلس كثير من أبناء الحركة الإسلامية على التعصب والغلو للشيخ أو الجماعة، ولعل سبب هذا التصور والشعور هو الأمراض والانحرافات التي ذكرنا بعضاً منها، والتي تحتاج إلى وقفة جادة وقوية للعلاج، وإن رصيد الأمة في عموم أبنائها كبير، وعظيم، يجب أن نستنهضه، وندعوه.

* * *

وإن علاج ما بالنفوس من انحرافات يكون بالعموم عن طريق:

أولاً: بالاعتراف بوجودها، فلا يأخذن أحد العزة بالإثم ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّه أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ** ﴾ [البقرة : 206] فإن الصدق مع النفس لهو أول طريق صلاحها وعلاجها مما أصابها.. وأول خطوة هي: ألا "نستكبر" عن الاعتراف بالأمراض.. فالاستكبار خطيئة إبليس، وما أصابت إنسان

إلا حولته إلى مسخ من شياطين الإنس ! فهناك الكثير من أمراض النفوس ما يكون علاجها الناجع هو مجرد الإعلان عنها، والإقرار بها.

ثانياً: العزيمة على تطهير القلوب والأرواح مما علق بها من أمراض، واستسلامها لله جَلَّجَلَالُهُ وحده بلا شريك ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال : 2] ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الحج : 35] فكل أمراض القلوب ليس لها علاج إلا الهروب إلى الله وحده، وطلب رضاه وحده، والخوف منه وحده، واللجوء إليه وحده، والتوكل عليه وحده.

ثالثاً: مواجهة النفس بما فيها من أمراض، وعدم الهروب، وإلقاء اللوم على الآخرين، وتورم الذات..

ومازال باب التوبة من تلك الأمراض التي أصابت النفس مفتوح، والعمل على تزكية النفس، وتهذيبها، وتقواها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.. من أهم ما يجب على الأمة المسلمة فرادى وجماعات أن تقوم به، وتسأل الله العفو والمغفرة.. عسى الله أن يُحييها من جديد، ويُذهب عنها الغثائية والوهن..

﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً** ﴾ [النساء: 173]

* * *

وإننا نستهدف بهذه الكلمات أنفسنا، وأبناء الحركة الإسلامية، وكل محب يريد العمل من أجل إقامة هذا الدين، ونحن بحاجة إلى الوقوف على أمراضنا الداخلية لنعالجها، ونمنع في المستقبل – بإذن الله – ظهور مثل هذه الأمراض مجدداً، وبعلاج هذه الأمراض ستتمكن من الاتحاد نحو مواجهة التحديات، وصياغة المشروعات الإسلامية الناجحة، وتفعيل كافة طاقات الأمة الكامنة، بدلاً من أن يكون بأسنا بيننا.

وإنَّ الأمة الآن مُكبلة بأغلال الفكر الذي يُبعدها عن الدين والشرع، ومُكبلة بالفكر الذي يُبعدها عن إعداد القوة والجهاد، ومُبكلة بالفكر الذي يُبعدها عن الحياة والفكر والوحدة.. والأمة بحاجة إلى جراحة دقيقة تستأصل هذه "الأورام الفكرية" وتُميز بين الورم والإنسان، ونسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن تستدرك الأمة هذا الأمر سريعاً؛ حتى يتوقف نزيف التضحيات بلا مقابل في دروب التيه، وأن تعود – بإذن الله – إلى الرشد وإلى صراط الله المستقيم.

وإذا نحن نستهدف **ميلاداً جديداً للحركة الإسلامية**، فإنا نرجو أن يكون هذا الميلاد لا يحمل جينات الانحرافات التربوية والفكرية والسلوكية، فلا يكون استنساخاً لما عليه واقعنا الآن، بل يكون **ثورة** تطهير فكري وروحي ونفسي وسلوكي؛ تستفيد من تجارب الماضي، وتتعلم الدرس، وتعزم على تصحيح المسار، وعلاج الأخطاء بكل شجاعة، وتعيد استحقاقها للريادة بأن تقوم لله بالحق، وأن تشهد بالقسط.

مازالت هناك الفرص مادامت الحياة.. ومازال هناك الوقت للتصحيح والعلاج، فيا لفوز من سعى في صلاح هذه الأمة كما يحب الله ورسوله ﷺ.. ابتغاء وجه الله الكريم.

* * *



فهرس

❊ ❊ ❊